الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية العدد ١٣٤ - السنة الثانية عشرة - مارس ٢٠١٠ - الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazer - Volume 12 - Issue 134 - March 2010

صورة الرئيس
عبد الناصر وحزب الله
محمد سليم العوا

حوار مع بشار الأسد
آلان جريش

هل الاستبداد عربي أم اسلامي؟
لاري دايموند

قراءة سيد قطب
معتز الخطيب

دماء ما بعد الحربين
إريك هوبسباوم

السنة الثانية عشرة
العدد ١٣٤
مارس ٢٠١٠

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

حقوق نشر
جميع المواد والرسوم
محفوظة

محتويات العدد:

● محمد سليم العوّا ٤
عن مصر التى كانت!!!
● لارى دايموند ١٤
مشكلة الديمقراطية عربية أكثر منها إسلامية.. فن الاستبداد العربى
● ألان جريش ٢٠
دوامة الأسئلة المكررة.. حوار مع بشار الأسد
● إيريك هوبزباوم ٢٤
دماء ما بعد الحربين
● أكرم حمدان ونزهت طيب ٢٩
العولمة والديمقراطية والإرهاب.. مقالات هوبزباوم
● ديفيد غولدبرغ ثيو ـ سارى مقدسى ٣٢
هل تجرؤ.. ألا تكون إسرائيليا!!
● عدسة: بلاتون ٤٠
صورة الرئيس
● معتز الخطيب ٤٨
أزمة أفكار.. أم مشكلة قراء.. سيد قطب وجماعات العنف والتكفير
● وليد محمود عبد الناصر ٥٦
قراءة يابانية.. لأفكار مصرية ـ أمين ميزوتانى عن أحمد أمين
● أحمد آق كوندوز ٦٤
الدولة العثمانية المجهولة
● إصدارات جديدة ٧٠

كتّاب العدد:

- أحمد آق كوندوز .. كاتب تركى
- ألان جريش .. صحفى فرنسى
- إيريك هوبزباوم .. مؤرخ بريطانى
- ديفيد غولدبرغ ثيو ... مدير معهد بحوث الإنسانيات بجامعة كاليفورنيا
- سارى مقدسى... أستاذ الأدب الإنكليزى والمقارن فى جامعة كاليفورنيا لوس أنجيليس
- لارى دايموند ... مدير مركز للديمقراطية والتنمية وسيادة القانون بجامعة ستانفورد
- محمد سليم العوا... محام بالنقض ... رئيس جمعية مصر للثقافة والحوار
- معتز الخطيب .. كاتب وباحث من سوريا
- وليد محمود عبد الناصر .. كاتب مصرى

رسوم العدد

محمد حجى ـ عماد حجاج

لوحة الغلاف للفنان حلمى التونى عن لوحة شهيرة للفنان المعلم محمود سعيد ـ زيت على توال ٨٠×١٠٠ سم (تفصيل)

يحظر النسخ أو الطبع أو التصوير على دعامات ورقية أو عبر الحاسبات لكل أو بعض المقالات المنشورة أو أجزاء منها، بغير إذن كتابى مسبق من الناشر.

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١,٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١,٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

محمد سليم العوا

عن مصر التى كانت!!!

■■ سيدى الرئيس..

حضرات المستشارين..

أفتتح هذا القسم من دفاع المتهم الثانى، ولعله دفاع للمتهمين كافةً، بتحية الزملاء المحترمين فى النيابة العامة الذين تولوا المرافعة فى هذه القضية ممثلين للاتهام.

لقد أبت على هؤلاء الرجال ضمائر حيَّة ودينٌ بادٍ إلا أن يعطوا القضية فى مرافعتهم وصفها الصحيح وتكييفها الواقعى: «قضية سياسية قبل أن تكون، بأى اعتبار، قضية جنائية».

لقد استمعنا إلى ذكر دولة قيل إنها تحاول الهيمنة على المنطقة بأسرها. لكن اسمها لم يذكر، وبقى لنا بهذا الإغفال المتعمد أن نجتهد فى إقامة الدليل على الذى يقصده الاتهام بتلك الدولة.

واستمعنا إلى أن حزب الله مجرم لأنه أقام بين وحداته. التى يقاوم بها الصهيونية وحدة تنعت بالوحدة (١٨٠٠) المسؤولة عن دول الطوق، وتركنا الاتهام.

واستمعنا إلى مذهب يرى أن حزب الله أداةٌ للدولة الأجنبية، على نحو يحقق وصف الدولة الأجنبية لمن يتخابر معه، فتقوم بذلك الجريمة الموصوفة فى المادة ٨٦ مكررا ج من قانون العقوبات، فأصبح علينا بيان مدى صحة هذا الاستنتاج أو مدى خطئه.

واستمعنا إلى عبارات فيها ذكر العدو، وعبثه وغروره... ولم يوقفنا الادعاء على الذى يقصده بهذا التعبير فأمسى من واجب الدفاع تبيين من الذى يستحق هذه الأوصاف الواردة فى تلك العبارات، ويقيم الدليل على ذلك.

واستمعنا إلى تأكيد لدور مصر التاريخى فى نصرة القضية الفلسطينية وأن المتهمين أرادوا بجرائمهم. التى تحاكمونهم عنها. «أن تتخلى مصر عن قضية أمتها ليرثوا عرش ريادتها»!! فأضحى واجبا علينا أن نبين صنيع مصر الحقيقى، لا فى هذا مواجهة العدو الصهيونى بتزويد المقاومين الفلسطينيين فى غزة بالسلاح والعتاد، وتدريب من يمكن تدريبه منهم ليعود مرة أخرى إلى أرض فلسطين المحتلة فيقاوم منها العدو الصهيونى.

الركن المادى لهذا النشاط كله كان: محاولة المساعدة فى إمداد وتموين القوى المقاومة للاحتلال فى فلسطين بالسلاح والخبرة.

والركن المعنوى، القصد، كان هزيمة العدو الصهيونى، إن لم يكن فى وجوده بإزالته وهدمه. وهو واقع لا محالةَ طال الزمن أم قَصُر. إن لم يكن فى وجوده، ففى غطرسة القوة التى يدعيها، ويهدد شعوب المنطقة كلَّها بها. إن لم تكن هزيمة كلية نهائية، فهزيمة جزئية موجعة يتراكم أثرها مع آثار الهزائم التى أصابته وتصيبه، منذ هزيمته فى رمضان ١٣٩٣هـ = أكتوبر ١٩٧٣ على الجبهة المصرية، إلى هزيمته فى لبنان فى جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ = يوليو/ تموز ٢٠٠٦، بل حتى حيثما كان، وبكل وسيلة أتيحت، وبلا نظر إلى شىء مما يفرضه القانون الدولى والمحلى، على غير مواطنى الدول، من احترام سيادتها، وعدم انتهاك أراضيها بدخولها بغير إذنها؟

من الذى صنع ذلك أوَّلَ الناس وعلمَّهُ من بعد للعالمين؟ إذا عرفناه أقمنا الحجة عليه بفعله الحسن الرائد الشجاع المثمر أحسن الثمر. ولذلك صحت مقولة القائل صادقًا: «...وأول راضٍ سنَّةً من يسيرها»(!!)

مصر، يا سيدى الرئيس، هى أول من مهَّد هذه السبيل، وشقَّ هذا الطريق، وسار فيه أشواطًا بعيدة لو ذهبت أصف تفاصيلها، وأذكر حقائقها، لضاق بى المقام عن الوفاء بحقها. لكننى أكتفى بإشارة دالة غير مخلة، تثبت، بلا ريب، أن الذى صنعه المتهم الثانى من أبطالِ مصرَ تعلَّمه، وأن الهدْىَ الذى حاول أن يبلغ به مَحلِّه هو هدْىٌ غَذَتْهُ مصر بروحها وعطائها ومالها عَقْدين كاملين من فى مرافعته. حيارى أىَّ طوق هذا؟ أهو الطوق المحيط بمصر أم بسواها من الدول؟ ولذلك حقٌّ لنا أن نجتهد فى هذه المسألة لبيان المقصود بها.

الشأن وحده، بل فى شأن آخر متصل أوثق اتصال بما نحن فيه، وسأحاول بيانه حالا.

فهذه وجوه خمسة، تناولها الزملاء المحترمون الذين مثلوا النيابة العامة فى هذه القضية، فأكدوا ماهية القضية وطبيعتها ومعالمها وحدودها: إنها قضية سياسية بكل ما للكلمة من معنى ولذلك قلت إن تحيَّتَهم علىَّ واجبة: أن أعْطَوا القضية وصفها الصحيح وتكييفها الحق.

نعم إن أمامنا واجب التعرض لمواد الاتهام، وقد عرض لها الزملاء المحترمون ممثلوا النيابة العامة، لكن الإحاطة بشأنها، وتفنيد دعوى انطباقها على ما هو منسوب إلى المتهم الثانى، بل إلى المتهمين كافة، كل ذلك لا يستقيم بنيانه، ولا يصدُق فى الأذهان بيانه، إلا بعد إنعام النظر وإجالة البصر فى حقيقة ماهية الدعوى ووصفها السياسى.

سيدى الرئيس..

حضرات المستشارين..

إن نشاط المتهم الثانى كله، وما يرتبط به من نشاط غيره، لم يكن له هدف. على ما تنطق الأوراق به. إلا هزيمته بانسحابه دون أن يحقق أى هدفٍ من أهداف حربه على غزة (٢٠٠٨.٢٠٠٩). ثم، بعد هذا التراكم، تكون القاضية التى وعد الله بها عباده: ﴿ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم؛ وليُبْدِلَنَّهم من بعد خوفهم أمنًا؛ يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً﴾ (النور: ٥٥).

إن الاحتلال. سيدى الرئيس. كلَّه، حيثما كان، غير مشروع. والمقاومة المستمرة، فى كل أوطان العرب، أثبتت أن هذه الأوطان تسكنها شعوب لا قابلية لديها للاستعمار، ولا ترتضى الضيم، ولا تستنيم إلى الذل، بل هى شعوب تقاوم جيلا بعد جيل، لا يتوقف جهادها إلا تحرفًا لقتال أو تحيزا إلى فئة، ولا يصيبها مصاب فى مجاهديها إلا كان فى الناشئة من يسد مسدَّه ويقوم مقامه:

إذا مات منَّا سيِّدٌ قام سيدٌ..
قؤول لما قال الكرامُ فعولُ(!!)

من الذى ساد هذا الميدان أول ما شُقَّ طريقه ومُهِّدتْ سبيله؟

من الذى سنَّ سنَّة مقاومة الاحتلال الزمان يزيدان فى بعض البلدان قليلا ويقلان فى بعضها الآخر قليلا.

مصر، يا سيدى الرئيس، أرسلت منذ نهاية عام ١٩٥٢ (عام قيام الثورة) إلى ٢٦/ ١٩٥٩/١١ (فى أثناء الوحدة مع سوريا) خمسًا وأربعين شحنة سلاح وذخائر ومعدات تفجير ومتفجرات وأطقم للضفادع البشرية للتفجير تحت الماء وغيرها من المهمات العسكرية... أرسلتها إلى الجزائر، وبعض المجاهدين فى تونس ومراكش (المغرب). عبر بها الضباط المصريون حدود ليبيا من البر ومن البحر، ثم حدود تونس البرية الصحراوية القاحلة إلى الجزائر، وتسلمها المجاهدون الجزائريون يدا بيد من الضباط المصريين الذين كانوا يعملون. يومئذ. فى المخابرات العامة المصرية.

وكان راعى هذا العمل رعاية مباشرة هو جمال عبد الناصر لا سواه.

يدل على ذلك شهادة فتحى الديب فى كتابه عبد الناصر وثورة الجزائر (الطبعة الثانية، دار المستقبل العربى، القاهرة ١٩٩٠). لقد تضمنت هذه الشهادة، فى مواضع عدة، أن فتحى الديب عندما كان يخبر مدير المخابرات المصرية ومؤسسها: زكريا محيى الدين، بأمر من أمور هذا العمل المصرى البطولى كان زكريا

صفحات من:

مذكرة تتضمن خلاصة دفاع المتهم الثانى محمد يوسف أحمد منصور وشهرته سامى شهاب ـ فى القضية رقم ٧٦٢٩ لسنة ٢٠٠٩م جنايات عابدين المعروفة بقضية «خلية حزب الله» ـ المحددة لنظرها جلسة ٢٠١٠/٢/٢٠

■ ■ ■

للاستزادة ـ انظر أيضا:

فتحى الديب: عبد الناصر وثورة الجزائر، الطبعة الثانية، دار المستقبل العربى، القاهرة ١٩٩٠

دكتور هيثم موسى حسن، التفرقة بين الإرهاب الدولى ومقاومة الاحتلال فى العلاقات الدولية، رسالة دكتوراه ١٩٩٩ جامعة عين شمس، طبعة نقابة المحامين بالقاهرة، ١٩٩٩

عبد الناصر مع جميلة بوحريد وزهرة بو ظريف - ١٩٦٢ ـ تصوير: حسن دياب

محيى الدين يأمره بالعرض على عبد الناصر شخصياً، ومنه كان يتلقى الدعم والإقرار فيما فات، والأوامر والتوجيهات فيما هو آت.

لقد أنشأت المخابرات المصرية. حديثة العهد يومذاك. قسماً للوطن العربى كان يرأسه فتحى الديب، كما أنشأ حزب الله الوحدة رقم (١٨٠٠) لدول الطوق. أليس هذا سلوكاً واحداً يجب أن يسلكه كل مقاوم للمستعمر المحتل؟ كيف يقاومه وهو لا يعمل من حول حدوده؟ وهل يملك أن يبقى نفسه محصوراً فى جبهة واحدة إذا حيل بينه وبين العمل منها توقف جهاده فى سبيل وطنه وأمته؟

لقد كانت مصر هى الرائدة فى ذلك السباقة إليه، ومنها تعلمه المجاهدون العرب والأفارقة. فأنّى لنا اليوم أن ننكر على المقلدين ونحن المبدعون المبتكرون؟ وكيف يسوغ لنا أن نعاقب من يمشون على الدرب الذى افتتحناه، وعبّدناه، واخترعنا وسائل عبوره إلى الهدف الأسمى: تحرير الأوطان من نير الاحتلال!!

إن مصر، فى قيادتها كفاح الشعوب ضد الاحتلال، من خارج أوطانهم، ومن خلال اختراق أراضى دول أخرى، وأنهارها، ومياهها الإقليمية، ومجالها الجوى، لم تساعد شعب الجزائر وشعب تونس وحدهما. لكنها ساعدت: الجزائر وتونس ومراكش (المغرب الآن)، وساعدت الصومال، ومالى، وكينيا (أيّدنا فيها ثورة الماوماو)، وأوغندا، والكونغو (برازفيل)، وبوروندى، وتنزانيا، وزنزبار، ونيجيريا، وإريتريا، والكونغو (كينشاسا) (محمد فائق، عبد الناصر والثورة الأفريقية، الطبعة الرابعة، دار المستقبل العربى، القاهرة ٢٠٠٢). فهذه أربع عشرة دولة ليس من بينها دولة واحدة تجمعها بمصر حدود برية أو بحرية، فكان لزاماً، كما هو الحال فى قضيتنا، أن يعبر رجال المخابرات المصرية. بالمئات إذا جمعناهم. حدود بلاد من البر والبحر والجو كى يصلوا إلى أهدافهم من مساعدة المجاهدين للاستقلال عن الاحتلال، وهى مساعدة كانت دائماً بالسلاح والتدريب على استعماله والعتاد الحربى والمتفجرات وأدوات تفجيرها...إلخ.

إن فى أدلة اتهامنا أن حديثاً جرى بين المتهمين الأول والثانى ومتهمين آخرين حول إمكانية استئجار مركب صيد لتهريب السلاح والذخيرة فيها إلى المجاهدين فى غزة... وسيأتى حديث الاستدلال بهذه الواقعة على الإدانة لاحقاً. لكننى أتساءل الآن هل أتى المتهم الثانى ورفيقه المتهم الأول بهذه الفكرة من عند نفسيهما أم أن لهما فيها سابقاً هو أسوة وقدوة؟

قضت الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب (١٩٩٨) فى مادتها الثانية بأنه: «لا تعد حالات الكفاح بمختلف الوسائل جريمة، بما فى ذلك الكفاح المسلح ضد الاحتلال الأجنبى والعدوان من أجل التحرير وتقرير المصير وفقا لمبادئ القانون الدولى»

إن هذا السابق. سيدى الرئيس. كان المخابرات المصرية، فى تهريبها السلاح والذخائر بكميات هائلة إلى الجزائر وتونس والمغرب. لقد استخدمت المخابرات المصرية اليخت (دينا) الذى كان مملوكا للملكة دينا عبد الحميد ملكة الأردن، بغير علمها. طبعا. واليخت (نمر) الذى كان مملوكاً قبل الثورة للأمير عباس حليم وصودر مع أموال الأسرة المالكة. واليخت (الحظ السعيد) الذى كان مملوكاً للمخابرات العامة. واليخت (انتصار) الذى كان مملوكاً للقوات البحرية، استخدم مرات، واليخت (بلزتريك) الذى اشتراه أحمد بن بللا من إيطاليا بأموال من المخابرات المصرية.

واشترت مصر السفينة (دفاكس) من اليونان بعشرين ألف جنيه إسترلينى لتستعملها فى تهريب السلاح للجزائر. (فتحى الديب، السابق، ص ١٦٩ وص ٢٢٩).

وحمّلت مصر سفينة بريطانية اشتريت بأموال مصرية اسمها (آتوس) بشحنة هائلة من السلاح والذخيرة إلى الجزائر (الشحنة العاشرة) فضبطها الجيش الفرنسى وصادر الشحنة، واعتقل عشرات من المجاهدين الجزائريين الذين كان تدريبهم قد اكتمل على الحرب البرية، وبعضهم على أعمال الضفادع البشرية، بأجهزتهم وسلاحهم وعتادهم... وكان ذلك نتيجة خيانة غير مسبوقة، من شخص غير مصرى، كان يتعاون مع مخابراتنا.

وعندما أصابت صدمة عصبية البطل فتحى الديب. الذى يقابل فى قضيتنا المتهم الثانى. كان رد فعل جمال عبد الناصر أن استدعاه وقال له بالحرف الواحد، والعهدة على فتحى الديب: «مالك زعلان ليه، هو أنت متصور أن كل عملياتك لازم تنجح. دى أول مركب تتمسك من ثمانية مراكب. ولازم تكون واقعى احنا قدراتنا محدودة (أليست قدرات المقاومة كلها محدودة بالقياس إلى الصهاينة؟!) ورغم كده نجحنا فى تهريب عدة مراكب. ولا يهمك!! أنا عاوزك تقوم بعملية تهريب جديدة بكرة، وحتى لو اتمسكت برده شىء طبيعى يجب ألا يهز أعصابنا لأن اللى بيعمل فى العمل السرى لازم يتوقع النجاح والفشل» (فتحى الديب، السابق، ص ٢٥٩).

مصر، إذن، سيدى الرئيس، حضرات المستشارين، هى صاحبة فضل السبق، ودور الريادة فى الباب الذى دخلت منه بعدها كل قوة عربية تحاول التخلص من الاحتلال والقضاء على الاستعمار. وهو الذى فكّر المتهم الثانى. أو الأول. أن يحاول الولوج منه إلى مساعدة المقاومة الفلسطينية أو اللبنانية؟

فأى بأس على المقلِّد إن كنت أنا المجتهد؟ وأى تثريب على اللاحق إذا كنت أنا السابق؟ وأية عقوبة يجوز لى توقيعها على من اقتدى بى واهتدى بهدىى؟

ولم يكن عمل مصر عسكرياً فقط، بل كان سياسياً كذلك. كانت مصر وراء قرار مؤتمر باندونج (١٨. ١٩٥٥/٤/٢٤) «بضرورة التعاون الأفريقى الآسيوى للنهوض بحقوق الشعوب المغلوبة على أمرها».

ووراء القرار الذى أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٩٦٠/١٢/١٤ بوجوب «اتخاذ التدابير الفورية اللازمة فى الأقاليم المشمولة بالوصاية أو غير المتمتعة بالحكم الذاتى لنقل جميع السلطات إلى هذه الشعوب» (دكتور شوقى الجمل، الدور الأفريقى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤ ص ٣٢. ٣٥).

وما أشبه الليلة بالبارحة (!) ففى ديسمبر ١٩٥٨ انقسم ثوار الجزائر إلى فرقتين متناحرتين، واختارت مصر استمرار دعمها العسكرى بكل صوره إلى فريق أحمد بن بللا، وهاجم فريق عباس فرحات مصر هجوماً شنيعاً «سعياً نحو تشويه سمعة مصر» (دكتور عبد الله إبراهيم رزق، مصر وحركات التحرر الوطنى فى شمال أفريقيا، ص ٦٢) فلم يثنها ذلك عن الاستمرار فى مساعدة المجاهدين لتحرير وطنهم، بل زادها عزماً وإصراراً.

عندما تحدث السيد حسن نصر الله عن إسرائيل بعد انسحابها من لبنان. فراراً بليل. فى مايو ٢٠٠٠م قال إن ذهاب الاحتلال من لبنان لا ينهى المشكلات مع العدو الصهيونى... ولكن هناك ملفات «... والفلسطينيون يجب أن يعودوا إلى وطنهم ومن حقهم أن يفعلوا أى شىء لكى يعودوا إلى ذلك الوطن.» (خطابه فى ٢٠٠٠/٤/١٤ بمناسبة ذكرى العاشر من محرم ١٤٢١هـ).

وليقارن من شاء هذا الكلام بقول جمال عبد الناصر بعد جلاء الاستعمار البريطانى عن مصر: «إن القضية المصرية ليست آخر مشاكل المصريين مع الاستعمار، وإن مصر لن تستريح أو يهدأ لها بال حتى تتحقق الحرية الكاملة لكل بلد من البلاد الأفريقية والعربية والإسلامية. ولابد من مواصلة الكفاح لتحقيق هذه الغاية...» (دكتور على عبده إبراهيم، مصر وأفريقية فى العصر الحديث، دار القلم بالقاهرة ١٩٦٢ ص ١٨٧).

إن هذا سلوك الثوار. دولةً كانوا يمثلون أم جماعة أم حزباً أم مجموعة فدائية. هذا هو سلوك الذين يرون أنفسهم من أصحاب الرسالات لا يختلفون فيه سنةً كانوا أم شيعة. هذا سلوك أصحاب العزائم لا تردُّهم عنه هزيمة عارضة ولا عوائق مانعة.

هؤلاء. سيدى الرئيس. يسلكون كل سبيل متاحة لتحقيق هدفهم الأسمى، لا يأبهون بشىء ما داموا فى النهاية يحققون الغاية التى نذروا أعمالهم لها... «الاستمرار فى دعم الكفاح المسلح... بكل طاقاتنا وقدراتنا المتاحة مهما كانت التضحيات... (الثورة) قامت لا لتحرر أرض مصر وحدها بل لتحرر كل الأرض العربية». (فتحى الديب، نقلاً عن جمال عبد الناصر، ص ٢١٤ وتاريخ هذا الكلام ١٩٥٦/٣/١٦م).

هكذا، سيدى الرئيس، كل ثورى مناضل يرى واجبه يسع الناس جميعاً لا قومه وحدهم، والأوطان كافة لا وطنه دون غيره. وهو لا يعرف فى عمله الحدود ولا القيود، فمصر فى عام ١٩٦٩ قصفت ميناء إيلات الإسرائيلى انطلاقاً من الأراضى الأردنية دون علم سلطاتها.

ومصر فى عام ١٩٧٠ أغرقت الحفار الإسرائيلى الذى كان متجهاً إلى خليج السويس فى مياه المحيط أمام أبيدجان.

عدد من الضباط المصريين الذين أنشأوا المخابرات العامة

عاصمة ساحل العاج. دون علم سلطاتها بالنشاطات الهائلة التى مورست على أرضها ومن خلال مياهها الإقليمية لتحقيق هذه النتيجة.

... إنَّ فى هذا الحديث الممتع، مثيراتٌ للشجن أيضاً. وفيما أشرت إليه كفاية ليتساءَل المرء: هاهنا كنا، أين أصبحنا؟ وكيف؟

وليقف هنا اللسان، ولتلجمْ اليدُ القلمَ عن المضى فيما يعبِّر عنه الصمت بأبلغَ مما يعبر عنه الكلام(!!)

سيدى الرئيس..

حضرات المستشارين..

إن نشاط المتهمين كله، وما كان المتهم الثانى بصدد صنعه، لم يكن إلا مساعدة المقاومة الفلسطينية. وليقل من شاء فى هذه المساعدة ما شاء، فلن يجديه من الحقيقة مهرباً أن يغمض عينيه عنها.

وقيام المتهم الثانى بذلك كان جزءاً من واجبات حزب الله الذى لا يصح له وصف قدر صحة وصفه بأنه جزء أساسى أصيل من حركة التحرر العربية الإسلامية فى طورها الجديد الذى أصبح أمانة فى يد الشعوب وخياراً لها، تقديراً منها ومن زعمائها للضرورات التى حالت بين الحكومات وبين القيام بمثل ما كانت تقوم به حكومة مصر فى عقود الخمسينيات والستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضى.

وهذه القوى التحررية يسعها ما وسع الدولة المصرية فى تلك العقود، ولا سبيل لها كى تواصل عملها إلا هذا «مهما كانت التضحيات» كما كان يقول جمال عبد الناصر.

ولهذا النشاط ضروراته ولوازمه. فقد استخدمت لبعض أنواعه الأراضى المصرية. نعم استخدمت الأراضى المصرية للوصول عبرها إلى الوطن المحتل فلسطين. وجندت عناصر فى سبيل هذا الهدف من مصر ولبنان والسودان وفلسطين نفسها، وربما من دول أخرى كذلك!! كلهم عرب، كلهم مؤمنون بقضية عادلة، عاملون فى سبيلها، وبعضهم همه الارتزاق من عمل شريف (!) يُدْفَعُ فيه الكثير مقابل الجهد القليل(!!)

ونحن فعلنا ذلك. لقد استعنا بيونانيين وقبارصة وهولنديين وبلجيك، فضلا عن المصريين وسائر العرب وجميع جنسيات الأفارقة.

فى ١٦ يناير من العام الماضى ٢٠٠٩ وقعت وزيرة الخارجية الإسرائيلية، تسيبى ليفنى، ونظيرتها الأمريكية، كونداليزا رايس، اتفاقاً قبيحاً فى واشنطن، يَنُصُّ على فرضِ رقابةٍ صارمةٍ على مداخل غزة البرية والبحرية والجوية، بمشاركة حلف الناتو وقوىً إقليميةً أخرى، بحيث تنتشر هذه الرقابة لتشمل البحر الأحمر والبحر الأبيض وخليج عدن والخليج العربى وسيناء !!

وتضمن الاتفاق تَعَهُّد واشنطن بإقامة جهاز مراقبة واسع لمنع تهريب الأسلحة إلى قطاع غزة، ومراقبة معابرها وتزويدها بأجهزة متطورة لاكتشاف الأنفاق، بجانب تدريب قوات محلية فى المنطقة على كيفية مواجهة عملية تهريب السلاح إلى غزة.

هذا الاتفاق المخالف للقانون الدولى لتضمنه تدخلا فى الشؤون الداخلية لدول غير أطرافه، هو مجرد مثال من مئات الاتفاقات المشبوهة المماثلة، فَطِنَتْ له الإدارة المصرية، وتحركت سريعاً لإحباطه، فدعت لقِمَّةٍ إقليميةٍ ودولية تشاورية تضم كلا من: رئيس السلطة الفلسطينية وملك الأردن والرئيس الفرنسى والمستشارة الألمانية والأمين العام للأمم المتحدة، وآخرين، لتعلن أن مصر لن تكون جزءاً من هذا المخطط المشبوه، وهذا ما عَبَّرَ عنه وزير الخارجية المصرى، السيد / أحمد أبو الغيط، عندما أكدَ فى ١٧ يناير ٢٠٠٩م أن «مصر غير ملزمة بهذا الاتفاق»، وهو ما أكد عليه رأسُ القيادة المصرية، الرئيس محمد حسنى مبارك، بقوله:«إن مصر لن تقبل أبداً نشر قوات دولية على الحدود مع غزة وأن هذا الأمر يعتبر خطاً أحمر»..

وهو مَوقفٌ يُحسبُ للقيادة المصرية، ويدلُّ على أنها قارئةٌ جيدةٌ لكل ما يحدث فى هذا الملف الشائك، وأنها تعلمُ جيداً ما يُخطط له الإسرائيليون والأمريكيون، من محاصرة العالم العربى براً وجواً وبحراً، وبكل الطرق والوسائل.

لكن الوسائل التى تملكها مصر، الدولة، تختلف عن تلك التى يملكها المتهمون فى القضية الماثلة وهم أشخاص وطنيون، يغارون على دينهم وأرضهم وعروبتهم، ويحاربون الكيان الصهيونى بكل ما يملكون، وبقدر ما يستطيعون، وهمُ بوصف التاريخ، وخصوصاً التاريخ البطولى المصرى، أبطالٌ لا مجرمون، ولهم كامل الحق فى أن يواجهوا هذه الغطرسة الإسرائيلية والأمريكية على قدر ما يستطيعون، وهذا الحق ثابتٌ بنصوص القانون الدولى، وميثاق الأمم المتحدة، وقرارات الشرعية الدولية، ومعاهدة الدفاع العربى المشترك التى وقعتها الدول العربية. وعلى رأسها مصر. فى عام ١٩٥٠م استجابةً لرغبة شعوبها فى ضم الصفوف لتحقيق الدفاع المشترك عن كيانها.

سيدى الرئيس..

حضرات المستشارين..

لقد سيق دليلاً على صحة الاتهامات الموجهة للمتهمين. وما هى بصحيحة كما سترون. موضوع النفق الذى يقع بين رفح المصرية ورفح الفلسطينية. ولئلا أخوض فى حديث قد يحتمل الاختلاف والجدل أستعيد. كما استعدت حالا. كلام الرئيس محمد حسنى مبارك، نفسه، فى مسألة الأنفاق.

كان الرئيس يتحدث فى عيد الشرطة، ويخاطب قياداتها، بدءاً من الوزير إلى الضباط الكبار ذوى المسؤوليات الواسعة، ويخاطب من ورائهم شعبه وشعوب العالم. فلما ذكر القضية الفلسطينية وجهود مصر بشأنها قال ما نصه بحصر اللفظ:

«لقد روجت إسرائيل خلال العامين الماضيين لموضوع التهريب والأنفاق وعاودت التركيز على هذا الموضوع بعد عدوانها على غزة وخلال اتصالاتنا لوقف إطلاق النار وأقول إن تهريب البضائع هو نتيجة للحصار وأن الاتفاق الإسرائيلى الأمريكى لمراقبة تهريب السلاح لا يلزمنا فى شىء. أقول إننا كأى دولة مسئولة قادرون على تأمين حدودنا لن نقبل بأى تواجد لمراقبين أجانب على الجانب المصرى من الحدود ونتمسك بأن تبتعد أية ترتيبات إسرائيلية دولية عن ارض مصر وسمائها ومياهها الإقليمية».

(خطابه بمناسبة عيد الشرطة، فى ٢٠٠٩/٢/٤، موقع الهيئة العامة للاستعلامات، والصحف القومية، يوم ٥/ ٢٠٠٩/٢، نصه مقدم فى حافظة مستقلة).

وبعد هذا الحديث الواضح المحدد بثلاثة أشهر فقط، فى مايو ٢٠٠٩، قال الرئيس محمد حسنى مبارك فى افتتاح مؤتمر إعمار غزة الذى استضافته مصر فى شرم الشيخ:

«إن العدوان على غزة. رغم جسامته وخطورة تداعياته. لا يجب أن يصرف أنظارنا عن جوهر القضية الفلسطينية.. فهى قضية شعب يعانى النكبات والمحن منذ ستين عاماً.. ويتطلع لإنهاء الاحتلال وإقامة دولته المستقلة»... «نعلم من دروس التاريخ أن القوة المسلحة. مهما عظمت. لا تقضى على المقاومة والحقوق المشروعة للشعوب... ونعلم جميعاً أن الاحتلال مصيره إلى زوال...».

(خطابه يوم ٢٠٠٩/٥/١٤ أمام الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الدولى لدعم الاقتصاد الفلسطينى وإعادة إعمار غزة، شرم الشيخ، مصر، نصه مقدم مع نص الخطاب السابق).

وقال الرئيس فى الخطاب نفسه:

إن نشاط المتهم كله، لم يكن له هدف إلا مواجهة العدو الصهيونى بتزويد المقاومين الفلسطينيين فى غزة بالسلاح والعتاد، وهذا بالضبط مافعلته مصر الرسمية نفسها لعقود

«إن سرعة التوصل إلى اتفاق بين الجانبين الإسرائيلى والفلسطينى بما يضمن فتح المعابر أمام مستلزمات البناء وإعادة الإعمار ضرورة... فإغلاق المعابر يعيدنا للمربع الأول... ويضع عملية إعادة الإعمار فى مهب الريح» (المصدر نفسه).

فهل زال الحصار الذى سوّغ فى نظر رئيس مصر نفسه وجود الأنفاق؟ وهل أصبحت المعابر مفتوحة حتى تمر منها السلع الضرورية، والأدوية الحيوية، ومستلزمات إعادة الإعمار، والأفراد والأسر والمجموعات، لتصبح الأنفاق عملا غير مشروع لانتفاء أسبابه التى دعت إلى وجوده أصلا؟

اللهم لا.

بعلم العالم كله، وتحت سمعه وبصره، لا يزال الاحتلال جاثماً فوق الصدر الفلسطينى الصبور المقاوم طول الوقت، ولا تزال المعابر مغلقة، ولا تزال الأنفاق هى الطريقة الوحيدة المتاحة للتقليل من - لا للتغلب الكامل على - آثار هذا الحصار الوحشى الذى لم تعرف له البشرية نظيراً منذ ما قبل الإسلام، عندما حوصر النبى صلى الله عليه وسلم وقومه فى الشعب نحو ثلاث سنين، ومنع عنهم الماء والطعام وسائر احتياجات البشر. لم تعرف البشرية، منذئذ، حصاراً عاماً لجماعة من الناس إلا الحصار الحالى لغزة ومليون ومائتى ألف إنسان يعيشون فيها، لا لشىء إلا لأنهم يريدون أن يحصلوا على حقهم فى حياة إنسانية حرة فى ظل حكومة منتخبة انتخاباً صحيحاً حراً بلا خلاف.

هذا. كما قال الرئيس. هو سر الأنفاق: الحصار الظالم على شعب كامل.

وهذه. كما قال الرئيس. هى نهاية الاستعمار: الزوال والاندحار.

ولأجل ذلك فليعمل العاملون، وفى سبيله فليتنافس المتنافسون، وسيعلم الذين ظلموا - بلا ريب - أى منقلب ينقلبون.

من أجل ذلك، سيدى الرئيس، أطبقت كلمة فقهاء القانون الدولى، وتواترت قرارات المنظمات الدولية على مشروعية المقاومة المسلحة للاحتلال.

شرعية المقاومة المسلحة للاحتلال كما يقرها القانون الدولى

المقاومة هى التعبير الحىّ عن البقاء، والصنو المرادف للحياة، والحقيقة المساوية لجوهر الوجود، وما استمرارُ الإنسانِ ذاته إلا نتاجٌ لعوامل المقاومة والبقاء، داخله، ضد أسباب الفناء وعوامل الهلاك. إذ ما إن تنتهى منه سمات المقاومة وصفاتها، وإرادة الحياة وأدواتها حتى يحكم عليه بالموتِ والفناء، وكذلك الأمرُ بالنسبة للشعوب والأمم، والدول والجماعات (دكتور هيثم موسى حسن، التفرقة بين الإرهاب الدولى ومقاومة الاحتلال فى العلاقات الدولية، رسالة دكتوراه ١٩٩٩ جامعة عين شمس، طبعة نقابة المحامين بالقاهرة، ١٩٩٩ ص٢١٠).

وقد عَرَّفَ أستاذنا الدكتور محمد طلعت الغنيمى، فى كتابه الوسيط فى قانون السلام حركات التحرير الوطنية التى تقوم بالمقاومة الشعبية المسلّحة بأنها «حركاتٌ تستند إلى حق الشعب فى استعادة إقليمه المغتصب، وتستمدُّ كيانها من تأييد الجماهير الغاضبة على المغتصب، وتتخذ عادةً من أقاليم البلاد المحيطة حَرَماً لها، تستمدُّ منها تموينها وتقومُ عليه بتدريب قواتها.. ثم إنها بسبب ضعف إمكانياتها إنما تركز جهودها على تحدى الإرادة الغاصبة، لا على هزيمة جيوش الاحتلال فى حربٍ منظمة» (الوسيط فى قانون السلام، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٢ ص ٣٥٠).

المركز القانونى الدولى لحركات مقاومة الاحتلال وأفرادها فى ضوء اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩م

نصت المادة (٤) من الاتفاقية الثالثة، اتفاقية جنيف الخاصة بمعاملة أسرى الحرب، على أن:

«أسرى الحرب بالمعنى المقصود فى هذه الاتفاقية همُ الأشخاص الذين ينتمون إلى إحدى الفئات التالية، ويقعون فى قبضة العدو:

١. .....

٢. أفراد الميليشيات الأخرى والوحدات المتطوعة الأخرى، بمن فيهم أعضاء حركات المقاومة المنظمة الذين ينتمون إلى أحد أطراف النزاع ويعملون داخل أو خارج إقليمهم، حتى لو كان هذا الإقليمُ محتلاً...».

وفى تحديد معنى نص هذه المادة يذهب الفقه الدولى إلى أن:

«المادة الرابعة من اتفاقية جنيف الثالثة الخاصة بمعاملة أسرى الحرب، إذ تقدم تعداداً حصرياً للأشخاص الذين يكون لهم الحق فى التمتع بوصف أسرى الحرب، فإن ذلك يعنى ضمنياً تعدادا للمقاتلين والمحاربين المحميين بموجب هذه الاتفاقية... ذلك لأنه إذا كان كل مقاتل أو محارب قانونى، يتمتع بوصف أسير حرب، فهذا يعنى أن كل أسير حرب يكون له قانوناً مباشرة الأعمال القتالية، ولذلك يعتبر مقاتلاً قانونياً يتمتع بحماية هذه الاتفاقية..» (دكتور هيثم موسى، السابق ص ٢٨٥ حيث ينقل عن الفقيه Draper).

وقد ذهب فقهاءُ القانون الدولى، بغير خلاف بينهم إلى أنه «يُستنتج من نصوص اتفاقيات جنيف أنها اشترطت ضمناً أن تتخذ المقاومة فى الإقليم المحتل شكل الحركة المنظمة والانتماء إلى أحد أطراف النزاع، ويعنى ذلك أن تتخذ حركة المقاومة فى الإقليم المحتل أو خارجه شكل الحركة المنظمة ذات الهياكل التنظيمية والإدارية والعسكرية والأُطُرْ القيادية القادرة على تعبئة موارد حركة المقاومة، وحشد الرأى العام، وتوظيفها فى سبيل استمرار المقاومة وكسب التأييد والشرعية لها.. بغية تحقيق الأهداف الوطنية فى تحرير الوطن وطرد المحتل الغاصب، أمّا فيما يتعلق بانتماء أعضاء حركات المقاومة المنظمة إلى أحد أطراف النزاع، فلا يُشترط فى هذا الانتماء أن يكون قائماً على أساس رابطة قانونية (الجنسية) وإنما يُكتفى بإثبات قيام رابطة أو علاقة واقعية تكشفُ عن عملية التعاطف أو التضامن بين أفراد حركة المقاومة والقضية التى يُناضلون من أجلها»... «ووجود التنظيم الذى يضم المقاومين مسألة لاحقة على وجود المقاومة نفسها... وهى مسألة تتعلق بظروف الحال، فقد تنقلب المقاومة التلقائية إلى

مقاومة منظمة، أو تكون مقدمة لها، وقد تكون المقاومة المنظمة بمثابة جهاز طليعى ينبثق عن الهبَّة التلقائية فى وجه الغزو الأجنبى». (دكتور عز الدين فودة، مجلة دراسات فى القانون الدولى، الجمعية المصرية للقانون الدولى، ١٩٦٩، ص ٢٣؛ ودكتور صلاح الدين عامر، المقاومة الشعبية المسلحة فى القانون الدولى، دار الفكر العربى بالقاهرة، دون تاريخ ص ٥٠).

وقد أُلحِقَتْ اتفاقيات جنيف المذكورة بملحقين. بروتوكولين. إضافيين، أضفَيا على حركات المقاومة، وأعضائها، مزيداً من الحماية القانونية الدولية. فنصت المادة ٤٤ من البروتوكول الإضافى الأول لعام ١٩٧٧م، فى فقرتها الرابعة، على أنه:

«٤. يُخِلُّ المقاتل الذى يقع فى قبضة الخصم، دون أن يكون قد استوفى المتطلبات المنصوص عليها فى الجملة الثانية من الفقرة الثالثة (أن يميزوا أنفسهم عن السكان المدنيين أثناء اشتباكهم فى هجوم أو فى عملية مسلحة تجهز للهجوم) بحقه فى أن يُعَدّ أسيرَ حرب، ولكنه يُمنح. رغم ذلك. حماية تماثلُ من كافة النواحى تلك التى تضيفها الاتفاقية الثالثة وهذا الملحق، على أسرى الحرب. وتشملُ تلك الحماية ضمانات مماثلة لتلك التى تُضفيها الاتفاقيةً الثالثة على أسير الحرب عند محاكمة هذا الأسير أو معاقبته على جريمة ارتكبها».

استناداً إلى هذا النصّ، فإن «الحروب التى تخوضها قوات المقاومة الفلسطينية واللبنانية. والعربية عموما. ضد القوات الإسرائيلية، وانطلاقاً من كل الجبهات، إنما هى حروبٌ ذات طابع دولىّ، تخضع لأحكام بروتوكول جنيف الإضافى الأول لعام ١٩٧٧م. ويتمتع أفراد هذه القوات بصفة المحاربين القانونيين وما يترتب على ذلك من حصولهم على كافة أنواع الحماية والمزايا التى يحصل عليها هؤلاء المحاربين...» (دكتور أحمد رفعت، الإرهاب الدولى فى ضوء أحكام القانون الدولى والاتفاقيات الدولية وقرارات الأمم المتحدة، دار النهضة العربية بالقاهرة، دون تاريخ ص ١٢٨).

مشروعية استخدام القُوّة مِنْ قِبَل حَرَكَات المقاومة

بتاريخ ١٩٤٨/٥/٤م أصدرت المحكمة الجنائية بلاهاى حكماً بخصوص حركات المقاومة اليهودية السرية ضد الاحتلال النازى، اعتبرت فيه «أعمال المقاومة السرية التى جرت ضد الاحتلال النازى أعمالاً مشروعة فى مواجهة الاحتلال الحربى الذى يتعارض مع القانون الدولى ..». (دكتور هيثم موسى حسن، السابق ص ٣٤٠ حيث يشير إلى دكتور عبد العزيز محمد سرحان، دور محكمة العدل الدولية فى تسوية المنازعات الدولية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨١ ص ٢٨٥).

ومن المقرر فقهاً (دكتور هيثم موسى حسن، السابق ص ٢٨٣) فى هذا الصدد، أنه إذا قُرِّرَ حق الدفاع الشرعى عن النفس للفرد فى مواجهة أى خطر يتهدده، فإنه يجبُ تقرير ذلك. من باب أولى. للشعب الذى تُستعمر بلاده أو تُحتل أراضيه وتُنتهك سيادته واستقلاله، وقد أكدت هذه الحقيقة الاتفاقيات الدولية، وميثاق الأمم المتحدة، والفقه، والعمل الدولى المطرد، والقضاء الدولى، وزاد هذه الحقيقة تأكيداً ورسوخاً سلسلة القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة ذات الصلة بهذا الموضوع، وأهمها، مرتبة زمنياً، هى:

(١) أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة تحت رقم ١٥١٤/ د١٥ بتاريخ ١٤/ ١٢/ ١٩٦٠م، الخاص بمنح الاستقلال للدول والشعوب المستعمرة، القاضى بصريح العبارة بـ «ضرورة وضع حد عاجل ومطلق للاستعمار بجميع أشكاله ومظاهره». ولعل ذلك أصبح واقعاً دولياً إلا فى مناطق نادرة من العالم منها الأراضى الفلسطينية والعربية التى تحتلها إسرائيل.

وأى ظن عن أى طرف آخر، سوى إسرائيل، أنه المقصود بالعدو، فى نعت النيابة العامة، أو أنه يحاول الهيمنة على المنطقة فى وصفها، هو ظن لا يقوم عليه من الواقع دليل

(٢) ثم القرار رقم ٢١٠٥/ د٢٠، بتاريخ ١٩٦٥/١٢/٢٠م، القاضى بـ «شرعية النضال الذى تخوضه الشعوب الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية من أجل ممارسة حقها فى تقرير المصير والاستقلال، ودعوة الدول الأخرى لتقديم المساعدة المادية والمعنوية لحركات التحرير الوطنى فى الأراضى المستعمرة والمحتلة».

(٣) ثم القرار رقم ٢٧٣٤/ د٢٥، بتاريخ ١٩٧٠/١٢/٢٦م، المتعلق بالأمن الدولى، القاضى بأن «كفاح الشعوب المضطهدة ضد الاستعمار كفاحٌ مشروع».

(٤) ثم القرار. بالغ الأهمية. رقم ٢٧٨٧/ د٢٦، بتاريخ ١٩٧١/١٢/٦م، الذى نصَّ على «شرعية نضال الشعوب فى سبيل تقرير المصير والتحرر من الاستعمار والتسلط والاستعباد الأجنبى، بما فى ذلك شعب فلسطين».

(٥) ثم القرار رقم ٣٠٧٠/ د٢٨، بتاريخ ١٩٧٣/١١/٣٠م، الذى أكد على «شرعية نضال الشعوب فى سبيل التحرر من السيطرة الأجنبية والاستعباد الأجنبى، وأكد على حقها فى اللجوء لكل الوسائل الممكنة لتحقيق هذا الهدف، ومن بينها الكفاح المسلح..».

(٦) ثم القرار رقم ٣١٠٣/ د٢٨، بتاريخ ١٩٧٣/١٢/١٢م، (بعد حرب أكتوبر بشهرين فقط) الذى وضع مبادئَ فى غاية الأهمية، تنص على:

(A) «أنَّ نضال الشعوب الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية، فى سبيل تحقيق حقها فى تقرير المصير والاستقلال، هو نضالٌ شرعى ويتفقُ مع مبادئ القانون الدولى».

(B) «أنَّ أى محاولة لقمع الكفاح ضد السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية هى مخالفةٌ لميثاق الأمم المتحدة ولإعلان مبادئ القانون الدولى الخاصة بالعلاقات الدولية والتعاون بين الدول وفقاً لميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمى لحقوق الإنسان، والإعلان الخاص بمنح البلاد والشعوب المستعمرة استقلالها، وتشكل خطراً على السلام والأمن الدولى».

(٧) القرار رقم ٣٢٣٦/ د٢٩، بتاريخ ١٩٧٤/١١/٢٢م، الذى يتضمنُ «إقرارا بحقوق الشعب الفلسطينى فى تقرير المصير والحق فى

جميلة بوحريد فى صحافة «الجمهورية العربية المتحدة»

الدنيا تفوز بحديث صحفي مع:

● جميلة بوحريد ●

الدنيا تقدم لك هذه المقابلة ، مع جميلة بوحريد المجاهدة العربية الجزائرية التي جاءت ورفيقتها في الجهاد زهرا، بوظريف ، وكان لهما مع دمشق لقاء الدهر .

فلقد تمكنت ، الدنيا ، من مقابلة المجاهدة العربية ، ملحمة البطولة الخالدة ، جميلة بوحريد ، وكان لقاؤها بها في قصر الضيافة وقبل دقائق من استعدادها لمغادرة القصر وكانت فرصة نادرة سنحت لاحد محرري ، الدنيا ، حين وجد نفسه على مقربة من المجاهدة يسألها :

● دكتور جميلة وانت ترافقين هذه الشقيقة بطلتك بهما ابناء الشعب العربي في سوريه ؟

● وكيف وجدت دمشق ؟

● ماهو رايك بالمرأة السورية ؟

● وهل حقا ستعودين للعمل في ميدان النشاط الاجتماعي ، بعيدا عن السياسة ؟

● ومتى تنتهي زيارتك للبلاد العربية ؟

زهرا

جميلة

الاستقلال والسيادة الوطنية ويعترف القرار بحق الشعب الفلسطينى فى استعادة حقوقه بكافة الوسائل الممكنة وفقاً لمقاصد الأمم المتحدة ومبادئها، ويناشد جميع الدول والمنظمات الدولية أن تَمُدّ يدها لمساعدة ودعم الشعب الفلسطينى فى كفاحه لاسترداد حقوقه وفقاً للميثاق».

وقد عنيت بهذا الأمر الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب (١٩٩٨) فقضت مادتها الثانية بأنه: «لا تعد حالات الكفاح بمختلف الوسائل جريمة، بما فى ذلك الكفاح المسلح ضد الاحتلال الأجنبى والعدوان من أجل التحرير وتقرير المصير وفقا لمبادئ القانون الدولى».

ونصت المادة ٢/١ من معاهدة منظمة المؤتمر الإسلامى لمكافحة الإرهاب (١٩٩٩) على أنه: «لا تعد حالات كفاح الشعوب جريمة إرهابية بما فيها الكفاح المسلح ضد الاحتلال والعدوان الأجنبيين والاستعمار والسيطرة الأجنبية من أجل التحرر أو تقرير المصير وفقا لمبادئ القانون الدولى».

ونصت المادة الثالثة من اتفاقية منظمة الوحدة الأفريقية لمنع الإرهاب ومكافحته على أنه: «مع مراعاة أحكام المادة (١) من هذه الاتفاقية (المادة ١ عرفت الإرهاب) لا تعتبر حالات الكفاح الذى تخوضه الشعوب من أجل التحرر أو تقرير المصير طبقا لمبادئ القانون الدولى أعمالا إرهابية، بما فى ذلك الكفاح المسلح ضد الاستعمار والعدوان والسيطرة الأجنبية».

ومصر قد صدقت على هذه الاتفاقيات جميعاً، فأصبح ما تتضمنه من أحكام جزءاً من القانون الداخلى، واجب الإعمال من سلطات الدولة كافة، وفى مقدمتها السلطة القضائية المعنية . قبل غيرها. بإحسان تطبيق القانون.

وحاصل ما سلف ذكره، سيدى الرئيس، أنَّ مبادئ القانون الدولى العام المعاصر، وقرارات الشرعية الدولية الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة، وكذلك إجماع آراء الفقه والقضاء الدولى والممارسات الفعلية فى الحياة الدولية قد سَلَّمَتْ جميعها بمشروعية نشوء حركات المقاومة، وحقها فى اللجوء إلى استخدام القوة المسلحة ضد أعدائها المستعمرين أو المحتلين، فى سبيل تحقيق أهدافها الوطنية فى تحرير أراضى الوطن وممارسة الحق فى تقرير المصير ونيل الحرية والاستقلال.

وهذا التسليم فرع لأصلين مقررين فى القانون الدولى المعاصر هما:

حق الدفاع الشرعى عن النفس ومقاومة العدوان؛

فى تلك الأيام، أرسلت مصر خمسًا وأربعين شحنة سلاح وذخائر إلى الجزائر، وإلى المجاهدين فى تونس ومراكش. عبر بها الضباط المصريون حدود ليبيا من البر ومن البحر، ثم حدود تونس البرية الصحراوية القاحلة إلى الجزائر، لتسليمها الى المجاهدين الجزائريين

وحق الشعوب كافةً فى تقرير مصيرها بنفسها.

وكل عمل يهدف إلى ممارسة أحد هذين الحقين، أو كليهما، يخرج، بحكم اللزوم القانونى، من دائرة الإرهاب، الذى هو مدار التهم كلها فى هذه القضية.

وقد عبر عن ذلك أجلى تعبير كورت فولدهايم، الأمين العام للأمم المتحدة، فى أثناء شغله منصبه فى ديسمبر من عام ١٩٧٢م، حين أعلن أنه:

«ليس للإرهاب الدولى صلة باستعمال القوة لأغراض مشروعة فى الحياة الدولية، وميثاق الأمم المتحدة وسائر القرارات التى أصدرتها الجمعية العامة بخصوص حركات التحرير الوطنى، لا يمكن المساس بها تحت غطاء الإرهاب الدولى.. وبناءً على ذلك لا يُعدّ الفعلُ إرهاباً، وبالتالى لا يعاقب عليه القانون الدولى، إذا كان الباعث عليه الدفاع عن الحقوق المقررة للأفراد. حقوق الإنسان . أو الشعوب . حق تقرير المصير. أو الحق فى تحرير الأرض المحتلة ومقاومة الاحتلال، لأن هذه الأفعال تقابل حقوقاً يقررها القانون الدولى للأفراد والدول، حيث يكون الأمر هنا متعلقاً باستعمال مشروع للقوة طبقاً لأحكام القانون الدولى والاتفاقيات الدولية وقرارات الشرعية الدولية ذات الصلة...»

(أورده الدكتور هيثم موسى حسن، السابق، ص ٣٦٢ نقلا عن الدكتور شريف بسيونى فى: حق تقرير المصير والقضية الفلسطينية، نيويورك ١٩٧١، ص ٣٣).

وقد أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار رقم ٣١٠٣/د٢٨، بتاريخ ١٢/١٢/١٩٧٣م، الذى نص على إقرار الدول الأعضاء:

بالحماية القانونية التى يجب إسباغها على مناضلى حركات التحرير الوطنى والمقاومة ضد الأنظمة الاستعمارية والمحتلة والعنصرية. وأقرَّ بشرعية كفاحهم ضد هذه الأنظمة إعمالاً لحقهم فى تقرير المصير والاستقلال. وأكدَّ على اعتبار كل محاولة لقمع هذا الكفاح بمثابة انتهاك لأحكام ميثاق الأمم المتحدة، والإعلانات والقرارات الدولية ذات الصلة.

فى هذا الإطار. حضرات المستشارين . يمكن القول بأن الشعوب التى تقع فريسة للاحتلال الحربى أو السيطرة الأجنبية أو التفرقة العنصرية يثبت لها الحق فى تقرير المصير بمجرد وقوع هذه الأفعال، لأنها تمثل أفعالاً دوليةً غير مشروعة، وإنكارا لحق الشعوب فى تقرير مصيرها، واعتداءً على حقوقها وسيادتها واستقلالها، وهو ما يعطى هذه الشعوب الحق فى استخدام القوة المسلحة ضد هؤلاء المحتلين أو المستعمرين أو العنصريين، ويكتسى استعمالها للقوة فى هذه الحالة بالطابع القانونى والشرعى، لأنه إعمالٌ لحقٍ مقرر لها فى القانون الدولى (دكتور أحمد فتحى سرور، المواجهة القانونية للإرهاب، ط ثانية، القاهرة ٢٠٠٨ ص ١٠٣). وهذا ما أكدته عمليا قرارات الأمم المتحدة الصادرة بهذا الشأن، وما قررته لجنة القانون الدولى، المنبثقة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، فى إطار إعدادها لمشروع قانون المسؤولية الدولية، بقولها: «إن من صور السلوك غير المشروع دولياً، والذى يعتبر جريمة دوليةً:

أ. ..... . ب. الانتهاك الخطير لالتزامٍ دولىٍّ ذى أهميةٍ جوهريةٍ للحفاظ على حقوق الشعوبِ فى تقرير مصيرها، مثل تلك التى تُحرِّم استعمال القوة (أى تحرّم ذلك على الشعوب الخاضعة للاستعمار أو المهددة به) لإرساء السيطرة الاستعمارية أو لاستعادتها..».

وبالبناء على ما تقدم جميعه يكون من حق الشعوب العربية التى احتلت أراضيها من قِبَلِ إسرائيل (فلسطين. جنوب لبنان. سوريا) استخدام القوة المسلحة ضدها، إعمالاً لحق: الدفاع الشرعى عن النفس، وحق تقرير المصير. ويكون من حق حركات المقاومة الفلسطينية واللبنانية. والسورية عندما توجد. استخدام القوة المسلحة ضد العدوّ الصهيونى فى كلِّ شبرٍ يبسطُ سيطرته عليه. بمعنى أن من حق أفراد المقاومة اللبنانية استهداف الإسرائيليين فى فلسطين، والعكس صحيح بالنسبة للمقاومة الفلسطينية. أى إن لها أن تستهدف جنود الاحتلال الصهاينة فى أرض لبنان المحتلة أو فى أرض سوريا المحتلة.

نحن إذن. سيدى الرئيس. أمام قضية محاولة لمقاومة الاحتلال لا أمام قضية إرهاب، سواء أنظرنا للإرهاب بمفهومه الدولى أم بمفهومه المحلى.

.....

فالنشاط الذى قام به المتهم المذكور على الأراضى المصرية، والتنظيم، واللقاءات، والتحركات، والأهداف المعلنة والخفية كلها تَصُبُّ فى بوتقةٍ واحدةٍ، هى بوتقة الجهاد والنضال ضد العدو الصهيونى، ونقل خبرة المقاومة اللبنانية إلى الفصائل الفلسطينية فى غزة ومساعدتها ودعمها بالسلاح بأنواعه كافة، وتدريب عناصرها وتجهيزهم للقتال.

ومما يزيد هذا الأمر وضوحاً، ويثبتُّه فى يقين المحكمة الموقرة، أن ملاحظات النيابة العامة على قائمة أدلة الثبوت تضمنت ذكر مسألة تهريب السلاح إلى غزة، وإلى فلسطين، وذكر دعم المقاومة، والقيام بعمليات استشهادية ضد العدو الصهيونى (٢٢) مرة.

.....

وفى سبيل هذه المقاومة يجوز فى القانون الدولى، وفى الممارسات الفعلية للمقاومين أفراداً ومنظمات، وفى السلوك النضالى المصرى دعماً لحركات التحرر من الاحتلال على مدى عقود ثلاثة، يجوز ما قد يبدو فى الظاهر غير جائز، ويعامل على أنه مشروع مباح ما لو وقع لغير أغراض المقاومة لكان غير مشروع ولا مباح.

.....

ومما يجب التأكيد عليه . فى هذا المقام . أمور:

الأمر الأول: أن كل ما أشارت إليه ملاحظات النيابة العامة من أقوال قررها المتهم الثانى عن انتمائه لحزب الله فى لبنان، وعمله فى صفوفه وتدريبه على أعمال مختلفة، يخصه وحده. ويخص الحزب المنتمى إليه. وليس فى شىء من هذه التقريرات ما يدخل فى نطاق مواد الاتهام أو يعد جريمة فى القانون المصرى.

الأمر الثانى: أن حزب الله ليس منظمة محظورة فى مصر، ولا هو منظمة محظورة فى لبنان. بل هو بموجب وثائقه السياسية العلنية (وسنتشرف بتقديم صورة آخرها الصادرة فى نوفمبر ٢٠٠٩) حركة مقاومة وطنية عربية إسلامية تشارك. منذ نشأتها. فى العمل السياسى، ولها فى حكومات لبنانية متعاقبة، بما فيها الحكومة الحالية، وزراء. ونظرة على خريطة تشكيل مجلس النواب اللبنانى الحالى تدل على مدى قوة الوجود السياسى للمقاومة الإسلامية، وعلى قوة المعارضة التى يقودها حزب الله (الخريطة النيابية مقدمة لاطلاع المحكمة الموقرة). وقد صرح رئيس الوزراء اللبنانى الشيخ سعد الحريرى فى زيارته الأخيرة للقاهرة (يناير ٢٠١٠) بأن حزب الله شريك سياسى فى لبنان، وحاضر فى البرلمان والحكومة وأن لبنان بلد ديمقراطى تشارك فيه كل القوى فى العمل السياسى بلا حظر (نص تصريحاته مقدم للمحكمة الموقرة).

الأمر الثالث: أن الهدف الرئيسى لحزب الله هو مقاومة العدو الصهيونى، وفيما عدا ذلك فإن الأعمال الأخرى للحزب كلها. اجتماعية وثقافية وسياسية لا أثر فيها لاستعمال القوة ولا التهديد بها. ونظرة عجلى على التحليل العلمى الأكاديمى للتطورات التى مر بها حزب الله منذ نشأته وحتى الآن (مقدمة فى حافظة مستقلة للمحكمة الموقرة) تثبت أن طبيعة الحزب هى أنه منظمة مقاومة إسلامية ذات دور سياسى مؤثر فى السياسية اللبنانية والإقليمية على حد سواء. (الصفحات فى الحافظة المرفقة مأخوذة من: يوسف الأغا، حزب الله: التاريخ الأيدلوجى والسياسى، ترجمة نادين نصر الله، دراسات عراقية، بيروت. بغداد. أربيل ٢٠٠٨).

.....

فتح.. وشهداء الأقصى

كما جاءت تحريات مباحث أمن الدولة التى قام بها العقيد / أحمد عاطف، بتاريخ ٢٠٠٩/٤/٤م، لتُثبت أنَّ المتهمين المذكورين، الرابع والعشرين والخامس والعشرين، ينتميان لكتائب شهداء الأقصى التابعة لحركة فتح، وأن وجودهما بمصر واتصالهما بالمتهم الثانى كان بتكليفٍ من قياديين بارزين بكتائب شهداء الأقصى وحركة فتح، هما أبو صهيب وأبو علاء، وأن الهدف من ذلك كله كان مساعدة حركات المقاومة الفلسطينية ممثلةً هنا فى حركة فتح (كتائب شهداء الأقصى) فى نضالها ضد إسرائيل، وأن هذه المساعدة من جانب المتهم الثانى كان مقدراً لها أن تكون بتدريب العناصر فى الجنوب اللبنانى، وإعادة دفعهم إلى قطاع غزة، والإمداد بالسلاح والعتاد..

فالتحريات، والتحقيقات، وأقوال المتهمين المذكورين تُثبت جميعها أن المتهمين لم يكونوا ينتوون القيام بعمليات إرهابية على الأراضى المصرية، وأن نشاطهم لم يكن أبداً بهدف السعى والتخابر لدى حزب الله اللبنانى للقيام بعمليات إرهابية داخل مصر أو ضدها، خاصةً وقد ثبت من التحقيقات والتحريات وأقوال المتهمين أن هناك تنظيماً آخر، أو جماعةً أخرى، بل حركة مقاومة أساسية، ضد الصهيونية والاحتلال، ضالعة فى هذا الأمر هى حركة فتح (كتائب شهداء الأقصى) وأن من بين المتهمين من هو مُنتَمٍ لهذه الحركة، كالمتهمين الرابع والعشرين والخامس والعشرين، وأن دخولهما للأراضى المصرية واتصالهما بالمتهم الثانى كان بغرض قيام الأخير بتسفيرهما للجنوب اللبنانى ليتلقيا التدريبات اللازمة تمهيداً لإعادة دفعهما إلى داخل إسرائيل للقيام بعمليات استشهادية أو هجومية ضدها، كان هذا هو المقصد، وفى إطاره كان نشاط المتهمين جميعاً.

لقد أنشأت المخابرات المصرية. حديثة العهد يومذاك. قسماً للوطن العربى كان يرأسه فتحى الديب، كما أنشأ حزب الله الوحدة رقم (١٨٠٠) لدول الطوق. أليس هذا سلوكاً واحداً يجب أن يسلكه كل مقاوم للمستعمر المحتـــــل؟

من وثائق العمل السرى المصرى لدعم المقاومة العربية المسلحة

٦ — وفى يوم ٢ اغسطس ١٩٥٨ تسلم الكولونيل عمران

عدد	صنف
٣٠٠٠	متر قنبل امان
٢٥٠٠	مفجر طرق ٨
٢٥٠٠	طوربيد بنجالور صاج

راجع الملحق — مستند رقم (٣٩)

وتسلم يوم ٣١ اغسطس ١٩٥٨

عدد	صنف
٢٠٠٠	رشاش متوسط ٧٫٩٢ م
١٠٫٠٠٠	شريط سعة ٥٠ طلقه للرشاش
٢٫٠٠٠٫٠٠٠	مليونى طلقه ذخيره ٧٫٩٢ م

راجع الملحق — مستند رقم (٤٠)

وكان طبيعياً أن أفهم الكولونيل عمر عمران ان الكميات التى تسلمها من مصر خلال الاشهر الستة الماضيه من عام ١٩٥٨ كافيه لتسليح جيش حديث قادر على القتال لفترة طويله دون الحاجه لامداد جديد واننا لم نقصر فى الاستجابة لكل ماطالبونا به من سلاح وذخيره الا اننا لانحيد اى اتجاه لتكديس السلاح والذخيره فى المخازن بليبيا أو بتونس خاصة وأننا لانطمئن لتطور الاحداث بكلا البلدين ولاندرى ماذا تخبئه لنا الايام واننا مصرون على ضرورة التام سحب كل ماهو مكدس بمخازنهم بليبيا وتونس وسرعة ادخالها لتصل لأيدى المكافحين ومؤكدا له اننا لن نتجاوب مع اى طلب جديد للسلاح أو الذخيره مالم نتأكد من ادخالهم لكل ماهو مكدس حاليا لداخل الجزائر . وتسلم المناضلين لها . وابدى تفهمه وموافقته على كل ماقلت ووعد بالتبر فى اسرع وقت .

رابعا : تونس تطلب شراء أسلحة مصريه

١ — وصل القاهره فى أوائل شهر يونيو ١٩٥٨ المدعو عبد السلام عزيز ويعمل متعهداً لتوريد احتياجات الحكومه التونسيه بما فى ذلك توريد الأسلحه والمعدات الحربيه وأحضر معه خطاباً من قائد الجيش التونسى موجهاً للكولونيل عمران يطالبه فيه بالتوسط لدى السلطات المصريه لتبيع تونس صفقة سلاح كان يلبها :

٣٧٩

ولا يقدح فى ذلك أن النيابة العامة لم تُوجِّه للمتهمين المذكورين، الرابع والعشرين والخامس والعشرين، تهمة السعى والتخابر للقيام بعمليات إرهابية على أرض مصر أو ضدها، واكتفت بتوجيه تهمة التسلل للبلاد بطريقٍ غير مشروعٍ لهما !!

فإذا ما استقام ذلك فليس لعاقلٍ أن يزعم أو يتصور أن عُضوى حركة فتح وكتائب شهداء الأقصى (ذراعها العسكرى)، المتهمين الرابع والعشرين والخامس والعشرين، تسللا للأراضى المصرية للقيام بعمليات إرهابية ضد المصالح المصرية بإيعازٍ واتفاقٍ ومساعدةٍ من المتهم الثانى. لأن التحقيقات والتحريات أثبتت أن المتهمين المذكورين تابعان لحركة فتح وكتائب شهداء الأقصى، وأن تسللهما لمصر كان بتكليفٍ من قيادتهما ممثلةً فى القياديين أبو صهيب وأبو علاء، وليس يخفى على أحد أن حركة فتح شريكٌ أساسى للقيادة المصرية، وأن قيادتها على وفاقٍ كامل مع القيادة المصرية، بل إن جميع الفصائل الفلسطينية والكتائب التابعة لها، بما فيها حماس، على وفاقٍ مع القيادة المصرية، وتجمعهما لقاءات متعددة بالأراضى المصرية، بل إن كل تحركاتهم تقفُ عليها القيادة المصرية أولاً بأول . فهل يُعقل أن يأتى أفرادٌ تابعون لهذه الفصائل بتكليفٍ من قادةٍ بارزين بهذه الفصائل، كأبى صهيب وأبى علاء، للقيام بعمليات إرهابية على أرض مصر أو ضد أمنها واستقرارها ؟!!

لو صَحَّ هذا التصوُّر المزعوم لكان على النيابة، المنصفة والأمينة على الدعوى الجنائية، أن تتهم حركة فتح وكتائب شهداء الأقصى كما اتهمت حزب الله !! خاصةً وأن اثنين من المتهمين عضوان تابعان لحركة فتح وكتائب شهداء الأقصى . ولكان على الإعلام الحر البنَّاء أن يتناول قادة فتح وكتائب شهداء الأقصى باللوم والتقريع والهجوم اللاذع، أو بشىء، ولو قليل، مما ناله حزب الله من هذا الإعلام الحر نفسه!!!

وذلك لأن المتهمين المذكورين هما المقصودان بالعبارة الواردة بالاتهام الأول «البند أولا» من أمر الإحالة، والتى فيها تتهم النيابة المتهمين من الثالث حتى الثانى والعشرين بأنهم تعاونوا مع مندوبى حزب الله «فى تسهيل سفر البعض ممن يعملون لأهداف هذا الحزب إلى خارج البلاد بطرقٍ مشروعةٍ وغير مشروعةٍ لتلقى التدريبات العسكرية.... ثم العودة للبلاد لتنفيذ عمليات إرهابية على النحو المبين بالتحقيقات»، وفى البندين سادسا /٣، وثامنا، وصفت النيابة نشاطهما بقولها إنهما «يمارسان نشاطا يُخل بالأمن والنظام العام على النحو المبين بالتحقيقات»...

بل إن المتهمين المذكورين هما المعنيان - فرضا لا واقعا - والمقصودان بالعبارة المشار إليها آنفاً بالبند أولاً من أمر الإحالة، فهما المعنيان بالسفر خارج البلاد بطرقٍ مشروعة وغير مشروعة لتلقى التدريبات ثم العودة للقيام بأعمال إرهابية بمصر، إذ ليس من بين المتهمين جميعهم من أُشير بالتحقيقات أنه سيسافر إلى الخارج (الجنوب اللبنانى) لتلقى تدريبات عسكرية إلا المتهمان المذكوران، وليس من بين المتهمين من ثَبت أن مهمته كانت من البداية للنهاية هى السفر عبر الأراضى المصرية إلى الجنوب اللبنانى لتلقى تدريبات عسكرية إلا المتهمان المذكوران. وبالتالى فقد ارتكب المتهمان المعنيان الجريمة التى تتحدث عنها النيابة فى البند أولا من أمر الإحالة، وهى السفر خارج البلاد لتلقى تدريباتٍ عسكرية للقيام بعمليات إرهابية على الأراضى المصرية (وهذا كله حسب تصوير النيابة للواقعة فى اتهامها الوارد بالبند أولا من أمر الإحالة، بفرض صحته فرضاً جدلياً ليس إلا). وبالتالى كان على النيابة اتهام المتهمين الرابع والعشرين والخامس والعشرين بالتخابر والسعى لدى حركة فتح للقيام بعمليات إرهابية داخل مصر، وكان على النيابة أن تتهم حركة فتح بأنها تخطط للقيام بعمليات إرهابية داخل مصر، لاسيما وأن المتهمين المذكورين قد جاءا لمصر بناء على تكليفٍ من قيادتهما ممثلة فى أبو صهيب وأبو علاء، القائدين بكتائب شهداء الأقصى التابعة لحركة فتح.

.....

سيدى الرئيس..

حضرات المستشارين الأجلاء..

بقى للدفاع كلمات قصار يحاول بهن أن يوضح بها بعض ما أُبْهِمَ فى مرافعة الزملاء المحترمين الذين تحدثوا أمام الهيئة الموقرة ممثلين لجانب الاتهام.

بلغ عدد الجواسيس الصهاينة وعملاؤهم الذين ضبطوا فى مصر منذ توقيع اتفاقية كامب ديفيد سنة ١٩٧٩ إلى سنة ٢٠٠٩ مائة وخمسة وسبعين جاسوساً فى خمسة وأربعين قضية جاسوسية لصالح إسرائيل

الدولة التى تحاول الهيمنة على المنطقة، والعدو ذو العبث والغرور

لم يخبرنا الادعاء باسم الدولة التى عناها، ولا باسم العدو العابث المغرور، فكان من الواجب الذى يدعو إليه مبدأ التعاون على إظهار الحق أن ينطق الدفاع بما سكت عن النطق به الادعاء.

إن الدولة الوحيدة، سيدى الرئيس، التى تحاول الهيمنة على المنطقة كلها، وفرض إرادتها على شعوبها قَبْلَ دولها هى: إسرائيل.

إسرائيل التى تحتل حتى اليوم مرتفعات الجولان السورية، ومزارع شبعا وبلدة الغجر، وتلال كفر شوبا اللبنانية، وأرض فلسطين كاملة بما فيها القدس، وما أدراك ما القدس وما الذى يجرى فيها.

إسرائيل التى شنت الحرب تلو الحرب (١٢ حرباً فى ستين سنة كما كتب المستشار الجليل طارق البشرى، فى دراسته المرفقة) ولم تزل تهدد حتى اليوم بحرب جديدة، على لبنان، بسبب سلاح حزب الله وقدرته على البقاء فى موقع التأثير على السياسة اللبنانية والإقليمية، وعونه المستمر، بل المتدفق، للمقاومة الفلسطينية بفصائلها كافة، بما فيها الفصائل التابعة لمنظمة فتح، كما تشهد بذلك أوراق هذه القضية وما فيها من ذكر أفرادٍ وقادةٍ من منظمة شهداء الأقصى، الذراع العسكرية التابعة لفتح.

هذه الدولة (إسرائيل)، سيدى الرئيس، لم يردعها عن العدوان على الدول العربية كلها شىء. بل لم يردها عن العدوان على مصر ومحاولة اختراق أمنها شىء.

لقد. بلغ عدد الجواسيس الصهاينة وعملاؤهم الذين ضبطوا فى مصر منذ توقيع اتفاقية كامب ديفيد سنة ١٩٧٩ إلى سنة ٢٠٠٩ مائة وخمسة وسبعين جاسوسًا فى خمسة وأربعين قضية جاسوسية لصالح إسرائيل. وفى المدة الواقعة بين سنة ١٩٩١ وسنة ٢٠٠٧ - وحدها - كان المضبوطون من جواسيس إسرائيل تسعة أشخاص، ومن المصريين الذين نجح الموساد فى تجنيدهم ضد وطنهم ثمانية أشخاص، ومن الأجانب عن مصر وإسرائيل معاً ثلاثة أشخاص (روسى، ويابانى، وأيرلندى).

وكانت الأعمال الموكولة لهؤلاء. اختراقًا للأمن القومى المصرى. تتراوح بين أن تكون جمع معلومات عسكرية عن الشخصيات المهمة فى مصر من خلال إقامة علاقات جنسية وانحرافية معهم، وجمع معلومات صناعية واقتصادية وعسكرية، ومعلومات سياسية واقتصادية، ومعلومات عن البرنامج النووى المصرى. الذى لم ير النور بعد. ومعلومات عن العناصر العربية فى خارج مصر للعمل على تجنيدهم لصالح إسرائيل، وجمع معلومات عن الاستثمار الأجنبى. بوجه خاص. فى مصر، وجمع معلومات عن الموانى والمطارات ووسائل المواصلات الداخلية فى مصر.

إن بين مصر، الدولة، وبين اسرائيل اتفاقية (هدنة)، هذه هى حقيقتها، تسمى باتفاقية السلام. وإسرائيل تنتهكها يوميًا بغير شك، ومصر تسكت رعاية لهذه الاتفاقية نفسها. وهذا كله لا يعنينى هنا. لكن الذى يعنينى هو أن إسرائيل هى الدولة الوحيدة التى تربطها بمصر مثل هذه الاتفاقية: لأنها الدولة الوحيدة العدو!!!

هل رأى الناس، على مر التاريخ، صديقًا يعيد صداقته بآخر بمعاهدة؟! اللهم لا.

لكن الدول تقيد عداوتها وتضبط وقع خطاها بمعاهدات تسميها بما شاءت من الأسماء.

وليس لاختصاص إسرائيل بتلك المعاهدة من سبب إلا أنها العدو الوحيد لمصر فى منطقتنا كلها!!

هذا، سيدى الرئيس، حضرات المستشارين، هو العدو الذى يحاول الهيمنة علينا نحن فى مصر أولا، وعلى المنطقة كلها ثانيا. يشهد لذلك ما جرى من إهانة للسفير التركى فى تلك أبيب دعت استانبول للتهديد بسحبه فى اليوم نفسه ما لم تعتذر إسرائيل قبل الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم. وقد كان. اعتذر وزير الخارجية، واعتذر مكتب رئيس الوزراء الإسرائيليين. فقال الأتراك: إن على إسرائيل أن تعرف مع من تتعامل عندما تكون تركيا طرفًا فى الأمر!!

والدفاع يقدر كل التقدير الأوضاع السياسية التى تحول دون ذكر إسرائيل باسمها فى مرافعة الادعاء، وليس مرماه من هذا البيان إلا خدمة الهيئة الموقرة بالإفصاح عن المضمر وبرد المظنون، أو الذى يمكن أن يكون مظنونًا، عن المقصود بالعدو العابث المغرور.

وأى ظن عن أى طرف آخر، سوى إسرائيل، أنه المقصود بالعدو، فى نعت النيابة العامة، أو أنه يحاول الهيمنة على المنطقة فى وصفها، هو ظن لا يقوم عليه من الواقع دليل.

(الوحدة ١٨٠٠)

لم يذكر الزملاء المحترمون المترافعون عن الادعاء سرَّ وجود هذه الوحدة ضمن هيكل تنظيمات حزب الله. وتركوا السامعين يهيمون فى أودية شتى ليس من بينها الوادى المؤدى إلى واحة المعرفة أو نهر الحقيقة فى هذا الشأن.

والحقيقة، سيدى الرئيس، أن هذه الوحدة هى نظير قسم الدول العربية، وقسم الدول الأفريقية، فى المخابرات العامة المصرية. هذان القسمان تحدث عنهما السيدان/ فتحى الديب ومحمد فائق فى كتبهما عن دور الثورة المصرية فى مناصرة حركات التحرر العربية والأفريقية. وهو دور لابد للقائم به من دراسة مجالات حركته والمعرفة بمن يستعين بهم أو يستعينون به. وهذا هو الدور الذى تقوم به (وحدة دول الطوق) فى حزب الله.

دورها كله يعبر الدول المحيطة بإسرائيل. وعملها كله يتعلق بمقاومة العدو. والدليل أنه منذ قام الحزب سنة ١٩٧٩ حتى يوم الناس هذا فى سنة ٢٠١٠ لم يزعم أحد أنه اعتدى على سيادة أية دولة عربية، أو قام بأية عملية على أرضها، أو جند ضدها أحداً من أبنائها أو من غيرهم. فى الوقت نفسه، الذى تجنب فيه الحزب أى عمل ضد أية قوة أو دولة عربية أو إسلامية، نجده أوقع بإسرائيل خسائر لا تحصى أمكننى. بإمكاناتى المحدودة أن أجمع منها:

٦٦٦ قتيلا سوى قتلى حرب يوليو/ تموز ٢٠٠٦.

و٢٧٦ جريحًا سوى جرحى حرب يوليو/ تموز ٢٠٠٦.

١٣ ضابطًا وجنديًا اختطفوا وتبودلوا، أو تبودلت جثث من مات منهم، بأكثر من ألفين من الأسرى العرب (لبنانيين وغيرهم) وبجثث بعض شهداء المقاومة لدى العدو الصهيونى(!!)

هذا هو حزب الله وصنيعه بعدوه إسرائيل. فلا تذهبن بأحد أوهام عبارة (وحدة دول الطوق) إلى أن الحزب يعمل ضد البلاد العربية وأهليها، فإن دون إثبات هذا الوهم خرط القتاد.

حـــزب الـــلـــه

لقد حَرَص الدفاع على تقديم الوثيقة السياسية الأخيرة لحزب الله (نوفمبر ٢٠٠٩) ليثبت للهيئة الموقرة، من خلال الاطلاع عليها، بطلان الدعوى القائلة إن حزب الله أداة للدولة الأجنبية التى أشار إليها الزملاء المحترمون ممثلو النيابة العامة فى مرافعتهم الشفهية. وإذا انتفى القول بهذه التبعية انتفت من ثم النتيجة التى رتبها الادعاء عليها من تحقق وصف (الدولة الأجنبية) الوارد فى المادة ٨٦ مكررا ج من قانون العقوبات فى شأن تهمة السعى والتخابر.

وليس من شك فى أن النيابة العامة الموقرة لم تقصد بالدولة، التى ظنت حزب الله أداة فى يدها، الدولة نفسها التى استظهر الدفاع أنها العدو الحقيقى للأمة العربية كلها وعلى رأسها مصر. لأنه من غير المعقول أن يقول أحد إن حزب الله عميل لإسرائيل.

فبقى ذكر هذه الدول (الأخرى) أمراً مجهلا والحديث عنها كلاماً مرسلا لا تنبنى عليه نتيجة ولا يترتب عليه حكم.

سيدى الرئيس، حضرات السادة المستشارين الأجلاء:

لعَلَّ قضيةً لم تشغل الرأى العام فى مصر وفى الوطن العربى مؤخرا. فيما عدا قضية مقتل المطربة اللبنانية سوزان تميم. كما فعلت هذه القضية. والدفاع عن المتهم الثانى قبل أن يتولى الدفاع عنه، وقبل أن يُحيط علماً بتحقيقات وأوراق هذه القضية، وتفاصيلها، كان يتابعُ الجرائد اليومية، ويقرأ كل ما نقلته الأخيرة عن النيابة فى تحقيقاتها، والعناوين الصحفية المدوية التى كانت تُوضع لهذه التحقيقات، والاتهامات الشنيعة التى كانت تُكَالُ بوفرة للمتهمين، والمتهم الثانى تحديداً، صاحب الحظ الأوفر من هذه الاتهامات الصحفية !!

لقد ظن الدفاع وقتها أن المتهم الثانى هالكٌ لا محالة، وكذا شأنُ باقى المتهمين.

ولكن ظنَّ الدفاع فى هلاك المتهم الثانى، تَحولَ إلى يقين. بإذن الله. فى نجاته هو ورفاقه، خاصةً بعد أن فَحَصَ الدفاع الأوراق والملابسات، وأحاط بدلائل الثبوت المتهاوية، وادعاءات الإدانة المتخاذلة، وتَيَقَّن من أن المتهم الثانى ورفاقه لم يتحولوا عن أصل البراءة المفترض فيهم ابتداءً، ولازال هذا الأصل ثابتًا فيهم، متعلقًا بهم، لم يُفارقوه ولم يفعل هو. وأنه ليس فى أوراق القضية برمتها، ولا مرافعة النيابة فى إجمالها وتفصيلها، ما يناقضُ هذا الأصل الثابت أو يهدمه، أو حتى يهدد دعائمه، بما لازمه القضاء بهذا الأصل، والحكم ببراءتهم. تأسيساً على أن أصل البراءة، وحسبما وصفته المحكمة الدستورية العليا، فى عديد من أحكامها «يعتبر جزءاً لا يتجزأُ من محاكمة تتم إنصافًا، باعتباره متساندا مع عناصر أخرى تشكل مقوماتها، وتمثلُ فى مجموعها حدا أدنى من الحقوق اللازمة لإدارتها، ويندرجُ تحتها أن يكون لكلٍ من المتهم وسلطة الاتهام الوسائل عينها التى يتكافأُ بها مركزاهما، سواء فى مجال دحض التهمة أو إثباتها. وهى بعدُ حقوقٌ لا يجوز الحرمانُ منها أو تهميشها، سواءٌ تعلق الأمرُ بشخص يعتبر متهماً أو مشتبهاً فيه، وقد أقرتها الشرائع جميعها، لا لتظل المذنبين بحمايتها، وإنما لتدرأ بمقتضاها وطأة الجزاء المقرر للجريمة التى خالطتها شبهة ارتكابها، بما يحولُ دون القطع بوقوعها ممن أسند إليهمُ الاتهام بإتيانها، إذ لا يعتبرُ هذا الاتهامُ كافيا لهدم أصل البراءة، وهو ما يعنى أن كل جريمة يدعى ارتكابها لا يجوز إثباتها دون دليلٍ جازمٍ ينبسط على عناصرها جميعا، ولا يجوز كذلك افتراض ثبوتها . ولو فى أحد عناصرها . من خلال قرينة قانونية يُنشئها المشرِّع اعتسافا، ودون ذلك لا يكون أصلُ البراءة إلا وهما». (المحكمة الدستورية العليا، مجموعة مبادئها فى أربعين عاماً، مارس ٢٠٠٩ ص ٤٩٧ وما بعدها).

بناء عليه، يلتمس الدفاع الحكم ببراءة المتهم الثانى مما منسوب إليه. ■

كتاب الزاوية

قصيدة اعتذار لأبى تمام(•)

نزار قبانى

(١)

أَحِبَّائِى :
إِذَا جِئنَا لِنَحضُرَ حَفلةً للزَّارِ ..
مَنهَا يَضجَرُ الضَّجرُ
إِذَا كَانتْ طُبولُ الشِّعرِ ، يَا سَادة
تُفَرِّقُنَا .. وَتَجمَعُنَا
وَتُعطِينَا حُبُوبَ النَّومِ فِى فَمِنَا
وتَسْطُلُنَا .. وَتَكسِرُنَا .
كَمَا الأَورَاقُ فِى تشرِينَ تَنكَسِرُ
فَإِنِّى سَوفَ أَعتَذِرُ ..

• • •

أَحِبَّائِى :
إِذَا كُنَّا سَنرقُصُ دُونَ سِيقَانٍ .. كَعَادَتِنا
وَنَخطُبُ دُونَ أَسْنَانٍ .. كَعَادَتِنَا ..
ونؤمنُ دونَ إيمانٍ .. كعَادَتِنا ..
ونَشنُقُ كُلَّ مَنْ جَاؤوا إِلَى القَاعَة
عَلَى حَبلٍ طَوِيلٍ مِنْ بَلاَغَتِنَا
سَأَجْمَعُ كُلَّ أَورَاقِى..
وَأَعتَذِرُ...

• ألقيت فى مهرجان أبى تمام بالموصل . كانون الأول / ديسمبر ١٩٧١

مشكلة الديموقراطية عربية أكثر منها إسلامية

■■ خلال «الموجة الثالثة» للتحول الديمقراطى، كفت الديمقراطية عن أن تكون ظاهرة فى معظمها غربية وأصبح لها «توجه عالمى»، فعندما بدأت الموجة الثالثة فى ١٩٧٤، لم يكن فى العالم سوى ٤٠ من الديمقراطيات تقريبا، يقع عدد قليل منها خارج الغرب. وعندما صدرت مجلة الديمقراطية فى ١٩٩٠، كانت هناك ٧٦ من الديمقراطيات الانتخابية (أقل قليلا من نصف دول العالم المستقل). وبحلول عام ١٩٩٥، وصل هذا الرقم إلى ١١٧ (أى ثلاثة من ضمن كل خمس دول). وفى هذا الوقت، وجدت كتلة حرجة لتحفيز الديمقراطية فى كل منطقة رئيسية من العالم فيما عدا واحدة، هى منطقة الشرق الأوسط[1]. علاوة على ذلك، أصبحت كل واحدة من العوالم الثقافية الكبرى المضيف لحضور ديمقراطى قوى، وإن كان ذلك مرة أخرى باستثناء واحد، هو الوطن العربى[2]. وبعد خمسة عشر عاما من هذا التاريخ، لا يزال هذا الاستثناء قائما.

استمرار غياب نظام ديمقراطى واحد فى العالم العربى يعد أمرا غريبا، واستثناء رئيسيا للعولمة الديمقراطية. لماذا لا توجد ديمقراطية فى العالم العربى؟ ولماذا لم تحظ أبدا أى دولة، من بين ١٦ دولة عربية مستقلة فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، بالديمقراطية سوى لبنان؟

الافتراض الأكثر شيوعا عن العجز العربى الديمقراطى هو أن ذلك له علاقة بالدين أو الثقافة، بالرغم من أن لا شىء يجمع الدول العربية سوى أنها عربية؛ فهم يتكلمون فقط نفس اللغة (على الأقل بقدر اشتراكهم فى اللغة العربية الفصحى)، إلا أنه كثيرا ما يذكر، أن جميع بلدان المنطقة، تتشارك فى المعتقدات الثقافية، والتركيبات، والممارسات، علاوة على اشتراكها فى نفس الدين المهيمن؛ الإسلام، على الرغم من أن نصف سكان لبنان تاريخيا كان من المسيحيين (يعتقد أنهم الآن أقل من النصف)، كما تحتوى دول أخرى، مثل مصر، على أقليات مسيحية. وكما سأبين لاحقا، لا الثقافة ولا الدين يقدمان تفسيرا مقنعا للعجز الديمقراطى العربى. ربما لم تصبح بلدان مثل مصر والأردن والمغرب واليمن ديمقراطية لأنها ليست متقدمة اقتصاديا حتى الآن. إلا أن هذه الحجة تفشل هى الأخرى عند مقارنة مستويات التنمية فى الدول العربية بغيرها من الدول، كما سأفعل قريبا. لعل الآثار السلبية الاجتماعية والسياسية للغرق فى ودائع للبتروكيماويات (ما يسمى بلعنة النفط) هى السبب إذاً، لكن كيف يمكن أن يفسر ذلك غياب الديمقراطية فى دول غير غنية بالنفط مثل مصر والأردن والمغرب وتونس؟

كما سأقوم بالشرح، تنطوى الإجابة على لغز العجز الديمقراطى العربى على الاقتصاد السياسى، بقدر ما تنطوى على الجغرافيا السياسية. وتتطلب تحليلا للهياكل السياسية الداخلية للدول العربية. ولكنها تتطلب أولا الاستغناء عن الافتراضات التى لا يمكن أن تصمد أمام اختبار كفاية الأدلة.

بترتيب خاص مع:
Johns Hopkins University Press

Larry Diamond “why are there no arab democracies?”, Journal of Democracy Volume 21, Number 1 January 2010

ترجمة: جيهان شعبان

فـــــن الاســـــتبداد

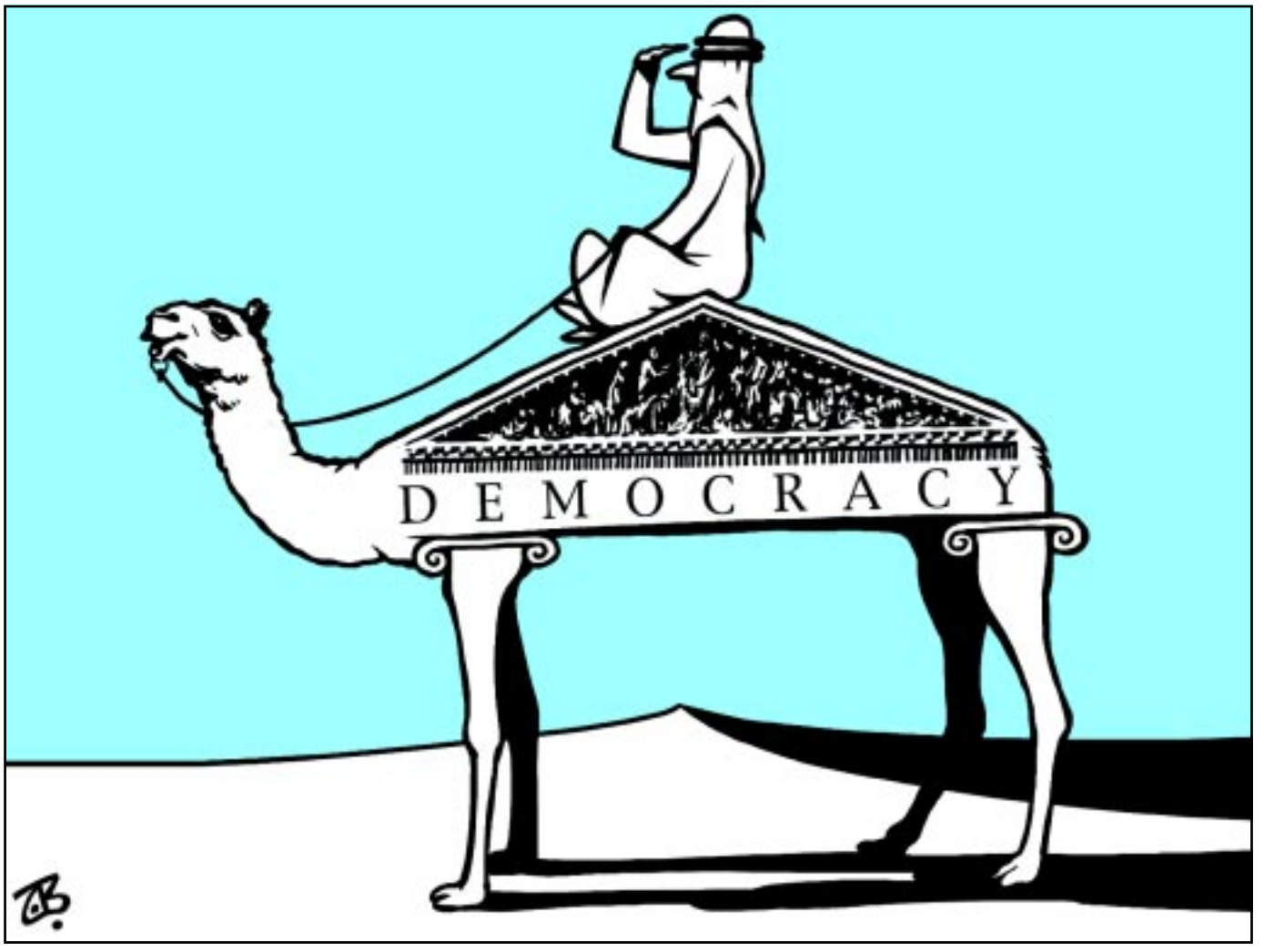

لارى دايمـــــــــونـــــــــد
Larry Diamond

الـديـن والـثـقـافـة

كما أظهر ألفريد ستيبان وجرايم روبرتسون، هناك فجوة «ديمقراطية» كبيرة بين دول العالم، لكن هذه الفجوة «عربية» أكثر من كونها «مسلمة». فبمقارنة الـ١٦ دولة عربية ذات الأغلبية المسلمة مع ٢٩ دولة أخرى ذات أغلبية مسلمة، وجد ستيبان وروبرتسون أن من بين الأخيرة (بما فى ذلك ألبانيا وبنجلاديش وماليزيا والسنغال وتركيا) عددا له سجلات هامة فى توسيع نطاق معقول لديمقراطية الحقوق السياسية لمواطنيها. وكان من بين البلدان العربية، الوحيد الذى ينطبق عليه هذا الوصف هو لبنان قبل الحرب الأهلية التى بدأت فى ١٩٧٥. علاوة على ذلك، أخذا فى الاعتبار مستوى الحقوق السياسية الذى يمكن للمرء أن يتنبأ به من خلال نصيب غير العربية (حوالى الثلث) كانت فى منتصف الطريق (٤) أى أفضل من متوسط درجات مقياس الحرية، لم تحصل أى من الدول العربية على هذه الدرجة سوى الكويت.

هذا بشأن الدين، فماذا عن الثقافة؟ يمكن لأحد أن يجادل، كما فعل المؤرخ البريطانى الراحل ايلى كيدورى فى ١٩٩٢، بأنه لا «شىء فى تقاليد العالم العربى السياسية، المستمدة من التقاليد السياسية للإسلام، ما يجعل تنظيم أفكار بشأن الحكومة الدستورية التمثيلية أمرا مألوفا أو حتى واضحا[٦]. إلا أنه توجد تجارب هامة فى الديمقراطية لعدد من البلدان ذات التقاليد السياسية الإسلامية، من خارج العالم العربى. وحتى لو كان للمرء أن يغفل معادلة كيدورى الخاصة بالتقاليد السياسية للعرب والمسلمين، فإن المرء يظل بحاجة إلى تفسير لماذا ترسخت «الأفكار المنظمة» عن الديمقراطية الحديثة فى عدد من بلدان أفريقيا وآسيا دون أن يكون لهذه الدول سابقة فى مسألة الديمقراطية، ولم يحدث ذلك أبدا فى العالم العربى؟ إذا كانت المشكلة، كما وصفها كيدورى هى: «أن الدول العربية اعتادت على... الاستبداد والطاعة السلبية»، فلماذا يشكل ذلك عقبة فى العالم العربى فقط، فى حين أنه لم يمنع التحول الديمقراطى فى مساحات واسعة من بقية أنحاء العالم التى لم تعرف فى السابق سوى الهيمنة السلطوية أيضا؟

يمكن أن يقال أيضا، فيما يتعلق بكل من العراق ولبنان، أن الطائفية والانقسامات العرقية تعيق السماح بالديمقراطية. إلا أن العراق ولبنان عل الرغم من كل انقساماتهما واستقطاباتهما، تظلان الدولتين العربيتين الأقرب إلى الديمقراطية الانتخابية اليوم، بينما أكثر بلدان المنطقة تجانسا، وهما مصر وتونس، هما أيضا الأكثر استبدادية. فى الواقع، لا تشكل الاختلافات الدينية أو العرقية عقبة أكثر خطورة للديمقراطية فى العالم العربى عما كانت تمثل فى بلدان مثل غانا والهند واندونيسيا وجنوب إفريقيا. مرة أخرى، يجب أن يكون هناك شىء آخر يحدث.

ربما يتلخص الأمر ببساطة فى أن الشعوب العربية لا تريد ولا تثمن الديمقراطية الانتخابية بنفس الطريقة التى رغب فى هذا الشكل من أشكال الحكم الذاتى الرأى العام وثمنه فى مناطق أخرى من العالم[٧]. ولكن إذا قبلنا ذلك، كيف نأخذ فى الحسبان النسبة الساحقة من الرأى العام العربى، ما يزيد على ٨٠٪ فى الجزائر والأردن والكويت والمغرب والسلطة الفلسطينية وحتى فى العراق التى توافق على أنه «على الرغم من عيوبها، تظل الديمقراطية هى أفضل نظام للحكم» ، وإن «وجود نظام ديمقراطى فى بلدنا سيكون أمرا جيدا»[٨]. دعم الديمقراطية ليس فقط واسعا جدا فى العالم العربى، ولكنه لا يختلف أيضا حسب درجة التدين. «فى الواقع، يؤمن مزيد من المسلمين المتدينين مثلهم مثل الأقل تدينا أن الديمقراطية، على الرغم من عيوبها، هى أفضل نظام سياسى»[٩]. إذا نظرنا إلى الطريقة التى توجه بها العراقيون إلى صناديق الاقتراع على نطاق واسع ثلاث مرات فى عام ٢٠٠٥، وسط مخاطر وخيمة على سلامتهم الشخصية، يصعب أن نستنتج أن العرب لا يهتمون بالديمقراطية. وعلى النقيض من ذلك، عندما تقدم الانتخابات القليل من الخيارات ذات المغزى (كما فى مصر)، أو لا يكون لنتائجها تأثير يذكر فى تحديد من سيكون حقا فى السلطة (كما هو الحال فى المغرب)، فإنه من غير المستغرب أن يصاب معظم الناس بالإحباط ولا يقبلوا على التصويت.

تختفى تحت الأرقام الإجمالية للدعم العربى للديمقراطية، قصة أكثر تعقيدا. ففى خمسة بلدان شملتها دراسة البارومتر العربى بين عامى ٢٠٠٣ و٢٠٠٦، وافق ٥٦٪ من المشاركين على أنه «يجب أن يكون لرجال الدين تأثير على قرارات الحكومة»[١٠]. كما وجد مسح أجرى بين ٢٠٠٣ و٢٠٠٤ أن أكثر من نصف أربعة شعوب عربية اتفق على أن الحكومة يجب أن تنفذ الشريعة الإسلامية بدلا من القانون الوضعى. وعندما نأخذ فى الاعتبار الداعمين للديمقراطية والداعمين لشكل من أشكال النموذج الإسلامى للحكم، فإن النمط العام يكون شيئا من هذا القبيل: ٤٠ إلى ٤٥٪ من الجمهور تؤيد الديمقراطية العلمانية فى حين أن نفس النسبة تقريبا تدعم صيغة إسلامية للديمقراطية، فى الوقت الذى تؤيد فيه ٥ إلى ١٠٪ من الجمهور سلطوية علمانية ونفس النسبة تؤيد السلطوية الإسلامية[١١].

هنا يظهر الدين والانحيازات كعوامل ذات صلة. نحن لا نعرف حتى الآن، وفقا لبيانات البارومتر العربى، ما هى النسبة من بين هؤلاء الذين يختارون على حد سواء «الديمقراطية» والنفوذ الإسلامى التى لديها فهم للديمقراطية بوصفها العنصر الأساسى، ليس فقط لحقوق الأغلبية، بل أيضا لحقوق الأقليات بما فى ذلك حق الأقلية فى محاولة حصولها على الأغلبية فى الانتخابات القادمة.

الـــعـــــــربـــى

الفرد من الدخل، وجدا «العديد من الإنجازات الانتخابية» من بين الدول ذات الغالبية المسلمة التى لا تعتبر عربية، ولم يجدا مثالا واحدا من بين الدول العربية[٣].

يكشف تحليلى الداعم الأكثر حداثة النقاط الإضافية التالية. أولا، إذا كان لنا أن نتساءل عما إذا كانت الأنظمة تلبى الحد الأدنى من الديمقراطية الانتخابية (انتخابات حرة ونزيهة تحدد من سيكون فى الحكم)، سنجد أن هناك ثمانى من الدول ذات الأغلبية المسلمة غير العربية تصنفها فريدوم هاوس كديمقراطيات اليوم، بينما لا توجد أى دولة عربية[٤]. ثانيا، هناك «فجوة حرية» كبيرة بين الدول العربية وغير العربية ذات الأغلبية المسلمة. ففى نهاية عام ٢٠٠٨، كان متوسط النقاط التى حصلت عليها الدول العربية الست عشرة فى منطقة الشرق الأوسط فى مقياسى فريدوم هاوس ٥,٥٣ (أسوأ درجة ممكنة كانت ٧ والتى كانت تشير إلى «الأقل حرية»). بينما كان متوسط الدول الإسلامية الأخرى ٤,٧[٥]. أى أن الاختلاف بين المجموعتين يتعدى نقطة كاملة على مقياس من سبع درجات وهو اختلاف لا يستهان به. علاوة على ذلك، فإنه فى حين أن إحدى عشرة من الدول

والأدلة التى بحثتها أمانى جمال ومارك تسلر تشير إلى أن نسبة أنصار الديمقراطية العلمانية تختلف قليلا عن نسبة من يدعمون الديمقراطية الإسلامية عندما يتعلق الأمر بدعم قيم ديمقراطية، مثل الانفتاح والتسامح والمساواة، إلا أن الديمقراطيين العلمانيين يبدون أكثر ليبرالية عندما يتعلق الأمر بالتسامح العنصرى وحقوق المرأة. استنتج جمال وتسلر أن العرب يثمنون الديمقراطية، حتى لو كان قلقهم بشأن الاستقرار يدفعهم للرغبة فى أن تأتى بالتدريج، كما استنتجا أنه لا السياسة الدينية ولا التدين الشخصى يشكلان عقبة رئيسية أمام التحول الديمقراطى.

ولكن تظل مشكلة واحدة. أنه من بين الديمقراطيين العلمانيين فى العالم العربى، يوجد خليط من الطبقة المتوسطة من المثقفين الليبراليين والمهنيين ورجال الأعمال الذين يضغطون من أجل الديمقراطية من أماكن أخرى فى أنحاء العالم. لم يتم غربلة العديد من هؤلاء الديمقراطيين العلمانيين (بعضهم كذلك أعضاء فى أقليات دينية أو عرقية) فى بيانات مسح البارومتر العربى وفقا لمعتقدات مواطنيهم. يتخيل هؤلاء

الديمقراطيون بدلا من ذلك السياسة الوشيكة البديلة للنظام الاستبدادى الذى لا يروق لهم. ويتخوفون من أن لا يصبح ذلك نسخة إسلامية معتدلة للديمقراطية الدستورية، وإنما يكون نظاما تسيطر عليه جماعة الإخوان المسلمين المصرية، وحزب جبهة العمل الإسلامى الأردنى، أو بعض القوى الإسلامية الأخرى المتشددة والمعادية للديمقراطية، مما يعنى مزيدا من الهيمنة المشئومة. كذلك، يخشون أن هذا البديل الإسلامى سينتج «صوت واحد لكل شخص واحد، ولكن لمرة واحدة» قبل أن يتم اختطاف الثورة الانتخابية الديمقراطية كما خطف آية الله الخمينى الثورة الإيرانية فى ١٩٧٩. أو أنهم يخشون أن يؤدى الجهد المبذول فى آخر لحظة لمنع هذا الاحتمال لإغراق بلادهم فى السيناريو المروع للجزائر فى ١٩٩١، عندما سيطر الجيش لمنع الجبهة الإسلامية للإنقاذ من الفوز فى الانتخابات الوطنية، مما أدى إلى ما يقرب من عشر سنوات طويلة من الحرب الأهلية التى أودت بحياة ما يقرب من ١٥٠ ألف شخص. المرء لا يحتاج إلى تبرير الاختيار الذى قامت به النخب السياسية والعسكرية فى الجزائر، ووحشية السنوات التالية، من أجل الاعتراف بالعقبات أمام الديمقراطية الملازمة للتخوف من الإسلام الراديكالى كبديل ينتظر من خلف الكواليس انهيار النظام الحالى. خلال العقود الأخيرة، كان هناك تخوف مواز فى مكان آخر من العالم: التخوف من استيلاء اليسارية الراديكالية أو «الشيوعية» على الانتخابات. ليس من قبيل الصدفة أن يثبت فى تلك البلدان (فى أمريكا اللاتينية، وجنوب أفريقيا) حيث كان هذا التخوف ينغص الحكام المستبدين وبعض خصومهم الليبراليين، أن النخب أصبحت مستعدة فقط لمناقشة الانتقال للديمقراطية، عندما تبدد احتمال انتصار القوى المعادية للديمقراطية اليسارية نتيجة القمع الوحشى أو نهاية للحرب الباردة.

التنمية الاقتصادية والبنية الاجتماعية

تبقى القضية، كما جادل سيمور مارتن ليبست قبل خمسين عاما، أنه كلما زاد ثراء بلد ما، زادت احتمالات كسب والحفاظ على الديمقراطية بها. إلا أن العديد من الدول العربية تعد شديدة الثراء. فإذا قارنا وفقا لمتوسط دخل الفرد (فى ٢٠٠٧ وفقا للقوة الشرائية للدولار)، نجد أن الكويت فى نفس غنى النرويج تقريبا، وأن البحرين على قدم المساواة مع فرنسا، والمملكة العربية السعودية مع كوريا، وعمان مع البرتغال، وكوستاريكا مع لبنان. فقط مصر والأردن والمغرب، وسوريا، واليمن تقع فى أدنى حد، إلا أن هذه البلدان لا تعد أفقر من حيث متوسط نصيب الفرد من الهند أو إندونيسيا، حيث تعمل الديمقراطية هناك على الرغم من عدم وجود ازدهار واسع.

بطبيعة الحال، يمكن أن تكون أرقام متوسط دخل الفرد خادعة. عندما يكون توزيع الدخول سيئا ومنحرفا كما هو الحال فى العالم العربى. علاوة على ذلك، فإن الدول المصدرة للنفط تبدو متقدمة من على السطح أكثر بكثير مما هى عليه فعليا. حيث إن ترتيب أغلبها من حيث «التنمية البشرية» يقل كثيرا عن ترتيبها من حيث نصيب الفرد من الدخل النقدى (الفرق بين الترتيبين فى المملكة العربية السعودية ٣١ درجة، وفى الجزائر ١٩ درجة). ولكن بالأخذ فى الاعتبار مستويات التنمية البشرية (التى تأخذ فى الاعتبار التعليم والصحة كذلك)، تقف أغنى الدول النفطية العربية على الأقل على قدم المساواة مع البرتغال والمجر، فى حين تأتى المملكة العربية السعودية مع كل من بلغاريا وبنما. وبالنظر إلى الدول العربية التى لديها القليل من النفط لتصدره أو ليس لديها نفط على وجه الإطلاق، نرى أن مصر تحتل نفس مرتبة إندونيسيا، والمغرب له مرتبة جنوب إفريقيا. بعبارة أخرى، يمكن للمرء أن يجد فى أى مستوى من التنمية، وباستخدام كل المقاييس، العديد من الديمقراطيات، التى يتساوى مستوى تنمية كل منها مع دولة عربية غير ديمقراطية.

لو لم تكن المشكلة فى المستوى الاقتصادى، ربما كانت فى الهيكل الاقتصادى. من بين ست عشرة دولة عربية، يوجد من بينها إحدى عشرة دولة «ريعية» بمعنى أنها تعتمد اعتمادا كبيرا على ريع النفط والغاز (وهى فى جوهرها دخول غير مكتسبة) للحفاظ على البلد واقفا على قدميه. هذه الإحدى عشرة دولة تستمد أكثر من ٧٠٪ (فى بعض الحالات أكثر من ٩٠٪) من عائدات تصديرها من النفط والغاز. وأغلبها غارقة فى السيولة النقدية بحيث لا تحتاج لتحصيل ضرائب من مواطنيها. وهذا هو جزء من المشكلة، إذ يفشلون فى تطوير التوقعات العضوية للمساءلة التى ستنشأ عندما تفرض الدولة على المواطنين دفع الضرائب. كما لاحظ صموئيل بى. هنتنجتون فى الموجة الثالثة:

تعود عائدات النفط للدولة: وهى بالتالى تزيد من قوة بيروقراطيتها، ولأنها تقلل أو تزيل الحاجة إلى فرض الضرائب، فإنها أيضا تقلل من حاجة الحكومات فى الحصول على موافقة رعاياها لفرض الضرائب. وكلما انخفض مستوى الضرائب، قلت رغبة الجماهير فى المطالبة بتمثيل ديمقراطى. «لا ضرائب بدون تمثيل». يعد مطلبا سياسيا، «لا تمثيل بدون ضرائب» هو واقع سياسى[١٢].

حيث يهيمن النفط، تصبح فرص خلق الثروة من خلال الاستثمار والمخاطرة قليلة، فلماذا المجازفة عندما تكون الأرباح الثابتة متاحة دون أى مخاطرة؟

تتعدى لعنة النفط تضخم دور الدولة ولامبالاة المواطنين. فدور الدولة ليس فقط كبيرا فى الدول النفطية، هو أيضا شديد المركزية، فبما أن الثروة النفطية تذهب إلى الدولة المركزية. وهذه الدول عادة ما تكون شديدة البوليسية، لأن هناك الكثير من المال ليصرف بسخاء على نشاط جهاز أمن الدولة. ومن الطبيعى أيضا أن تكون هذه الدول عميقة الفساد، لأن المال ينصب فى خزينة الدولة المركزية، كريوع، فهو عن حق «مال بلا صاحب» (هى بالتأكيد ليست أموال دافعى الضرائب)، لذلك، بمعنى معيارى مشوه «خالص» ليستحوذ. فى هذه النظم، قد تدعم الدولة الكبيرة والمركزية والقمعية، أى عدد من البيروقراطيات المتضخمة من خلال برامج للتوظيف، تهدف لشراء السلام السياسى عن طريق الرواتب الحكومية، ويصبح المجتمع المدنى ضعيفا ومستأنسا، وكل ما يتعلق باقتصاد السوق مشوه للغاية؛ فالمشاريع الخليجية بالكاد واضحة، بما أن معظم من يعملون فى «البزنس» إما يخدمون الدولة أو قطاعها النفطى، أو ينفذون عقودا حكومية أو يمثلون شركات أجنبية.

وحيث يهيمن النفط، تصبح فرص خلق الثروة من خلال الاستثمار والمخاطرة قليلة، فلماذا المجازفة عندما تكون الأرباح الثابتة متاحة دون أى مخاطرة؟ وهناك أبعاد مشئومة أخرى لـ«مفارقة الوفرة»، مثل دورات الازدهار والكساد التى تعتمد على السلع الأولية، فضلا عن الميل العام للاعتماد على ريع النفط الذى يحقق كسبا سريعا، لخنق أو استباق التنمية للصناعة والزراعة (وهو ما يسمى بالمرض الهولندى). يمكن فقط تجنب هذه العواقب إذا كانت اقتصاديات السوق نشطة، والدولة قابلة للمساءلة والنظم الضريبية متطورة فى المكان قبل أن تفيض عائدات النفط (كما هو الحال فى النرويج وبريطانيا مثلا)[١٣].

هناك إذن، أسس اقتصادية لغياب الديمقراطية فى العالم العربى. إلا أن ذلك يعد هيكليا. فهو له علاقة بالسبل التى يشوه بها النفط الدولة والسوق، والبنية الطبقية، والهيكل الكامل للحوافز. ولا سيما فى فترات ارتفاع أسعار النفط العالمية، التى تصبح آثار لعنة النفط خلالها لا هوادة فيها: لا توجد دولة واحدة من الـ٢٣ دولة التى

تستمد معظم عائدات صادراتها من النفط والغاز تعد اليوم الديمقراطية. وبالنسبة لبلدان عربية كثيرة، لن تزول لعنة النفط قريبا، إذ يعد الشرق الأوسط العربى موطنا لخمسة من البلدان التسعة الأكبر من حيث احتياطيات النفط، وتملك الدول الخمس مجتمعة ما يزيد قليلا على ٤٦٪ من الاحتياطى العالمى[١٤].

فن الحكم الاستبدادى

اثنتان من الركائز الأساسية للاستبداد العربى، سياسية: إنها تشمل الأنماط والمؤسسات التى تدير من خلالها الأنظمة الاستبدادية سياساتها وتحافظ بها على سيطرتها على السلطة، جنبا إلى جنب مع القوى الخارجية التى تساعد على الحفاظ على سيادتها. ممارسات هذه الهياكل السلطوية ليست حكرا على العالم العربى، إلا أن الحكام العرب ارتقوا بها إلى درجة عالية من النقاء، ومارسوها بمهارة غير عادية. فعلى الرغم من أن الدولة العربية النموذجية لا تكون فعالة فى الحياة اليومية إلا أن أجهزة مخابراتها تكون عادة ممولة بإسهاب، ومتطورة من الناحية التقنية، وشديدة النفاذ، وغير مقيدة من الناحية القانونية، ومحافظة على توازن رائع من التعاون واسع النطاق مع المؤسسات النظيرة فى المنطقة فضلا عن وكالات الاستخبارات الغربية. باختصار، «تحظى هذه الدول بالمركز الأول فى العالم من حيث نسبة الناتج القومى الإجمالى المنفقة على الأمن»[١٥].

ومع ذلك فإن معظم الأنظمة الاستبدادية العربية لا تعتمد على الإكراه الحاد والتخويف من أجل البقاء. فهى تعتمد بدلا من ذلك، على القمع الانتقائى الممزوج بقليل (وبالتالى غالبا ما يكون خفيا) من آليات التمثيل الديمقراطى، والتداول، والاختيار الجماعى. حيث تلعب انتخابات تعددية معدودة دورا هاما فى حوالى نصف الأنظمة الاستبدادية العربية الستة عشر. كما كتب دانيال برومبرج قبل سبع سنوات:

الأوتوقراطيات المستقلة قد أثبتت أنها أكثر قدرة على البقاء مما تخيلناه يوما. البصمة المميزة لخليط من التعددية الموجهة، والانتخابات المسيطر عليها، والقمع الانتقائى فى مصر والأردن والمغرب والجزائر، والكويت ليست مجرد «إستراتيجية بقاء» تعتمدها الأنظمة الاستبدادية، وإنما نوع من النظم السياسية الذى تتحدى مؤسساته، وسيادته، ومنطقه أى نموذج خطى للتحول الديمقراطى[١٦].

فى الواقع، فى مثل هذه النظم حتى التحرر لا يكون خطيا بل على الأصح دائريا ومتكيفا. فعندما تتصاعد الضغوط، سواء من داخل المجتمع أو من خارجه، يخفف النظام من القيود ويتيح المزيد من الأنشطة المدنية والمزيد من الانفتاح على الساحة الانتخابية، حتى تبدو المعارضة السياسية كما لو أنها ستنمو لتصبح أكثر جدية وفاعلية. فيعود النظام إلى المزيد من الأساليب الخرقاء فى تزوير الانتخابات، وتقليص الفضاء السياسى، وإلقاء القبض على المشتبه بهم المعتادين. الساحة الانتخابية فى هذه الدول بالتالى تشبه رئتين سياسيتين ضخمتين، من حيث التنفس (فى بعض الأحيان بعمق وشغف) والتوسع، ولكن لا محالة من الزفير والانقباض بعد ذلك عند الوصول للحدود.

المسار السياسى الذى اتبعته مصر فى ٢٠٠٤ و٢٠٠٥ كان خير مثال على هذه الدينامية. ووجه المستبد المسن، الرئيس المصرى حسنى مبارك، بضغوط داخلية متزايدة من قبل تحالف واسع غير معتاد عرف باسم حركة كفاية (وهو ما لخص ببلاغة مزاج البلاد)، وكذلك من قبل الولايات المتحدة أثناء حكم الرئيس جورج دبليو بوش، الذى كان أيضا يضغط من أجل انتخابات رئاسية وتشريعية أكثر انفتاحا وقدرة على المنافسة. وافق مبارك على مضض، على السماح بإجراء انتخابات رئاسية تعددية وانتخابات تشريعية أكثر شفافية فى ٢٠٠٥. إلا أن «مسابقة» الرئاسة ظلت جائرة بفداحة، وخلال ثلاثة أشهر من الانتخابات (التى فاز بها الرئيس بنسبة ٨٨,٦٪ وفقا للادعاءات الرسمية) حكم على المعارض لمبارك، أيمن نور، بالسجن لخمس سنوات. كما، تدخل النظام فى الجولتين الثانية والثالثة من الانتخابات البرلمانية لتقويض الإدارة المستقلة للتصويت، وتحييد مراقبى المجتمع المدنى، ووقف وتيرة انتصار المعارضة من مرشحى الإخوان المسلمين الذين خاضوا الانتخابات بموجب القانون كـ«مستقلين». لم يمض وقت طويل بعد ذلك، ليبدأ الحزب الحاكم حملة لـ«إصلاح» الدستور لتأمين نفسه ضد أى «حوادث» سياسية مستقبلية، فى حين وقفت المعارضة الفاقدة لمعنوياتها والمنقسمة، والتى أضعفتها الاعتقالات والترويع والتخويف، لتتفرج عاجزة بما حصلت عليه من دعم محدود من جانب إدارة بوش. هذه المناورة المؤسسية كانت جزءا من نمط عربى عام لـ«إصلاح المروض»، الذى تعتمد الأنظمة العربية الأوتوقراطية من خلاله على لغة الإصلاح السياسى بغية تجنب ذلك واقعيا، أو تتبنى إصلاحات اقتصادية واجتماعية محدودة لمتابعة التحديث دون تحول ديمقراطى[١٧].

تسمح هذه الأنظمة (والتى تشمل الجزائر والأردن والكويت والمغرب فضلا عن مصر) بقدر من التنافس السياسى والتعددية، فى حدود القواعد والمعايير المعدة بعناية بحيث تضمن أن يظل المعارضون محرومين وغير متمكنين. وتختار الممارسات الانتخابية (مثل استخدام الأردن لاقتراع فردى غير قابل للتجيير) بحيث تميل لمنح العلاقات الشخصية والقبلية للمرشحين امتيازا على حساب الأحزاب السياسية المنظمة، وخصوصا الإسلاميين[١٨]. ولا تملك البرلمانات التى تنتج عن هذه الانتخابات المحدودة سلطة حقيقية للتشريع أو الحكم، لتبقى السلطة غير المحدودة فى يد الملوك والرؤساء.

تدفع أحزاب المعارضة ثمنا فادحا سواء قاطعت هذه المتاهات أو شاركت فيها. فإذا شاركت أحزاب المعارضة فى الانتخابات والبرلمان، فإنها تواجه بخطر الاستئناس أو على الأقل أن ينظر إليها على هذا النحو من قبل الناخبين الساخرين والساخطين. أما إذا قاطعت «اللعب من داخل» السياسة الانتخابية والبرلمانية، فإن «اللعب من الخارج» عن طريق الاحتجاج والمقاومة يتيح إمكانية واقعية محدودة للتأثير، فضلا عن الوصول للسلطة. وبسبب الوقوع فى شباك هذه المعضلة، أصبحت المعارضة السياسية فى العالم العربى منقسمة، مشبوهة، وممزقة من الداخل. هى ملعونة إذا شاركت وملعونة إذا لم تشارك. حتى الإسلاميين فى دول مثل مصر والكويت والمغرب مجزؤون فى معسكرات مختلفة، ما بين تيارات معتدلة ومتشددة (فضلا عن التكتيكية والمتعصبة). تقف الأحزاب الإسلامية بحزم خارج النظام، فى نفس الوقت الذى تتبنى فيه شبكات للرعاية الاجتماعية وروابط دينية وأيديولوجية قاعدية، وتحشد قواعد من الدعم الشعبى على المدى الطويل. فى حين تبدو الأحزاب العلمانية، على النقيض من ذلك، هامشية، عرجاء وضعيفة. «مسحوقة بين الأنظمة التى تسمح بمساحة قانونية محدودة... وحركات إسلامية شعبية فى صعود واضح... إنهم يناضلون من أجل نفوذهم وأهميتهم، وفى بعض الحالات حتى من أجل بقائهم»[١٩].

إن معظـــم الأنظـــمة الاســـتبدادية العربيـــة لا تعتمـــد على الإكراه الحاد والتخويف من أجل البقاء. فهـــى تعتمـــــد عـــــلى القمـــع الانتقـــائى

ملف الجغرافيا السياسية

الوضع الجغرافى السياسى غير المواتى الذى يواجه الديمقراطية فى العالم العربى يتخطى عامل النفط الساحق، على الرغم من تحريك النفط لكثير من القوى الكبرى التى لها مصالح فى المنطقة. كان الدعم الخارجى للأنظمة العربية، تاريخيا، يأتى بشكل جزئى من الاتحاد السوفيتى ولكنه

يأتى الآن أساسا من أوروبا والولايات المتحدة، مانحا الأنظمة الاستبدادية العربية موارد اقتصادية حاسمة، ومساعدات أمنية، وشرعية سياسية. فى ظل هذه الظروف، تقوم المساعدات الخارجية للأنظمة غير النفطية مثل مصر والأردن والمغرب، مقام النفط؛ مصدر آخر للريوع التى تستخدمها الأنظمة من أجل البقاء. فالمعونة تتدفق إلى خزائن الدولة المركزية مثل النفط مانحة إياها وسائل الاستئناس والقمع على حد سواء. بلغ مجموع معونات «التنمية» التى قدمتها الولايات المتحدة لمصر منذ ١٩٧٥، أكثر من ٢٨ مليار دولار، لا تتضمن ما يقرب من ٥٠ مليار دولار تدفقت إلى هذا البلد فى صورة مساعدات عسكرية منذ معاهدة كامب ديفيد للسلام فى ١٩٧٨[٢٠]. الأقل شهرة، هو التدفق الهائل من المعونات الأمريكية الاقتصادية والعسكرية لدولة تقل بكثير من حيث عدد السكان هى الأردن، والتى حصلت على ما متوسطه ٦٥٠ مليون دولار سنويا منذ ٢٠٠١. «تتيح المعونات الغربية للنظم السياسية الرئيسية فى البلاد الإستراتيجية الإنفاق بسخاء على الوظائف العامة دون فرض ضرائب باهظة. فى الفترة من ٢٠٠١ وحتى ٢٠٠٦، تمثل المساعدات الخارجية التى حصلت عليها الأردن ٢٧٪ من جميع الإيرادات المحلية»[٢١].

تعزز اثنان من العوامل الخارجية الإضافية الهيمنة الداخلية للأنظمة الاستبدادية العربية. أولها هو الصراع العربى الإسرائيلى، الذى يخيم مثل الأبخرة السامة على الحياة السياسية فى الشرق الأوسط. إذ يوفر وسيلة جاهزة ومريحة لتحويل الإحباط العام بعيدا عن الفساد وانتهاكات حقوق الإنسان التى تمارسها الأنظمة العربية، ويحول غضب المواطنين للخارج ليركزوا على ما يبثه الإعلام العربى الخاص والحكومى على حد سواء من قمع إسرائيلى للفلسطينيين بشكل عاطفى، وباستطراد رمزى، للشعب العربى كله. حرية الاحتجاج على أوجه القصور فى الأنظمة العربية نفسها، وسوء نوعية التعليم والخدمات الاجتماعية، وانعدام فرص العمل والشفافية والمساءلة، محظورة إلا أن الرأى العام العربى يستطيع التنفيس عن غضبه فى الصحافة وفى الشوارع على هدف واحد مأمون: هو إسرائيل.

والعامل الخارجى الثانى هو الدول العربية أنفسها، التى تعزز كل منها الأخرى فى التسلط وتقنيات المراقبة والتزوير، والقمع، مما حول الـ٢٢ عضوا فى جامعة الدول العربية على مدى العقود إلى ناد للحكام المستبدين. من بين جميع المنظمات الإقليمية الرئيسية، تبقى جامعة الدول العربية أكبر عقبة أمام تعزيز وتشجيع معايير الديمقراطية. فى الواقع، يخلو ميثاقها، الذى لم يعدل منذ نصف قرن، من أى ذكر للديمقراطية أو حقوق الإنسان. بخلاف كل هذا، يظل عدم وجود مجرد مثال واضح للديمقراطية العربية، أمرا يعنى أنه لا يوجد مصدر لنشر أو مضاهاة الديمقراطية فى أى مكان داخل العالم العربى، حتى فى عصر العولمة، كما جاء فى الموجة الثالثة: أن آثار المظاهرات كانت «أقوى بين البلدان المتقاربة جغرافيا وثقافيا متماثلة»[٢٢].

هل سيتغير أى شىء؟

هل حكم على العالم العربى ببساطة بمستقبل سلطوى لأجل غير مسمى؟ لا أعتقد ذلك. فعلى الرغم من أن بدايات التغيير فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة خلال السنوات ٢٠٠٣ حتى ٢٠٠٥ شجعت الانفتاح السياسى وأتاحت على الأقل مساحة للتعبئة الشعبية الديمقراطية فى دول مثل مصر ولبنان والمغرب فضلا عن السلطة الفلسطينية. إلا أن أغلب هذه النوافذ أغلقت جزئيا أو كليا فى الوقت الراهن، لكن على الأقل ذاقت قوى المعارضة العربية والمجتمعات المدنية مذاق السياسة الديمقراطية. تشير استطلاعات الرأى إلى أن هذه القوى تريد بوضوح أكثر من ذلك، وتتيح أدوات الوسائط الاجتماعية الجديدة مثل الفيسبوك، والتويتر، والمدونات، وثورة الهواتف المحمولة للعرب فرصا جديدة للتعبير عن أنفسهم وللتعبئة.

ثلاثة عوامل يمكن أن تعجل بالتغيير الديمقراطى فى العالم العربى. أولها، ظهور دولة ديمقراطية واحدة فى المنطقة، ولا سيما فى البلاد التى يمكن أن ينظر إليها باعتبارها نموذجا. هذا الدور سيكون من الصعب على لبنان لعبه، نظرا لتعقيد فصائلها الحاد وتشرذم سلطتها التوافقية، فضلا عن استمرار تدخل سوريا الشديد فى سياستها. ولكن إذا أحرز العراق تقدما سياسيا، أولا عن طريق انتخاب حكومة ديمقراطية جديدة هذا العام ثم بانسحاب لائق وسلمى للقوات الأمريكية، يمكن أن تتغير المفاهيم تدريجيا فى المنطقة. مصر أيضا تستحق المشاهدة، حيث تغرب الشمس ببطء على ثلاثة عقود من حكم حسنى مبارك الذى يبلغ من العمر ٨١ عاما. فسواء خلفه ابنه جمال (٤٦ عاما) أم لا، فإن النظام سيواجه بضغوط واحتياجات سيجبر على التكيف معها عندما يختفى فرعون العصر الحديث عن المشهد.

ثانيا، أن تغير الولايات المتحدة من سياستها لاستئناف المشاركة المبدئية وتقديم مزيد من المساعدة العملية واسعة النطاق لتشجيع والضغط من أجل الإصلاحات الديمقراطية، ليس فقط فى المجال الانتخابى ولكن فيما يتعلق بتعزيز استقلال القضاء والشفافية الحكومية فضلا عن توسيع نطاق حرية الصحافة والمجتمع المدنى. إذا تمت متابعة ذلك بلهجة أكثر تواضعا، وتم تعزيزه إلى حد ما عن طريق الضغط الأوروبى، يمكن أن يساعد ذلك على تجديد وحماية القوى السياسية المحلية التى هى الآن فى حالة من الفوضى والإحباط. ولكن للمضى قدما بطول هذا المسار، يجب على الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين تغيير نظرتهم غير المحايدة تجاه الأحزاب الإسلامية وإشراك هؤلاء الإسلاميين الفاعلين الذين سيكونون على استعداد للالتزام بمزيد من الوضوح لقواعد الديمقراطية الليبرالية.

أكبر لاعب للتغيير سيكون، انخفاضا حادا ولفترات طويلة فى أسعار النفط العالمية (فلنقل لنصف المستويات الحالية). وإن كانت أصغر ممالك الخليج النفطية ستظل غنية مع أى سعر يمكن تصوره، لكن ستجد أكبر البلدان مثل المملكة العربية السعودية (عدد سكانها ٢٩ مليون نسمة) من الضرورى طرح صفقة سياسية جديدة مع أبنائها الأكثر ثراء وجمهورها (الشاب جدا). وستقع الجزائر وإيران تحت ضغط أكبر، فعلى الرغم من أن إيران ليست دولة عربية، إنما فقط ذات أقلية العربية، فعلى الواحد ألا يقلل من شأن التأثير الرائع للتحول الديمقراطى لدولة رئيسية فى منطقة الشرق الأوسط والتى تعد أيضا المثال الوحيد لنظام إسلامى كامل فى المنطقة، على آفاق الديمقراطية العربية. عندما ينظر المرء إلى ما حدث للديمقراطية فى نيجيريا، وروسيا، وفنزويلا، حين ارتفع سعر النفط فى السنوات الأخيرة، تصبح سياسة تخفيض سعر النفط أكثر حتمية. قبل مضى وقت طويل، سيجبرنا تسارع تغير المناخ فى الأغلب للاستجابة بشكل أكثر جذرية لهذا التحدى. وعندما تقوم الثورة العالمية فى مجال تكنولوجيا الطاقة بالضرب بكل قوة، وتكسر أخيرا احتكار النفط، سوف تضع نهاية حاسمة للاستثناء السياسى العربى. ■

الصراع العربى الإسرائيلى، يوفر وسيلة جاهزة ومريحة لتحويل الإحباط العام بعيدا عن الفساد وانتهاكات حقوق الإنسان

ملاحظات

أنا ممتن للتعليقات القيمة التى حصلت عليها عند عرض نسخ من هذه الورقة فى ٢٠٠٩ على جامعة ستانفورد، وجامعة إنديانا، ومعهد آش من أجل الحكم الديمقراطى والابتكار فى جامعة هارفارد.

(١) أعنى بـ«الشرق الأوسط» ١٩ دولة فى منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا (MENA). وعندما أشير إلى العالم العربى أعنى بذلك ١٦ دولة عربية فى هذه المنطقة، أى الجزائر والبحرين ومصر والعراق والأردن والكويت ولبنان وليبيا والمغرب وعمان وقطر والمملكة العربية السعودية وسوريا وتونس والإمارات العربية المتحدة واليمن.

(٢) هناك ٢٢ عضوا فى جامعة الدول العربية، على الرغم من أن واحدا منهم وهو (فلسطين) ليس بعد بدولة. من بين الـ٢١ الأخرى، يتم تحليل خمس بشكل أفضل فى سياق جنوب الصحراء الكبرى لإفريقيا: جزر القمر وجيبوتى وموريتانيا والصومال والسودان. من هؤلاء، تعد جزر القمر الدولة الديمقراطية الوحيدة اليوم. كما حظيت موريتانيا بفترة وجيزة من الديمقراطية منذ وقت ليس ببعيد، كما شهد السودان اثنتين من محاولات التحول الديمقراطى الفاشلة.

(٣) ألفريد ستيبان وجرايم بى. روبرتسون، «فجوة الديمقراطية عربية أكثر من كونها إسلامية»، مجلة الديمقراطية ١٤ (يوليو ٢٠٠٣): ٣٠-٤٤.

(٤) الديمقراطيات الثمانى هى ألبانيا وبنجلاديش وجزر القمر وإندونيسيا ومالى والسنغال وسيراليون وتركيا.

(٥) من بين البلدان الـ٤٧ الواردة فى قائمة ستيبان وروبرتسون بوصفها ذات أغلبية مسلمة، استبعدت من أى تحليل نيجيريا، حيث لا يعرف أحد على وجه اليقين ما هو العدد الكلى لسكانها أو ما هو التوازن بين مجموعاتها الدينية. وقمت بإضافة بلدين هما (بروناى وجزر المالديف) التى لم يتم تسجيل بيانات بشأنهما.

(٦) إيلى كيدورى، الديمقراطية والثقافة العربية (واشنطن العاصمة: معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، ١٩٩٢)، ٥-٦.

(٧) لقد وثقت هذه المستويات الواسعة من الدعم فى العديد من مقالات مجلة الديمقراطية على مدى العقد الماضى، وتم تجميع بعضها مؤخرا فى كتاب لارى دايموند ومارك إف. بلاتنر، كيف تنظر الشعوب للديمقراطية (بالتيمور: مطبعة جامعة جون هوبكنز، ٢٠٠٨).

(٨) مارك تسلر واليانور جاو «قياس حجم التأييد العربى للديمقراطية»، مجلة الديمقراطية ١٦ (يوليو ٢٠٠٥): ٨٢-٩٧، وأمانى جمال ومارك تسلر، «بارومترات الديمقراطية: المواقف فى العالم العربى»، مجلة الديمقراطية ١٩ (يناير ٢٠٠٨): ٩٧-١١٠.

(٩) جمال وتسلر، «المواقف فى العالم العربى،» ١٠١.

(١٠) جمال وتسلر، «المواقف فى العالم العربى،» ١٠٢.

(١١) انظر على سبيل المثال فى جدول تسلر وجاو «قياس حجم التأييد العربى للديمقراطية»، ٩١.

(١٢) صموئيل بى. هنتنجتون، الموجة الثالثة: التحول الديمقراطى فى أواخر القرن العشرين (نورمان: مطبعة جامعة أوكلاهوما، ١٩٩١)، ٦٥.

(١٣) تيرى لين كارل، مفارقة الوفرة: ازدهار البترول والدول البترولية (بيركلى: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٧)، ٥-٦، و١٥-١٧ و٢١٣-٢١ و٢٣٦-٤٢.

(١٤) الدول العربية الأكثر غنى بالنفط، هى المملكة العربية السعودية والعراق والكويت ودولة الإمارات وليبيا والجزائر، وفقا لهذا الترتيب. تملك المملكة العربية السعودية أكبر الاحتياطيات النفطية المؤكدة فى العالم وهو ما يقدر بنحو ٢٦٧ مليار برميل، أو ما يقرب من ٢٠٪ من إجمالى الاحتياطى العالمى. إيران المجاورة تحتل المرتبة الثالثة فى العالم بما يقرب من ١٤٠ مليار برميل من الاحتياطيات المؤكدة.

(١٥) إيفا بيلين، «المؤسسات القسرية والقيادات القسرية»، فى مارشابريبشتين بوسوسنى وميشيل بينر أنجريست، محرران، السلطوية فى الشرق الأوسط: الأنظمة والمقاومة (بولدر، كولورادو: لين راينر، ٢٠٠٥)، ٣١. أنفقت دول الشرق الأوسط فى المتوسط ٧,٦٪ من الناتج القومى الإجمالى على الدفاع فى عام ٢٠٠٠، بالمقارنة مع المعدل العالمى البالغ ٨,٣٪. يرى بيلين أن الأنظمة العربية فى الشرق الأوسط، «قوية» على نحو غير عادى، وبذلك هى «استثنائية فى قدرتها واستعدادها لسحق مبادرات الإصلاح من أسفل» (ص ٢٧). على الرغم من أن هذا ينطبق على كثير من الأنظمة الاستبدادية. إلا أن الأنظمة الاستبدادية العربية تثبت مرونة أكثر ومهارة أكثر من غيرها.

(١٦) دانيال برومبرج، «التحول الديمقراطى فى العالم العربى؟ مصيدة الدول الاستبدادية المستقلة»، مجلة الديمقراطية ١٣ (أكتوبر ٢٠٠٢): ٥٦.

(١٧) ميشيل دن، ومارينا أوتاواى، «الأنظمة الحاكمة و'مأزق الملوك ص فى العالم العربى: وعود ومخاطر الإصلاح المدار، «فى مارينا أوتاواى وعمرو حمزاوى، محرران، الوصول إلى التعددية: الجهات السياسية الفاعلة فى العالم العربى (واشنطن العاصمة: صندوق كارنيجى للسلام الدولى، ٢٠٠٩): ١٣-٤٠.

(١٨) جوليا شقير، «خداع الإصلاح: الاستقرار العنيد فى الأردن»، أوراق كارنيجى رقم ٧٦، والديمقراطية ومشروع سيادة القانون، مؤسسة كارنيجى الدولية للسلام، ديسمبر ٢٠٠٦، ٧. متوفرة على:
www.carnegieendowment.org/files/cp76_choucair_final.pdf

(١٩) مارينا أوتاواى وعمرو حمزاوى، «المحاربة على جبهتين: الأحزاب العلمانية فى العالم العربى»، فى أوتاواى وحمزاوى، الوصول إلى التعددية، ٤١.

(٢٠) انظر
www.usaid.gov/our_work/features/egypt and www.fas.org/asmp/profiles/egypt.htm.
يفيد مصدر أخير بأن حجم المعونة العسكرية يساوى ٣٨ مليار دولار فى ٢٠٠٠، بالإضافة إلى مليار دولار عن كل عام جديد.

(٢١) شون يوم، «الأردن: عشر سنوات أخرى من الحكم الاستبدادى»، مجلة الديمقراطية ٢٠ (أكتوبر ٢٠٠٩): ١٦٣.

(٢٢) هنتنجتون، الموجة الثالثة، ١٠٢.

كتاب الزاوية

قصيدة اعتذار لأبى تمام
نزار قبانى

(٢)

إِذَا كُنَّا سَنَبقَى أَيُّهَا السَّادَة
لِيومِ الدِّينِ .. مُختَلِفِينَ حَولَ كِتَابَةِ الْهَمزَة ..
وَحَولَ قَصِيدَةٍ نُسِبَتْ إِلى عَمرِو بنِ كُلثُومِ ..
إِذَا كُنَّا سَنَقرَأُ مَرةً أُخْرَى
قصائدَنَا التى كُنا قَرَأْنَاها ..
ونمضغُ مرةً أُخرَى
حُرُوفَ النَّصبِ وَالْجَرِّ .. الَّتِى كُنَّا مَضَغْنَاهَا
إِذَا كُنَّا سَنَكذِبُ مَرَّةً أُخرَى
وَنَخْدَعُ مَرَّةً أُخرَى الْجَمَاهِيرَ الَّتِى كُنَّا خَدَعنَاهَا
وَنُرعِدُ مَرَّةً أُخرَى ، وَلاَ مَطَرُ ..
سَأجمَعُ كُلُّ أَرَواقِى ..
وَأعْتَذِرُ..

دوامـــــة الأســـــئلة المكـــــررة

ألان جـــــريـــــش
Alain Gresh

هذه ليست المرة الأولى التى يلتقى فيها الكاتب الفرنسى ألان جريش بالرئيس السورى بشار الأسد. فلقد كان اللقاء الأول قبل عام ونصف العام، فى منزل صغير يمتلكه الرئيس فى أعالى دمشق. وكان ذلك عشية زيارة رئاسية إلى فرنسا فى أجواء توحى بدنو انحسار العزلة المفروضة على سوريا من قِبل الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى لأكثر من أربعة أعوام. كما كان اللقاء الأول شاهداً على بوادر انفراج الأزمة السورية اللبنانية وتبدد المخاوف من تحول لبنان إلى ساحة خلفية لزعزعة النظام السورى. وكان الدور التركى وقتها لا يزال بعد منحصرا فى الوساطة الدبلوماسية فى مفاوضات غير مباشرة مع إسرائيل سادها غياب ثقة متبادل. أما العلاقات مع إيران، فجاء ذكرها وقتها كآصرة وفاء لصديق عرفته سوريا وقت الضيق، وكعلاقة استراتيجية تضمن الاستقرار والأمن فى المنطقة، وإن لم يخل الأمر من اختلافات لا تفسد للود قضية مع وجهة النظر الإيرانية. وفى اللقاء الأول، كان الرئيس يحتفظ بعد بشىء من الأمل فى أن تلعب فرنسا والاتحاد الأوروبى دورا مكملا للدور الأمريكى فى المنطقة، التى أعرب الأسد عن مخاوفه بشأن مستقبلها.

فى اللقاء الأول، تجاورت الواقعية مع التفاؤل. فماذا جرى بعد عام ونصف؟ هنا ماخرج به جريش من اللقاء الثانى.

المترجمة

الخبر لم تنقله سوى الصحافة الاقتصادية المتخصصة وبضع مدونات، ونصه أن «الإدارة الأمريكية قد قابلت بالرفض طلباً مقدماً من فرنسا لرفع الحظر على بيع الطائرات إلى سوريا»، وذلك ما صرح به قبل أسابيع (الاثنين ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٩)، وزير النقل والمواصلات السورى. وفى سبتمبر الماضى، كانت شركة «ايرباص»، مُصنِّع الطائرات الأوروبى، قد وقعت اتفاقا مبدئيا مع الخطوط الجوية السورية لتزويدها بأربع عشرة طائرة «ايرباص»، وهو اتفاق مشروط بالحصول على موافقة أمريكية قبل نهاية العام- نظرا لاحتواء الطائرة على قطع أمريكية. غير أن الرئيس أوباما قد قرر تمديد الحظر، الأمر الذى أثار حفيظة سوريا[1].

ولقد انتقد الوزير السورى ذلك الحظر الذى تسبب، على حد قوله، «فى تأزم شركة الخطوط الجوية السورية العربية لكونه أعاقها عن الحصول على الطائرات وقطع الغيار اللازمة لها». وذلك أقل ما يمكن أن يقال. فالشركة السورية راحت تؤخر أو تلغى رحلاتها الجوية بانتظام، بسبب الأعطال الفنية، كما أضحت تستأجر بعض الطائرات من الخارج لتأمين بعض الخطوط، بل ويتهامس البعض فى دمشق عن أن الطائرة الرسمية الخاصة بالرئيس السورى بشار الأسد قد لا تكون آمنة.

ومن المفهوم أن يستخدم الرئيس السورى ذلك الأمر كشاهد على موقف الإدارة الأمريكية عندما سألته عن حال العلاقات بين بلاده والولايات المتحدة الأمريكية. إذ أجاب قائلا: «لا يسعنى الحديث عن علاقات ثنائية فى ظل استمرار فرض الحظر. إذ لا يجوز الحديث عن علاقات طبيعية والولايات المتحدة تفرض علينا عقابها». فالمعروف أن «قانون المسئولية السورية»، الذى أقره الكونجرس الأمريكى عام ٢٠٠٣، مازال ساريا ، وأن الرئيس أوباما قد قام، فى يوليو ٢٠٠٩، بتمديد العمل ، مدةَ عام آخر، ببعض التدابير العقابية الأخرى التى كان قد اتخذها الرئيس بوش عام ٢٠٠٧.

هذا ويبدو الرئيس الأسد فى حيرة من أمره بشأن الإدارة الجديدة. فهو يحيّى التغيير الذى شهده الخطاب البلاغى الأمريكى، لكنه لم يزل بعد ينتظر تغييرا على مستوى الأفعال، وبخاصة أن يتم تعيين سفير أمريكى فى دمشق.

هكذا ما فتئت سوريا والولايات المتحدة تتبادلان النظر فى صمت خليق بتمثالين خزفيين.هذا ويعود الفضل الكبير إلى تقريرين[2] صادرين عن «مجموعة الأزمات الدولية» (ICG)، منتصف ديسمبر الماضى، فى محاولة تحليل مختلف العوامل التى تتحكم فى القرار السورى، بينما واشنطون تحكمها رؤية، تبدو فيها سوريا كطرف تحركه «النوايا السيئة»، والرغبة الدفينة فى الإضرار بالولايات المتحدة. وإن فهم المنطق السورى وتركيبته المعقدة، من دون تقبله بالضرورة، قد يتيح قطعا للدبلوماسية الأمريكية العمل بصورة أفضل. و هو ما تبرزه-بحسب تقرير مجموعة الأزمات الدولية(ICG)- «معركة الأسئلة المكررة» المشتعلة فى واشنطون. فقد ذكر التقرير:

«فى أعماق تلك الإجابات المبسطة ثمة جهد لسبر البواعث العميقة التى تحرك سوريا. فما الذى يريده النظام السورى؟ وهل هو قادر على السلام مع إسرائيل؟ وهل بوسعه قطع علاقاته مع إيران؟ وهل يبتغى لعب دور بناء بالعراق أو على المسرح الفلسطينى؟ وهل يملك الاستغناء عن طموحات الهيمنة فى لبنان؟ لكن ليس ثمة إجابة مجردة على تلك الأسئلة، بمثل ما أنه لا يمكن تحديد نوايا سوريا بصورة جامدة مطلقة، كما لو كانت تلك النوايا محددة سلفا، أو معزولة عن الظروف المحيطة والسياق العام. إن مسلك سوريا فى الماضى قد جاء بصورة كبيرة اعتمادا على أفعال الآخرين، وعلى المشهد الإقليمى، وعلى المخاطر التى تواجهها، فضلا عن انبثاقه

ترجمة: داليا توفيق سعودى

ما الذى يريده النظام السورى؟ وهل هو قادر على السلام مع إسرائيل؟ وهل بوسعه قطع علاقاته مع إيران؟ وهل يبتغى لعب دور بناء بالعراق أو على المسرح الفلسطينى؟ وهل يملك الاستغناء عن طموحات الهيمنة فى لبنان؟

حـــــوار مـــع بـــشـــــار الأســـــد

من وضع البلاد الداخلى ومتطلباته. وهذا ما سيسرى أيضا فى المستقبل. بعبارة أخرى، عوضا عن بذل الجهد فى استكشاف النوايا السورية، الأجدر هو تحديد طبيعة العوامل والديناميكيات التى يستجيب إليها النظام السورى.»

ولبنان خير معلم بهذا الصدد. فلقد استقبلنى الرئيس السورى فور خروجه من المؤتمر الصحفى الذى عقده صباحا مع سعد الحريرى. وإن هذه الزيارة المذهلة التى قام بها رئيس الوزراء اللبنانى، فى غير سابقة منذ عام ٢٠٠٥، ومنذ اغتيال والده رفيق الحريرى، وخروج القوات السورية من لبنان، لتعد فى نظر الصحافة الإقليمية بمثابة زيارة تاريخية. وهى لا تمثل، كما قال لى الرئيس الأسد «مجرد صفحة جديدة، بل هى مرحلة جديدة، وعودة للأمور إلى نصابها الطبيعى. وهى زيارة لا تتعلق بالماضى، بل تتطلع إلى المستقبل، وتستشرف ما ينبغى أن نصنعه معا.» كما تؤكد هذه الزيارة على الحس البرجماتى الذى تتحلى به سوريا: فمن جهة، لن تكون هناك عودة إلى الوضع السائد قبل عام ٢٠٠٥ حين كان أساس السياسة اللبنانية يتم رسمه فى دمشق؛ ومن الجهة الأخرى، تذكِّر سوريا بأنها لاعب أساسى لا يجوز تجاوزه - فائتلاف الرابع عشر من آذار الذى تكون بناءً على الرغبة فى الخلاص من أى دور سورى قد انهزم وانقسم، إذ ابتعد عنه الزعيم الدرزى وليد جنبلاط، وانتقد الوزراء المسيحيون المنتمون لحركة الرابع عشر من آذار زيارة الحريرى إلى سوريا.

هذه البرجماتية السورية يمكننا تلمسها أيضا فى العلاقات مع تركيا التى جاءت زيارة رئيس وزرائها رجب طيب إردوجان لدمشق فى الثالث والعشرين من ديسمبر لترأُس مجلس التعاون الاستراتيجى التركى السورى. من ذا الذى يذكر اليوم ما كان عليه الوضع قبل عشرة أعوام، حين كان البلدان على شفا الحرب؟ فاليوم، راح يرتسم بينهما محور استراتيجى، يحمل نتائجَ لا يمكن حسبانها بالنسبة لمستقبل المنطقة.

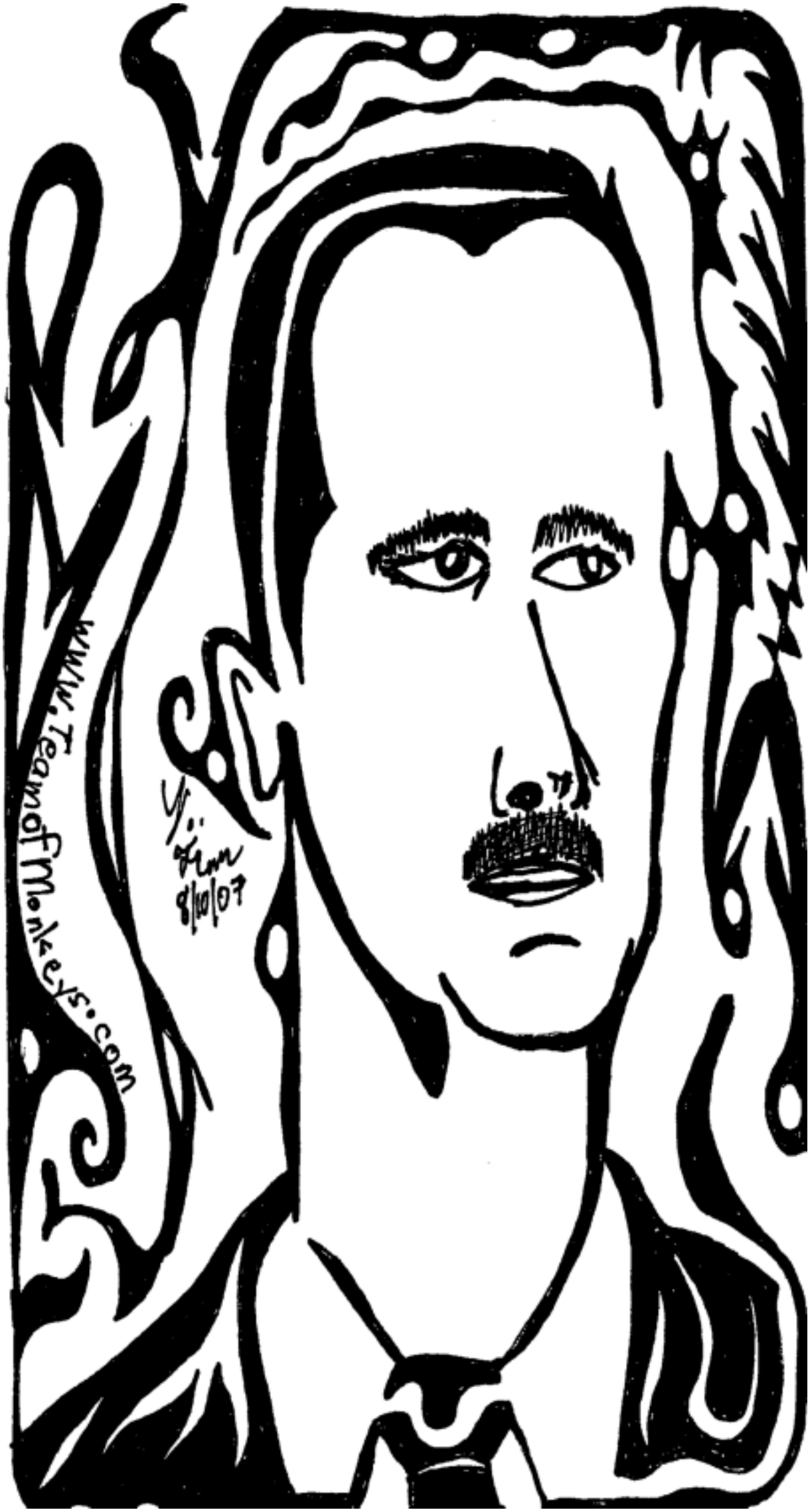

ويشرح الرئيس لى قائلا: «بعد الحرب على العراق فى ٢٠٠٣ ، رأينا النيران تقترب. الأمر الذى دفعنا إلى تنمية تلك العلاقات طلبا للحماية، وإذا بنا نكتشف أننا نشترك مع تركيا فى أمور كثيرة، وأن بيننا وبينها من المصالح المشتركة الكثير والكثير. ومن وقتها صار لدينا مشهد إقليمى مختلف. وصرنا أطرافا فاعلة. ففى كل المشروعات الكبرى، من تنمية لموارد النفط، والغاز، وقطاعات الطرق والسكك الحديدية، وكافة المشاريع عبر بحر قزوين، والبحر الأحمر، والخليج العربى، والبحر المتوسط، ثمة حاجة لذلك التعاون الإقليمى.و هو ما قد يكون مستحيلا فى غياب العلاقات السياسية التى تربط بين بلدينا.» بدا الرئيس فى حديثه إلى مقتنعا بأن مستقبل المنطقة يجب أن يبقى بين أيدى بلدان المنطقة دون غيرها، ومن دون تدخلات خارجية...

وبينما سوريا مستغرقة بعمق فى مشكلاتها الاقتصادية وفى رغبتها فى الإسراع من وتيرة التنمية، تمثل تركيا ورقة ربح كبرى، تفوق فى أهميتها إيران ذات الإمكانات الاقتصادية القاصرة، وهو ما يشير إليه تقرير مجموعة الأزمات الدولية (ICG) . هذا ومن شأن إجراءات مثل فتح الحدود بين تركيا وسوريا، وإلغاء التأشيرات بينهما، وإعادة تأهيل خطوط السكك الحديدية الخاصة بقطار الحجاز الشهير المستخدم قبل الحرب العالمية الأولى، من شأنها أن تتيح نهضة غير مسبوقة للتجارة بين البلدين، وهو القطاع الذى شهد طفرة فى غضون عشرة أعوام من ٥٠٠ مليون دولار إلى ٨,١ مليار دولار.وهو ما أكده إردوجان حين قال إن سوريا هى بوابة الشرق الأدنى...

فماذا عن الدور الذى تلعبه تركيا كوسيط فى المفاوضات السورية الإسرائيلية؟ إثر هذا السؤال، يضحك الرئيس الأسد ثم يجيب: «نحن الآن بحاجة إلى وسيط بين تركيا وإسرائيل». فلقد شهدت العلاقات بين البلدين توترا منذ اندلاع الحرب على غزة وما استتبعته من انتقادات تركية ضد إسرائيل. وعليه، رفض وزير الخارجية الإسرائيلى أفيجدور ليبرمان أن تلعب أنقرة دور الوسيط. وكانت تركيا قد قامت بالوساطة فى خمس دورات من المحادثات غير المباشرة التى تمت بين البلدين عندما كان ايهود أولمرت رئيسا للوزراء، وهى تلك المفاوضات التى لم يتم استئنافها بعد. وبنبرة أكثر جدية أضاف الرئيس قائلاً: «لقد سمعنا مؤخراً أن ثمة جهودا تبذلها أطراف عدة من أجل إعادة العلاقات بين إسرائيل وتركيا، لكى تتمكن الأخيرة من القيام بدورها فى استئناف المفاوضات».

فهل من دور مساعد يمكن لفرنسا أن تلعبه؟ هنا بدا الرئيس متحفظا إذ قال: «فرنسا فاعل دولى وتركيا فاعل إقليمى. ولهما أن يلعبا دورا متكاملا، ولكن علينا أولاً دفع الدور التركى، عندئذ يمكن لفرنسا تأييد ذلك الدور ومن ثم يكون لها دور.» وعلى أى حال، فالرئيس لا يخفى قدرا من التشكك، فهو يعتقد أنه لا يوجد على الجانب الإسرائيلى أى طرف مؤهل لصنع السلام، لاسيما أن الأسد يرفض فكرة «المفاوضات غير المشروطة» التى اقترحها نتانياهو، تلك المفاوضات التى لا تقوم على أسس واضحة («السلام مقابل الأراضى»).

ومن بين الملفات الإقليمية، يعد الملف النووى الإيرانى من أكثرها حساسية. وهو يتعلق بسوريا من حيث إن جزءا من الإدارة الأمريكية يجعل من تراخى العلاقات بين إيران وسوريا شرطاً لحصول الأخيرة على أمارات الرضا الأمريكى. وإن كان ذلك كذلك، فلا شىء يشير إلى أن الرئيس الأسد مستعد للتخلى عن إيران.

فهو يتساءل قائلاً: «هل نحن نريد حلاً مع إيران أم نريد مشكلة؟إن كنا نبتغى مشكلة فالسبيل الأمثل هو ممارسة الضغوط، وفرض الحظر، بل وأيضا شن الحرب. أما إذا كنا نريد حلاً فيجدر فتح حوار مباشر مع طهران. ويجب أن ينبنى هذا الحوار على أساس معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، وعلى حق إيران فى تخصيب اليورانيوم.و على الولايات المتحدة التخلى عن المبادرة «الأوروبية»، التى تعد فى واقع الأمر مبادرة أمريكية بغطاء أوروبى، وعليها مناقشة إيران فى كمية اليورانيوم الذى سيتم تخصيبه (بنسبة ٢٠٪) فى الخارج .فلقد أبدت طهران مرونة إذ قبلت أن يتم تخصيب جزء من اليورانيوم الخاص بها فى الخارج. فالأوروبيون يقولون أنه ينبغى إرسال كامل اليورانيوم دفعة واحدة إلى الخارج، بينما ليست هناك ضمانات تفيد بأن ذلك اليورانيوم ستتم إعادته إلى إيران، التى اقترحت أن يتم ذلك على مراحل ، بأن تقوم بإرسال كمية من اليورانيوم إلى الخارج ، فور عودة كمية أخرى إليها بعد تخصيبها. وأوروبا تصر على أن ترسل طهران كل ما لديها من يورانيوم دفعة واحدة. ولقد قلت للرئيس ساركوزى أننى لو كنت أنا أحمدى نجاد لما قبلت أبدا بمثل هذا العرض». وبعد، أبدى الرئيس دهشته إزاء صمت أوروبا والولايات المتحدة فيما يتعلق بالسلاح النووى الإسرائيلى.

وكان محور طهران – دمشق قد تشكل صبيحة اندلاع الثورة الإيرانية فى ١٩٧٩. ولقد صمد منذئذ أمام كل الأزمات، ولكنه لا يعنى أن للبلدين نفس الرؤية، أو أنهما بالضرورة تشتركان فى نفس المصالح. فسوريا، على عكس إيران، مستعدة للتفاوض مع إسرائيل وللاعتراف بها كدولة؛ ومن جهة أخرى، فى الأزمة الراهنة باليمن، أيدت دمشق المملكة العربية السعودية فى تدخلها ضد المتمردين الحوثيين، بينما أدانتها طهران . والسؤال الذى يفرض نفسه هو لماذا تتخلى سوريا عن إيران وهى قد لقيت منها الدعم والمساندة لاسيما بدءاً من عام ٢٠٠٥، حينما كانت سوريا محط غضب أوروبا والولايات المتحدة. ومع ذلك، من البديهى أن أى اتفاق سلام بين إسرائيل وسوريا سيلقى بظلاله على الائتلافات والتحالفات فى المنطقة.

وعلى ذكر المنطقة، يبدى الرئيس السورى قلقه بشأن مستقبلها، لاسيما فيما يخص تصاعد التوترات الدينية وازدياد التطرف، بينما النزاعات الكبرى مازالت قائمة. وفى هذا السياق، تبدو أوروبا غائبة تماما، إذ يقول الرئيس الأسد: «فى السبعينات والثمانينات، كانت أوروبا تتحلى بالموضوعية أكثر من اليوم، بينما وقتها كانت الحرب الباردة مستعرة والأوروبيون كانوا حلفاء الولايات المتحدة فى مواجهة الاتحاد السوفيتى. ولكنهم كانوا، فيما يتعلق بمنطقتنا، أكثر استقلالية. وها هم اليوم يسلكون اتجاها خاطئاً.لماذا؟ لست أدرى، فعلى الأوروبيين الإجابة». وأردف الرئيس قائلاً: «لو أن لأوروبا سيداً(والمراد سيداً أمريكياً) فلماذا يتوجب على التعامل معها هى، فالأجدر هو التعامل مع السيد مباشرة».

أما فيما يخص التعاون الاقتصادى مع الاتحاد الأوروبى، فقد عاد الرئيس للحديث مجدداً عن قضية الطائرات، متسائلاً:«أنتم تقولون إننا شركاء، ولكنكم غير قادرين على أن ترسلوا لى الطائرات التى أحتاج إليها، متعللين فى ذلك بالحظر الأمريكى. فأى نوع من الشركاء أنتم؟»

فماذا عن اتفاق الشراكة بين الاتحاد الأوروبى وسوريا؟ والإجابة: لن يتم توقيعه فى القريب العاجل. إذ أوضح الأسد أن «كلا الطرفين ليسا ناضجين بالدرجة الكافية لإبرام تلك الشراكة. فمن ناحيتنا، مازلنا نحتاج لإجراء إصلاحات إدارية واقتصادية لتقليص الآثار السلبية الناجمة عن مثل هذا الاتفاق. أما الاتحاد الأوروبى، فقد تم اختطافه على يد الولايات المتحدة وجاك شيراك، ففى أثناء الأعوام العصيبة التى مررنا بها، وقف الاتحاد الأوروبى مع الولايات المتحدة ضدنا. فلو كنتم تريدون صداقتى فعليكم أن تبرهنوا على مدى استحقاقكم لها.» وأضاف الرئيس مؤكداً أن فى كل البلدان العربية التى استشارها بعد إبرامها اتفاق شراكة متوسطى، ما من بلد واحد يشعر بالرضا عن تلك الشراكة...

وفى الختام، ذكر الرئيس أن «الولايات المتحدة لم تعد تحتاج إلى أوروبا بعد انقضاء الحرب الباردة. فبوسع أمريكا أن توجه الأوامر للشرق الأوسط وإلى الدول المنتجة للبترول، وصارت ترتبط بعلاقات مباشرة مع جمهوريات الاتحاد السوفيتى سابقا. فهى الآن تنحى أوروبا جانباً، إلا حينما تكون بحاجة لغطاء ما يسمى بـ«المجتمع الدولى».

تلك رؤية متشائمة لا ريب، ولكنها واقعية إلى حد كبير، لما تواجهه أوروبا من عسر فى إيجاد مكان لها فى التخطيط المعمارى العالمى الذى يرتسم تحت الأبصار. ■

مع ذلك، من البديهى أن أى اتفاق سلام بين إسرائيل وسوريا سيلقى بظلاله على الائتلافات والتحالفات فى المنطقة

الهوامش:

1. http://www.easybourse.com/bourse/information/airbus-les-us-refusent-le-droit-de-vendre-des-avions-a-la-syrie-14095
2. Reshuffling the cards ? (I) : Syrias evolving strategy et Reshuffling the cards ? (II) : Syrias New Hand, http://www.crisisgroup.org/home/index.cfm?id=6434&l=1 <http://www.crisisgroup.org/home/index.cfm?id=6434&l=1>

منحة وجائزة أحمد بهاء الدين للشباب حتى ٣٥ سنة

تعلن جـمعية أصدقاء أحمد بهـاء الدين عن بدء تلقى المشـاركات فى ملخـص من صـفحتين عن موضوع البحث وفصل أو جزء منه لا يتجاوز ٥٠٠٠ كلمه فى أى من الموضوعات السياسيه أو الإقتصاديه أو العلميه أو الإجتماعيه أو الثقـافيه، مصحوباً بالسـيره الذاتيه فى موعد غايته نهاية مارس ٢٠١٠ .

قيمة الجائزة ٢٥٠٠٠ جـنيه ١٠٠٠٠ جـنيه منحه ١٥٠٠٠ جـنيه جائزه

لمزيد من المعلومات وشروط ومواعيد التقديم

المركز الرئيسى ٩٣ شارع قصر العينى،القاهرة. www.ahmedbahaaeldin.com

تليفون وفاكس: محمول:٠١٠٤٩٧٣٦٣٧ ٢٧٩٢٤٠٣٢ fabdsociety@hotmail.com

دماء مابعد الحربين

إيريك هوبزباوم

Eric Hobsbawm

خلقت التوترات العرقية اللغوية ردة فعل سلبية أخذت شكل عقيدة قومية ارتكزت على البوذية والتفوق العنصرى

■■ هل تغيرت طبيعة الإرهاب السياسى فى أواخر القرن العشرين؟ دعنى أبدأ بظاهرة التزايد غير المتوقع للعنف فى جزيرة لا تزال حتى الساعة آمنة مطمئنة، وهى سريلانكا التى تقطنها أغلبية من السنهاليين البوذيين (وهم أصحاب ديانة أبعد ما تكون عن العنف) وأقلية من التاميل الذين هاجروا إليها من جنوبى الهند منذ قرون خلت، أو جاءوها عاملين فى الزراعة فى أواخر القرن التاسع عشر (وديانتهم الهندوسية أيضاً لا تميل إلى العنف). إن الحركة المناهضة للإمبريالية فى سريلانكا لم تكن عسكرية جداً ولا كانت شديدة الفاعلية، ومع ذلك فقد نال البلد استقلاله بهدوء، تحصيل حاصل من استقلال الهند. لكنْ نشأ فى سريلانكا إبان العهد الاستعمارى حزب شيوعى ليس بالكبير، كما نشأ فيها، لشدة الغرابة، حزب تروتسكى أكبر بكثير، وكلا الحزبين قادته جماعة من المثقفين من أبناء النخبة المُتغرِّبة، كما كان كلاهما - بوصفه ماركسياً جيداً- معارضاً للإرهاب. ولم تقع أى محاولات للانفراد بالحكم من قبل أى من الحزبين. وقد عاش البلد بعد الاستقلال فترة هادئة اتسمت بشيوعية معتدلة أسهمت إسهاماً جيداً فى تحقيق عيش رغيد وتوفير ما رغب فيه الشعب من دعة واستقرار.

وباختصار، فإن سريلانكا ما قبل السبعينيات - قياساً بالمعايير الآسيوية - كانت جزيرة نادرة من حيث التمدن مثل كوستاريكا وأوروغواى (قبل السبعينيات) فى أميركا اللاتينية. لكنها اليوم تغرق فى بحر من الدماء. فالتاميل، وهم أقلية تمثل ٢٥٪ لهم تمثيل أكبر من حجمهم فى مهن المتعلمين، خلقوا عداء مسوغاً ضد نظام سنهالى قرر فى الخمسينيات استبدال اللغة الإنجليزية باللغة السنهالية، لغةً رسمية للبلاد. وفى السبعينيات، قامت حركة انفصالية تاميلية مدعومة من قبل دولة جنوب هندية بتأسيس منظمات مسلحة، تمثل أسلاف جبهة نمور تحرير تاميل إيلام الذين يقومون بحرب أهلية فعلية منذ أواسط الثمانينيات، وهى حركة تعرف بأنها واحدة من الرواد العظام، وربما أكبر المستخدمين للتفجيرات الانتحارية من غير دوافع دينية، نظراً لأنّها حركة علمانية. والتاميل لا يملكون من القوة ما يمكنهم من الاستقلال، كما أن الجيش السريلانكى من الضعف بحيث لا يقوى على التغلب عليهم عسكرياً. وقد أبدى الطرفان من العناد ما أمد فى عمر الحرب رغم محاولات شتى من قبل أطراف خارجية (الهند والنرويج) للتوصل إلى تسوية لفض النزاع.

وفى الوقت ذاته، وقع أمران فى مجتمع الغالبية السنهالية، فقد خلقت التوترات العرقية اللغوية ردة فعل سلبية أخذت شكل عقيدة قومية ارتكزت على البوذية والتفوق العنصرى، نظراً لكون اللغة السنهالية لغة هندوأوروبية (أريانية). والغريب فى الأمر أن هذه العنصرية لا تزال موجودة فى تقليد الهند الهندوسية، بل إن نظام الطبقية(*) الهندى القديم لا يزال قائماً فى سريلانكا وباكستان، وإن غطى بقشرة المجتمع المتساوى الطبقات. وفى نفس الوقت، فإن جبهة تحرير شعب التاميل، وهى حركة يسارية ترتكز أساساً على الشباب السنهالى المتعلم الذى لم يستطع إيجاد فرص عمل مناسبة وتغذيها أفكار كاستروية (نسبة إلى فيدل كاسترو) مع قليل من الماوية مشفوعة بقدر ضخم من الكراهية للنخبة الاجتماعية السياسية القديمة، نظمت فى مطلع السبعينيات انتفاضة كبرى تم إخمادها بشىء من العنف، إذ اعتقل كثير من القُصَّر لمدة من الزمن. وقد تمخض هذا التمرد الشبابى الذى كان من نوعية تمردات عام ١٩٦٨ عن منظمة إرهابية مقاتلة تمركزت بشكل أساسى فى الريف السنهالى وصهرت ماويتها الأصلية فى شوفينية سنهالية بوذية عنصرية. وفى سنة ١٩٨٠ نظمت حملة اغتيالات ممنهجة استهدفت المعارضين السياسيين، وهو ما جعل تقلد المناصب العالية سياسياً نشاطاً خطراً. (فرئيسة سريلانكا التى استقالت مؤخراً شهدت اغتيال أبيها - وهو رئيس وزراء أسبق - وزوجها أمام عينيها، كما فقدت إحدى عينيها نتيجة محاولة لاغتيالها هى أيضا). وقد تم استخدام الإرهاب أيضاً استخداماً ممنهجاً لفرض السيطرة فى بلدات الريف وقراه.

وكما هو الحال فى حالة حركة الدرب المستنير الماوية فى البيرو إبان الثمانينيات، فمن غير الممكن معرفة مدى اعتماد حكم جبهة تحرير شعب التاميل على الدعم الجماهيرى العام، وإلى أى مدى قل ذلك الدعم بسبب الإرهاب، وإلى أى مدى فى المقابل يعوض الإرهاب بالكراهية فى مواجهة عنف الدولة ويولد شكوكاً حول الانقلابيين. ثمة أمران واضحان: أولهما أن جبهة تحرير شعب التاميل تمتعت بدعم جماهيرى واسع فى أوساط القطاعات الزراعية العاملة من الشعب السنهالى التى زودها متعلموها بكوادرها السياسية والعسكرية. ثم إن جبهة تحرير الشعب مارست الكثير من القتل الذى قام به فى

للاستزادة:
Globalisation, Democracy and Terrorism
by Eric Hobsbawm? (184pp, Little, Brown, £17.99)

العولمة والديموقراطية والإرهاب
إيريك هوبزباوم
مركز الجزيرة للدراسات - الدوحة، قطر ـ ٢٠٠٩
الدار العربية للعلوم ناشرون - بيروت، لبنان

الغالب أفراد ما يمكن أن يسمى فى أميركا اللاتينية بالسيكاريوس، أو القتلة. كما أن مراهنة جبهة تحرير الشعب على القوة وضعت هى أيضا نفس الموضع، وتحديداً بمفهوم «الحروب القذرة» فى أميركا اللاتينية التى كان هدفها تصفية قادة الثوار وكوادرهم. وما إن نصل إلى أواسط التسعينيات حتى نجد أن عدد من وقعوا ضحايا لهذه الصراعات قد بلغ ستين ألفاً. لقد كانت جبهة تحرير الشعب منذ نشأتها فى أواخر الستينيات، بين دخول وخروج من حلبة السياسة السريلانكية الرسمية. ويبدو مؤكداً أن سريلانكا إن هى إلا مثال واحد على ما عرفه العنف السياسى فى أواخر القرن العشرين من تزايد وتحولات.

ومثال آخر هو أوضح مما ذكرنا نراه فى تزايد ظاهرة القتل العشوائى بوصفه صورةً من صور إرهاب الجماعات الصغيرة وما لاقت من تسويغ نظرى. لقد شجبت الحركات الإرهابية السابقة - باستثناء القليل منها- هذا النوع من النشاط، كما امتنعت عن ممارسته حركاتٌ من جيل حركة إيتا الإسبانية والجيش الجمهورى الإيرلندى الأولى. أما فى العالم الإسلامى، فالتسويغات الشرعية، نحو إباحة قتل كل من لا ينتمى إلى الجماعة المتشددة بوصفه «مرتداً»، يبدو أنّها انتعشت فى مطلع السبعينيات على يد جناح متشدد سابق للقاعدة منشق عن جماعة الإخوان المسلمين بمصر. والفتوى التى أصدرها المستشار الدينى لأسامة بن لادن والتى تجيز رسمياً قتل الأبرياء لم تصدر إلا فى أواخر سنة ١٩٩٢[1].

أما السؤال «لماذا؟» فأكبر من أن يناقش فى هذه المقالة، ولاسيما أنه من الصعب فصله عما تشهده المجتمعات الغربية من ارتفاع عام فى معدل ما غدا مقبولاً اجتماعياً من العنف والقتال المباشر صورة وحقيقة. جاء هذا بعد فترة طويلة عندما كان يتوقع أن تصل الحضارة فى أكثر هذه المجتمعات إلى انحطاطها المستديم.

وأجدنى مدفوعاً لأن أقول إنه لا علاقة بين العنف الاجتماعى العام والعنف السياسى، لأن بعض أسوأ العنف السياسى يمكن أن يقع فى بلدان لم تعرف قطُّ أياً من النوعين، لا العنف السياسى ولا العنف الاجتماعى، كسريلانكا أو أورغواى. ومع ذلك فكلاهما لا يمكن أن يعزل فى بلدان لها تاريخ ليبرالى، ولو لم يكن ذلك إلا من أجل أنهما اللذان ضرب فيهما العنف السياسى غير الرسمى بأطنابه فى الثلث الأخير من القرن العشرين، وارتفعت نتيجة لذلك حدة العنف المضاد من قبل الدولة، والذى عادة ما يكون أشد وأعتى. أما البلاد الدكتاتورية أو الفاشية فتضيّق عليه كل التضييق ما دامت قادرة، فعِلْمُها مع أى نشاط سياسى لا عُنفى.

إن زيادة العنف عموماً جزء من عملية البربرة التى استجمعت قواها فى العالم منذ الحرب العالمية الأولى والتى ناقشتُها فى غير هذا الموضع. وهى تتقدم تقدماً مزعجاً على نحو خاص فى بلاد تتمتع بدول قوية ومستقرة، و(نظرياً) مؤسسات سياسية ليبرالية لا يميز فيها الخطاب العام والمؤسسات السياسية إلا بين حقيقتين متبادلتين فى الخصوصية هما «العنف» و«اللاعنف». وقد كان هذا طريقاً آخر لتأسيس شرعية ما تقوم به الدولة من الاحتكار القومى لاستعمال القوة الذى صاحب نزع سلاح المدنيين فى الدول المتقدمة إبان القرن التاسع عشر، باستثناء الولايات المتحدة التى كان لديها من ثَمّ قبول بنسبة أعلى من العنف من الناحية العملية، وإن لم تكن النظرية تجيز ذلك. ومنذ أواخر الستينيات فقدت الدول بعض ذلك الاحتكار للقوة والمصادر وكثيراً من معنى الشرعية التى جعلت المواطنين ملتزمين بالقانون. وهذا وحده كاف لتفسير كثير من ظاهرة ازدياد العنف.

وقد أخفق الخطاب الليبرالى دائماً فى إدراك أن مجتمعاً لا يمكن أن يقومَ بلا شىء من العنف السياسى، حتى فى الشكل شبه الرمزى للمحتجين أو المظاهرات الحاشدة، وأن ذلك العنف له مراحل وقواعد، كما يعرف كلُّ عضو فى المجتمعات التى يشكل فيها جزءاً من نسيج العلاقات الاجتماعية، وكما يحاول الصليب الأحمر الدولى دائباً أن يذكر برابرة القرن العشرين من المحاربين. ولَمّا كان ما تلقاه الناس بالقبول من القوانين التى تكسرها «القاعدة» أو المدافعون عن «تسليم المعتقلين» - كتشدد القرآن فى مسألة قتل النفس بغير حق، ومسألة رفض التعذيب- ضارباً بجذوره وغير قابل للتغيير، كان لا بد لهم من اللجوء إلى التحايل على الأدلة الشرعية أو القانونية لخدمة مراميهم. لكن عندما تجد المجتمعات أو الجماعات الاجتماعية غير المعتادة على درجة عالية من العنف نفسَها ممارسة له، أو عندما تسقط القوانين العادية فى المجتمعات العنيفة تقليدياً، فإن الحدود المتعارف عليها بشأن استعمال العنف أو درجته لا يبقى لها وجود. فعلى سبيل المثال، أرى أن المزارعين الثوار فى الزمن الماضى، إذ سمحوا بما اتسمت به حياة الريف وسلوكه من وحشية عامة، لم يكونوا فى العادة متعطشين للدماء، وإن كانوا فى العادة أقل تعطشاً من قامعيهم. فعندما كانوا يعتزمون القيام بمذبحة أو عمل وحشى، كانوا يوجهون ذلك عادة ضد أشخاص معينين أو أصناف معينة من الناس والممتلكات، كمنازل الإقطاعيين مثلاً، الذين كان يستثنى غيرهم، من أجل حسن سمعتهم تحديداً. فأعمال العنف لم تكن عشوائية، لكن يمكن القول إنها كانت تفرضها الطقوس حسب المناسبات.

لا علاقة بين العنف الاجتماعى العام والعنف السياسى، لأن بعض أسوأ العنف السياسى يمكن أن يقع فى بلدان لم تعرف قطُّ، لا العنف السياسى ولا العنف الاجتماعى

أخفق الخطاب الليبرالى دائما فى إدراك أن مجتمعاً لا يمكن أن يقومَ بلا شىء من العنف السياسى، حتى فى الشكل شبه الرمزى للمحتجين أو المظاهرات الحاشدة

ولم تكن ثورة سنة ١٩١٧ هى التى جاءت بالمذابح الجماعية إلى الريف الروسى، بل الحرب الأهلية الروسية. لكن عندما تكسر تقاليد السلوك فإن النتائج يمكن أن تكون مروعة، فأحد أسباب النجاح الباهر الذى أحرزته عصابات «نلركو غانغسترز» الكولومبية فى الولايات المتحدة يعود - حسب فهمى- إلى كونها فى صراعها مع خصومها ما عادت تقبل معاهدة ماكو للأعراف القاضية بمنع قتل نساء الخصوم ولا أولادهم.

إن ما نجم عن العنف السياسى من آثار مرضية (باثولوجية) ينطبق على الجماعات المسلحة وقوات الدولة سواء بسواء. ويشجع هذه الآثار ما تشهده حياة المدن من اضطراب اجتماعى ناجم عن انحطاط القيم والأعراف، ولا سيما فى أوساط الصغار، ويقويها انتشار ثقافة المخدرات والأسلحة الخاصة. وفى نفس الوقت، فإن تراجع التجنيد الإجبارى القديم فى الجيوش الوطنية، وازدياد نسبة الجندية المهنية الثابتة (دوام كامل) وخصوصاً فى القوات الخاصة رفيعة المستوى مثل القوات الجوية البريطانية الخاصة (SAS)، يزيل ما لدى البقية الباقية من الرجال المدنيين من موانع تحول بينهم وبين الالتحاق بوحدات النخبة فى الجيوش (esprit de corps) الذين لا همّ لهم سوى استعمال القوة. كما تمت إزالة الضوابط التى لم تكن موضع اتفاق، والتى تحدد ما يمكن أن يعرض عبر وسائل الإعلام التى باتت تتناول جميع الموضوعات وتتمتع بحضور مستمر. وهذا أدى بدوره إلى أن يصبح العنف فى أقسى أشكاله - صوتاً وصورة ووصفاً- جزءاً من الحياة اليومية، ومن ثم تقلصت القيود الاجتماعية على ممارسته. ففى روسيا السوفيتية، أو على الأقل فى المدن التى توفرت فيها معلومات كافية عن الجريمة، ارتكب ٨٠ إلى ٨٥٪ من جرائم القتل العمد تحت تأثير الخمور. وهذا يجعلنا نرفض هذا النوع من إزالة الموانع.

على أن هناك مثيراً آخر للعنف غير المحدود هو أكثر خطراً، وهو ما ساد النزاعات الدولية والمحلية على السواء منذ سنة ١٩١٤ من إيمان الكل بعدالة قضاياهم، وأن قضايا سواهم محض هراء، وهذا جعل استخدام جميع الوسائل من أجل تحقيق النصر أو تجنب الهزيمة ليس مشروعاً فحسب، بل ضرورياً، وهو ما يعنى أن الدول والجماعات المسلحة على السواء تشعر بأن لديها التسويغ الأدبى للبربرية. فقد لوحظ فى الثمانينيات أن المقاتلين الشبان التابعين لحركة الدرب المستنير فى البيرو كانوا على استعداد للتنافس فى قتل المزارعين من غير إدراك لما يفعلون، ذلك أنهم لم يكونوا يتصرفون بوصفهم أفراداً يمكن أن يكون لهم ضلع فى الأمر، ولكن بوصفهم جنوداً للقضية[2]. كما لم يكن ضباط الجيش أو البحرية

الذين كانوا يدرّبون الجنود الجدد على التعذيب الجسدى للمعتقلين السياسيين وحشيين وساديين على الصعيد الشخصى بالضرورة. وكما فى حالة عناصر وحدات القتل المتنقلة فى الجيش الألمانى المشهورة اختصاراً بـ(SS) الذين عوقبوا لقيامهم بمذابح خاصة إذ إنهم تلقوا تدريبات للقيام بعمليات قتل جماعى بأعصاب باردة[٣]، فقد جعل هذا نشاطاتهم تستحق قدراً أكبر من الشجب والإدانة، بدلاً من أن تحسن صورتهم أمام الناس. إن نمو الإرهاب واسع النطاق فى القرن الماضى لم يعكس «قبح الشر» بقدر ما عكس الاستعاضة عن المبادئ الأخلاقية بسلطان الأوامر العليا. ومع ذلك - على الأقل أولياً- فإن ما تشتمل عليه هذه التصرفات من اللاأخلاقية يمكن أن يُدرك، كما فى الأنظمة العسكرية فى أميركا اللاتينية، عندما يمكن أن يتعين على جميع ضباط وحدة ما فى الأرجنتين أن يشاركوا فى التعذيب من أجل ربطهم جميعاً بما كان يمثل العار المشترك. إن مما يُخشى أن قبول التعذيب غداً مقنناً لمثل هذه الأسباب فى القرن العشرين.

لقد كان ارتفاع وتيرة البربرية مستمراً وإن لم يكن متساوياً. فقد وصل إلى ذروة اللاإنسانية بين سنة ١٩١٤ وأواخر الأربعينيات فى حقبة الحربين العالميتين وما أعقبهما من فترة ثورات، وكذلك حقبة هتلر وستالين. لقد جلبت الحرب الباردة تحسناً فريداً فى العالمين الأول والثانى، والبلدان الرأسمالية المتقدمة والمنطقة السوفيتية، ولكن ليس فى العالم الثالث. وهذا لا يعنى أن البربرية فى الواقع انحسرت. ففى الغرب، كانت هذه المرحلة، أى من ١٩٦٠ إلى ١٩٨٥ هى التى شهدت ارتفاع أعداد من يقومون بالتعذيب ممن تلقوا تدريبات رسمية، وموجة لا سابق لها فى التاريخ من الأنظمة العسكرية فى أميركا اللاتينية ومنطقة البحر المتوسط قامت بشن «حروب قذرة» ضد مواطنيها. غير أن الكثيرين رجَوا أن تنقشع غيمة الحروب الدينية التى وصمت القرن العشرين بعد التغيير الكبير الذى وقع سنة ١٩٨٩، وأن يزول بزوالها مولد كبير من مولدات البربرية. لكن هذا للأسف لم يحدث، فبينما ارتفع معدل معاناة الناس ارتفاعاً مذهلاً فى التسعينيات، فإن الحروب الدينية التى أشعلتها المعتقدات العلمانية قوَّتْها أو حلت محلها أصوليات دينية تمثلت فى أشكال شتى من الغزو الصليبى ومواجهته.

ولو تركنا جانباً سفك الدماء وتدمير

كان ارتفاع وتيرة البربرية مستمراً وإن لم يكن متساوياً. فقد وصل إلى ذروة اللاإنسانية بين سنة ١٩١٤ وأواخر الأربعينيات فى حقبة الحربين العالميتين وما أعقبهما من فترة ثورات

فى أميركا اللاتينية حاولت مثل هذه المجموعات المبادرة بأنشطة قتالية من طراز حروب العصابات، وعمليات مسلحة تقوم بها وحدات أكبر، عادة فى المناطق المحيطة

آلة الحرب داخل الدول أو المدعومة من قبلها كما فى فيتنام -على سبيل المثال- والمواجهات غير المباشرة بين القوتين العظميين فى السبعينيات فى أفريقيا وأفغانستان، والحربين الهندية الباكستانية والعراقية الإيرانية، فقد كان ثمة ثلاث مراحل كبرى من العنف السياسى ومواجهة العنف منذ الستينيات:

المرحلة الأولى كانت إحياء ما سمى بـ«البلقنة الجديدة» فى الستينيات والسبعينيات، وتحديداً محاولة مجموعات نخبوية صغيرة الإطاحة بالأنظمة أو تحقيق أهداف القومية الانفصالية من خلال أعمال مسلحة. وقد كان هذا مقصوراً إلى حد كبير على أوروبا الغربية، حيث اعتمدت هذه الجماعات -التى كانت تتشكل أساساً من أصحاب الطبقة الوسطى الذين لم يتمتعوا فى العموم بدعم شعبى خارج الجامعات (باستثناء إيرلندا الشمالية)- اعتماداً كبيراً على أعمال إرهابية كان القصد منها لفت نظر وسائل الإعلام (جناح الجيش الأحمر فى ألمانيا الاتحادية)، ولكنها اعتمدت كذلك على انقلابات محددة الأهداف من شأنها زعزعة استقرار السياسات العليا للبلاد، كاغتيال من سُمى خليفةً للجنرال فرانكو سنة ١٩٧٣ (على أيدى حركة إيتا) واختطاف رئيس الوزراء الإيطالى ألدو مورو سنة ١٩٧٨ وقتله (على أيدى الألوية الحمراء). وفى أميركا اللاتينية حاولت مثل هذه المجموعات المبادرة بأنشطة قتالية من طراز حروب العصابات، وعمليات مسلحة تقوم بها وحدات أكبر، عادة فى المناطق المحيطة، وفى بعض الحالات، كفنزويلا وأورغواى، داخل المدن أيضاً. وقد كان بعض هذه العمليات على درجة من الخطورة، ففى السنوات الثلاث لحركة «مونتونيرو» فى الأرجنتين تكبدت القوات النظامية وغير النظامية ١٦٤٢ ضحية ما بين قتيل وجريح[٤]. وحدود هذه المجموعات كانت بالأخص واضحة فى أعمال حرب العصابات فى المناطق الريفية، حيث يتعين وجود درجة كبيرة من الدعم الشعبى ليس من أجل النجاح بل من أجل البقاء على قيد الحياة. كما أن محاولات بعض الدخلاء تأسيس حركات قتالية على النمط الكوبى لم تكلل بالنجاح فى أى مكان فى أميركا الجنوبية، باستثناء كولومبيا حيث كانت مناطق كبيرة من البلاد خارجة عن سيطرة الحكومة المركزية وطائلة قواتها.

أما المرحلة الثانية التى جاءت بنفسها فى نهاية الثمانينيات، وحظيت بتوسع كبير بفعل الزعزعة المدنية وانهيار الدول فى التسعينيات، فهى بالدرجة الأولى عرقية وعَقَدية. وقد كانت أفريقيا، والمناطق الغربية من العالم الإسلامى، وجنوب شرقى آسيا، وجنوب شرقى أوروبا هى المناطق الأكثر تضرراً. وظلت أميركا اللاتينية فى مأمن من النزاعات العرقية والدينية، فى حين أن شرقى آسيا وروسيا الاتحادية - باستثناء الشيشان- لم تتأثر تقريباً. أما الاتحاد الأوروبى فقد ناله شىء من ذلك بفعل ازدياد حدة رهاب الأجانب وإن لم يكن دموياً. كما تمخضت موجة العنف السياسى، فى مناطق أخرى، عن مذابح بحجم لم يعرف منذ الحرب العالمية الثانية، وأقرب ما يكون من إحياء للقتل الجماعى المنهج. وخلافاً للمبلقنين الأوروبيين الجدد، الذين لم يتمتعوا فى العادة بدعم جماهيرى، فالجماعات النشطة التى عرفتها هذه الفترة ذ فتح، وحماس، وحركة الجهاد الإسلامى الفلسطينية، وحزب الله، ونمور التاميل، وحزب العمال الكردستانى، وما أشبه- كانت تعتمدُ من أنصارها على دعم واسع ومصدر دائم للتجنيد. ولذلك فإن هذه المجموعات لم تتخذ من أعمال الإرهاب الفردية أسلوباً لها أساسياً إلا بوصفها الرد المتاح الوحيد على طغيان القوة العسكرية للدولة المحتلة (كما فى فلسطين)، أو، فى أفضل الأحوال، فى الحروب الأهلية، تعويضاً فى وجه التفوق الكبير للخصم فى العدة والعتاد (كما فى سريلانكا).

وقد ظهر فى هذه المرحلة نموذج جديد ثبت أنه فى غاية الإرعاب، وهو نموذج الانتحارى. ويرجع هذا النموذج أصلاً إلى عهد الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩ إذ حمل عقيدتَها القوية التى تمثلت فى المذهب الشيعى، وربطها بمفهوم الشهادة. وقد تم توظيف هذا النموذج بادئ الأمر سنة ١٩٨٣ توظيفاً فعالاً ضد الأمريكان من قبل حزب الله فى لبنان، كما غدت فاعليته واضحة بانتشاره عبر الأصقاع، وصولاً إلى نمور التاميل فى سنة ١٩٨٧، ثم إلى حماس فى فلسطين سنة ١٩٩٣، ثم بتبنى القاعدة وغيرها من المتشددين الإسلاميين فى كشمير والشيشان له بين سنتى ١٩٩٨ و٢٠٠٠[٥]. وقد أخذ الإرهاب الفردى وإرهاب الجماعات الصغيرة شكلاً آخر مخيفاً فى هذه المرحلة تمثل فى الإحياء الواضح للاغتيالات السياسية. ولئن شكلت الفترة ما بين سنتى ١٨٨١ و١٩١٤ العهد الذهبى الأول لقتل كبار الساسة، فإن السنوات من أواسط

السبعينيات إلى أواسط التسعينيات أصبحت هى العهد الثانى، فقد قتل فيها السادات فى مصر، ورابين فى إسرائيل، وراجيف غاندى والسيدة غاندى فى الهند، وثلةٌ من الزعماء فى سريلانكا، والمسمّى خليفة لفرانكو فى إسبانيا، ورئيسا وزراء إيطاليا والسويد (رغم أن شكاً يكتنف البعد السياسى فى حالة السويد). كما جرت محاولات لاغتيال البابا جون بولس الثانى (John Paul II) والرئيس ريغن سنة ١٩٨١. ولئن لم تكن نتائج هذه الأعمال ذات طابع انقلابى، فإنها تركت فى بعض الأحيان تأثيرات سياسية واضحة، كما فى إسرائيل، وإيطاليا، وربما إسبانيا.

غير أن انتشار جهاز التلفاز جعل الأعمال الأكثر تأثيراً فى السياسة ليست بيد صناع القرار بل بيد وسائل الإعلام ذات التأثير الأقوى. وعليه فقد وضعت مثل هذه الأعمال حداً للوجود العسكرى الرسمى للولايات المتحدة فى لبنان فى الثمانينيات، وفى الصومال فى التسعينيات، وكذلك فى السعودية بعد سنة ٢٠٠١. إلا أن إحدى العلامات غير السارة للبربرة هى ما تم اكتشافه بفعل الإرهاب من أن القتل الجماعى للرجال والنساء العاديين، ما دام يسترعى انتباه الشاشة التلفزيونية، كان له قيمة إعلامية أكبر من كل ما سواه باستثناء من كانت تستهدفهم قنابلهم من العناصر البالغة الأهمية أو الشخصيات الرمزية.

وفى المرحلة الثالثة التى يبدو أنّها سادت فى بدايات القرن الحالى، كان العنف السياسى قد أصبح عالمياً على نحو ممنهج، سواء من خلال سياسات الولايات المتحدة فى ظل إدارة الرئيس جورج بوش أم من خلال المؤسسة، وربما للمرة الأولى منذ فوضوية (anarchism) أواخر القرن التاسع عشر صار بمقدور حركة إرهابية أن تعمل على نحو مطرد عبر الحدود. فالقاعدة تبدو منظمة نخبوية مركبة، لكنها عملت كحركة لا مركزية صممت فيها خلايا صغيرة معزولة لتعمل من غير إسناد جماهيرى أو دعم مباشر يُذكر. كما لم تتطلب قاعدة إقليمية. وعليه فلم تتأثر هى، أو شبكة متناثرة من الخلايا الإسلامية التى استلهمت نهجها، بخسارتها قاعدتَها فى أفغانستان وبتهميش زعامة أسامة بن لادن لها. ومن مزايا هذه المرحلة أن الحروب الأهلية أو غيرها من النزاعات التى لا تتسع لها الصورة العالمية، نحو النزاعات المتواصلة فى سريلانكا والنيبال وكولومبيا، أو الاضطرابات فى الدول الأفريقية الفاشلة أو الماضية نحو الفشل، لم تُثِر سوى اهتمام متقطع فى الأوساط الغربية.

لقد تميزت هذه الحركات بشيئين اثنين، فقد تكونت من أقليات صغيرة، حتى عندما تمتعت هذه الأقليات ببعض التعاطف السلبى من قبل الجماهير التى ادعت أنّها تعمل باسمها، وكان أسلوبُها فى العمل أسلوب عمل المجموعات الصغيرة. يقال إن ما يسمى بـ«وحدات الخدمة النشطة» للجيش الجمهورى الإيرلندى الابتدائى لم تتجاوز ٢٠٠ أو ٣٠٠ فرد فى أى وقت واحد، وأنا أشك فيما لو كانت الألوية الحمراء فى إيطاليا أو حركة إيتا فى إقليم الباسك أكبر من ذلك. بل لعل أكثر الحركات الإرهابية الدولية إرعاباً، وهى القاعدة، لم يصل عدد أفرادها فى أيام ذروتها فى أفغانستان إلى أكثر من أربعة آلاف فرد[٦]. ولو استثنينا مناطق محدودة، كإيرلندا الشمالية، فإن الميزة الأخرى لهذه الحركات أن «أعضاءها فى الجملة أكثر ثقافة، وينحدرون من خلفيات اجتماعية أعلى من سائر أفراد المجتمعات التى ينتمون إليها»[٧]. ولذلك فإن المرشحين للتجنيد من قبل القاعدة، من الذين ذهبوا لتلقى التدريبات فى أفغانستان فى التسعينيات، يوصفون بأنّهم «من الطبقتين الوسطى والعليا، ويكاد يكون جميعهم من عائلات متماسكة. ونسبة كبيرة منهم من خريجى الكليات، مع ميل شديد للعلوم الطبيعية والهندسة... وليس منهم إلا قلة من خريجى التعليم الدينى»[٨]. حتى فى فلسطين، حيث يمثل الانتحاريون شريحة من أوساط الناس فى المناطق المحتلة بمن فيهم نسبة عالية من أبناء مخيمات اللاجئين، فإن ٥٧٪ منهم كانوا ممن واصلوا تعليمهم فوق الثانوى، مقارنة بما لا يزيد على ١٥٪ فى عامة المجتمع من أترابهم[٩].

ورغم صغر هذه المجموعات فإنّها أثارت مخاوف الحكومات التى حركت ضدها قوات مواجهة ضخمة نسبياً، أو حتى مطلقاً. لكن يوجد هنا اختلاف يستحق التأمل بين العالمين الأول والثالث (أما العالم الثانى من الأنظمة الشيوعية، فرغم كونه على حافة الانْهيار فقد بقى - ما دام قائماً- فى مأمن من مثل هذه الحركات إلى أن تحطّم بالفعل جُذاذاً من الدول فيما بعد). وبالجملة، ففى أوروبا على الأقل، خلال أولى المرحلتين اللتين أشرنا إليهما هنا، لم يُجابَهِ العنف السياسى

إن انتشار جهاز التلفاز جعل الأعمال الأكثر تأثيراً فى السياسة ليست بيد صناع القرار بل بيد وسائل الإعلام ذات التأثير الأقوى

كانت هذه «الحروب القذرة» المشينة موجهةً بالأساس ضد جماعات من هذا النوع، وكثيراً ما كانت تنفذها مجموعات صغيرة من القوات الخاصة رداً على جماعات الأقلية الإرهابية

الجديد إلا بقوة محدودة ومن غير كسر يذكر للحكومات الدستورية، رغم مرور بعض الأوقات التى عمّت فيها الهستيريا وبعض التجاوزات فى استخدام القوة، ولا سيما من قِبَل شرطة الدولة وقواتها المسلحة، الرسمية منها وغير الرسمية. فهل كان ذلك لأن الحركات الأوروبية لم تمثل تَهديداً كبيراً للأنظمة القومية؟ صحيح أنّها لم تمثل، وليست تمثل الآن، رغم أن الحركات الانفصالية القومية فى إيرلندا الشمالية وفى بلاد الباسك اقتربت فى الواقع من تحقيق ما تصبو إليه بالسياسة، بمساعدة الضغط المسلح الذى مثله الجيش الجمهورى الإيرلندى وحركة إيتا. ولعله من الصحيح أيضاً أن الشرطة وأجهزة المخابرات الأوروبية كانت، ولا تزال، من الكفاءة بحيث تمكنت من اختراق صفوف كثير من هذه الحركات، ولا سيما الجيش الجمهورى الإيرلندى، وربما الألوية الحمراء فى إيطاليا. ومع ذلك، فمن المهم أنه رغم استخدام المواجهة الفظة للإرهاب من قبل «جهات رسمية غير معروفة» فى كل من إيرلندا وإسبانيا، فإنه لم يكن ثمة «حروب قذرة» لا بحجم ولا بدرجة ما رأينا فى أميركا اللاتينية من إرهاب وتعذيب ممنهج. فهنا بلغت مواجهة الإرهاب مبلغاً تجاوز مقدار العنف السياسى للمتمردين تجاوزاً بعيداً، حتى عندما امتنع المتمردون عن ارتكاب المجازر، مثل السندريين (the Senderistas) فى بيرو.

لقد كانت هذه «الحروب القذرة» المشينة موجهةً بالأساس ضد جماعات من هذا النوع، وكثيراً ما كانت تنفذها مجموعات صغيرة من القوات الخاصة رداً على جماعات الأقلية الإرهابية. وعليه، فإن هدف الأنظمة التى تقر التعذيب وتمارسه فى أميركا اللاتينية - ما لم يكن نابعاً من سياسة الدولة- لم يكن من أجل ثَنْى الناس عن المشاركة فى أعمال تخريبية، وإنما من أجل انتزاع اعترافات النشطاء على مجموعاتهم. كما لم يكن هدفُ فِرَق الموت ردعَ الناس، وإنما التخلص ممن كانوا يَعُدُّونَهم مذنبين بأسرع طريقة، بعيداً عن دهاليز الإجراءات القضائية التى قد تؤول إلى الحكم بتبرئتهم. أما الإرهاب ضد مجموع الشعوب التى تعد معارضة لنظام الحكم فهو فى العادة لا يقل وحشية، كما فى نظام الفصل العنصرى فى جنوب أفريقيا وفلسطين، ولكنه أشد مضاضة وأوشك وقوعاً. فعدد من قتلوا فى فلسطين قبل الانتفاضة الثانية كان بالتأكيد أقل من

عدد من «اختفَوا» فى تشيلى فى عهد بينوشيه. ولا ينكر أحد أن البربرة تقدمت كثيراً وصولاً إلى القمع الذى لا يخلف إلا قتيلاً أو قتيلين فى اليوم لتعتبر تحت مستوى المذابح التى يصل خبرها تلقائياً إلى العناوين الرئيسية فى الصحافة. ومع ذلك، فإن السلطات فى بلدان مثل كولومبيا وبيرو واجهت الحركات المقاتلة فى الأرياف بعنف غير عادى.

إن عولمة «الحرب على الإرهاب» منذ سبتمبر ٢٠٠١، وإحياء سنة التدخلات العسكرية الأجنبية من قبل قوة كبرى انتقدَت رسمياً ما كان إلى ذلك الوقت مقبولاً من قوانين واتفاقيات النزاعات الدولية فى ٢٠٠٢ فاقمت الأوضاع ومضت بها نحو الأسوأ، فى حين كان ما تمثله شبكات الإرهاب الدولية الجديدة على أنظمة الدول المستقرة فى العالم المتقدم، وكذلك فى آسيا، من خطر لا يكاد يذكر. إن استهداف بضعة أهداف أو وقوع بضع مئات من الضحايا فى التفجيرات التى تعرضت لها وسائل المواصلات فى مدينة لندن أو مدريد لا يعطل سير القدرة الأدائية لمدينة كبرى أكثر من بضع ساعات فى أسوأ الأحوال. ورغم أن المذبحة التى وقعت فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى نيويورك كانت مروعة، فإنها لم تؤثر قط على قوة الولايات المتحدة الخارجية ولا على بُناها الداخلية. ولو ساءت الأمور وتفاقمت الأوضاع، فليس ذلك بسبب أعمال الإرهابيين، وإنما بفعل حكومة الولايات المتحدة. فالهند، التى تمثل أكبر دولة ديمقراطية فى العالم، مثال جيد على قدرة الدولة المستقرة على المقاومة، فرغم أنّها فقدت خلال السنوات العشرين الماضية اثنين من قادتها اغتيالاً، وأنها تعيش وضع حرب محدودة فى كشمير، وأن فيها أنواعاً شتى من الحركات المقاتلة فى مناطقها الشمالية، وانتفاضة ماركسية لينينية فى بعض المناطق القبلية، فإنه لا أحد يستطيع أن ينفى أنّها دولة مستقرة تتمتع بنظام أدائى متكامل.

ومن هنا نتبين الضعف النسبى والمطلق للمرحلة الراهنة للحركات الإرهابية، فهى أعراض وليست عوامل تاريخية ذات شأن. وهذا لا تغيره حقيقة أنه بفضل التغييرات فى التسلح والتكتيكات فإن ما يمكن أن ينال الفرد مما تستطيع المجموعات الصغيرة وحتى الأفراد إيقاعه من الأضرار أكثر بكثير من ذى قبل، أو الأهداف الطوباوية التى يحملها أو التى تنتسب لبعض المجموعات الإرهابية. فالتحرك والعمل داخل الدول المستقرة التى فيها أنظمة مستقرة، وبدون دعم القطاعات المادية من

رغـــــم أن المذبحة التى وقعت فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى نيويورك كانت مروعة، فإنها لم تؤثر قط على قوة الولايات المتحدة الخارجية ولا على بُناها الداخلية

إن السياسة الحالية للولايات المتحدة حاولت أن تحيى المخاوف المروعة للحرب الباردة، عندما لم يعد لها أى معنى، عبر خلق «أعداء» يسوغون توسيع دائرة استخدام قوتها العالمية

الشعب، يعنى أن المشكلة مشكلة شرطة وليست مشكلة جيش. حتى عندما يكون إرهاب الجماعات الصغيرة جزءاً من حركة أو معارضة عامة، كما فى وضع القاعدة فى المقاومة العراقية، فليسوا الجزء العسكرى الرئيسى أو الفاعل فى الحركة، بل ليسوا إلا إضافات هامشية لها. أما عن النشاط خارج نطاق جمهور متعاطف، مثل الانتحاريين الفلسطينيين فى إسرائيل أو ثلة من المتطرفين الإسلاميين فى لندن، فليس لهم أكثر من القيمة الدعائية. ولا يعنى أىٌ مما ذكرنا أن لا حاجة إلى إجراءات بوليسية دولية كبرى لمجابهة إرهاب المجموعات الصغيرة، ولاسيما من النوع العابر للحدود، على الأقل لأن ثمة خطر إمكانية امتلاك مثل هذه الجماعات فى وقت ما سلاحاً نووياً وقدرة على استخدامه. أما إمكاناتهم السياسية، التى غالباً ما تكون مدمِّرة، فى الدول غير المستقرة أو المتفككة، ولاسيما فى العالم الإسلامى فى غربى الهند، فواضح أنها أكبر بكثير، لكن ينبغى ألا تخلط بالإمكانية السياسية للتعبئة الدينية واسعة النطاق.

إنه من المفهوم أن مثل هذه الحركات تخلق توتراً كبيراً فى أوساط الناس العاديين، وخصوصاً فى المدن الغربية الكبرى، ولاسيما عندما تتحد الحكومة ووسائل الإعلام فى خلق جو من الفزع لخدمة أهدافهم الخاصة عن طريق إعطاء هذه الحركات أكبر مساحة للإعلان عن عملياتها (من الصعب أن نتذكر أن الأسلوب الكامل العقلانية الذى كانت تتبعه الحكومات التى كانت تواجه حركات مثل إيتا والألوية الحمراء والجيش الجمهورى الإيرلندى، كان يتمثل قبل سنة ٢٠٠١ فى «حرمانهم من تنشق هواء الإعلام» ما أمكن). إنه جو من الفزع غير العقلانى. إن السياسة الحالية للولايات المتحدة حاولت أن تحيى المخاوف المروعة للحرب الباردة، عندما لم يعد لها أى معنى، عبر خلق «أعداء» يسوغون توسيع دائرة استخدام قوتها العالمية. وأنا أكرر، إن مخاطر «الحرب على الإرهاب» لا تأتى من قِبَل الانتحاريين المسلمين.

ولا يقلل أىٌ مما مرّ من حجم الأزمة العالمية الحقيقية التى من تعبيراتها تحولات العنف السياسى، فيبدو أنها تعكس التقلبات الاجتماعية الكبرى التى جاء بها على كافة المستويات أسرع تحول مفاجئ فى الحياة البشرية شهده الناس خلال عمر إنسانى واحد. كما يبدو أنها تعكس أزمة فى الأنظمة التقليدية للسلطة والهيمنة والشرعية فى الغرب وانهيارها فى الشرق والجنوب، وكذلك أزمة فى الحركات التقليدية التى ادعت أنها تشكل بديلاً عن هذه. وقد فاقمتها إخفاقات تفكيك المستعمرات فى أنحاء من العالم ونهاية الأنظمة الدولية المستقرة، أو فى الحقيقة أى نظام دولى منذ انهيار الاتحاد السوفيتى. وهى سوف تثبت أنها وراء مبلغ قوة الطوباويين من المحافظين الجدد والليبراليين الجدد فى عالم من القيم الليبرالية الغربية التى نشرها تضخم السوق والتدخلات العسكرية. ■

هـــــوامـــــش:

(١) اتبعت الرواية المذكورة فى البرج غير الواضح The looming tower، للورنس رايت (لندن ٢٠٠٦)، صفحات ١٢٣ إلى ١٢٥. و١٧٤ إلى ١٧٥.

2- Tiempos de Ira y Amor: Nuevos actores para viejos problemas، لكارلوس إيفان دى غريغورى وآخرون (ليما ١٩٩٠) هو كتاب ممتاز ولاسيما فى ظاهرة «المسار المشرق (Sendero Luminoso).

) الرجل الميت فى الغرفة المحصنة تحت الأرض The dead man in the bunker، لمارتن بولاك (لندن ٢٠٠٦) حول حياة ومستقبل ضابط بارز من الفرقة الواقية (التى كانت تحمى هتلر فى النازية).

(٤) Los Hechos Armados، لجوان كارلوس مارين: الأرجنتين من ١٩٧٣ إلى ١٩٧٦ (بوينس أيرس، ١٩٩٦)، ص ١٠٦، جدول.8

(٥) تتبعت جدل دياغو غامبيتا، استناداً إلى المادة التى أوردها غامبيتا (طبعة)، فى فهم المهمات الانتحارية Making sense of Suicide Missions (أكسفورد، ٢٠٠٥).

(٦) غامبيتا، نفس المصنف المذكور، ص ٢٦٠.

(٧) غامبيتا، نفس المصنف المذكور، ص ٢٧٠.

(٨) رايت، نفس المصنف المذكور، ص ٣٠١.

(٩) غامبيتا، نفس المصنف المذكور، صفحات ٣٢٧ إلى ٣٢٨.

(❖) يتكون المجتمع الهندوسي من أربع طبقات رئيسية، كما استحدثت طبقة خامسة سببت الإزعاج للحكومة الهندية، فقامت بإلغائها رسمياً في عام١٩٥٠ . وحسب التقسيم الطبقي الهندوسي فهذه الطبقات هي: الطبقة البيضاء، أو طبقة «البراهميين» التي ينتمي إليها القساوسة وعلماء الديانة الهندوسية، وطبقة «الكاشتري»، أو ما يعرف بالطبقة الحمراء وتشمل الحكام والجنود، والطبقة الصفراء «الفيزية» وتشمل المزارعين والتجار، وطبقة «السودرا»، أو الطبقة السوداء وتشمل أهل الحرف اليدوية. أمّا بالنسبة للطبقة الخامسة، أو ما يعرف بطبقة «الشودرا» أو «المنبوذين»، فتشمل أهل الحرف المتدنية من وجهة نظر الهندوسية، وتتكون هذه الحرف من حفّاري القبور وعمال نظافة دورات المياه وما إلى ذلك.

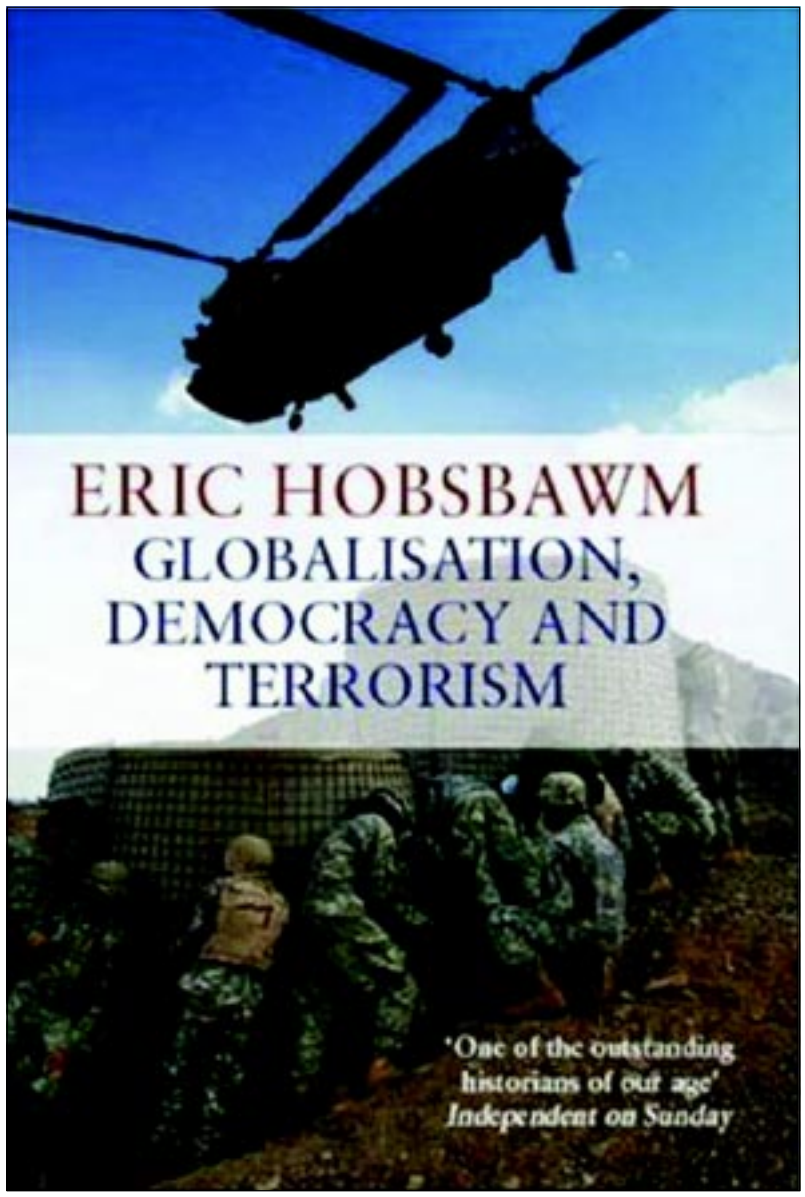

العولمة والديمقراطية والإرهاب

مقالات هوبزباوم

أكرم حمدان ونزهت طيب

■■ لم يشهد تاريخ الإنسانية كالقرن العشرين غرابة، بما حل فيه من كوارث، وجدٍّ من اختراعات، ووقع من قدرة لدى البشر على تغيير وجه هذا الكوكب أو ربما إفساده، بل النفاذ من أقطار السماوات والأرض.

والكتاب الذى نقدمه اليوم للقارئ العربى يضم بين دفتيه عدداً من المقالات الممتعة لمؤرخ يعد من أشهر المؤرخين البريطانيين، إن لم يكن أشهرهم على الإطلاق، لا تُمَكِّنُ المرءَ من رؤية ملامح ذلك القرن فحسب، بل تمضى به إلى تلّة مشرفة يستطيع من عليها أن يلقى نظرة يستشرف بها آفاق المقبل من الأيام، مما تمخض عنه ذلك القرن العجيب.

ولعل ما سيلفت نظر القارئ أن المؤرخ فى مقالاته هذه، تجاوز كعادته الوصفَ إلى التحليل، والسرد إلى التمحيص، والتعامل مع الأحداث منفصلة إلى تلمس أوجه الترابط بينها، ومصاقبة الأشباه منها والنظائر، وبيان أثر كل منها فى غيره، تسعفه فى ذلك أدوات البحث الحديثة، وتدعم تحليلاته الإحصائيات والأرقام، فهو لم يقصر وظيفته على تذكر ما نسيه الآخرون أو تناسوه، أو رسم لوحة تاريخية لأحداث قرن خلا من الزمان، اتسم فى جوانب كثيرة منه بالغلو والإفراط، مهما كانت تلك اللوحة مثيرة ومتنوعة ولافتة، ولكنه اختار لنفسه أن ينظر إلى الأحداث من مكان بعيد، أبعد ما يكون عن الحاضر، ليرى الأمور فى سياقها الأرحب ومداها الأطول، ويقدم صورة تفاعلية متكاملة، تزاوج بين الماضى والحاضر والمستقبل، تستبطن ما يخبئه قابل الأيام بما أسفر عنه غابرها، وتكشف ماضيها بعين حاضرها، فى مزج بين مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

فقد حاول المؤرخ فى هذه المقالات استقراء وضع العالم فى مطلع الألفية الثالثة، وسبر بعض ما نواجهه اليوم من مشاكل سياسية رئيسية، وقد سبق أن نشر منها من قبل عدداً، وبخاصة فى كتابه الموسوم بـ«مختصر فى تاريخ القرن العشرين» و«عصر التطرف» و«حديث فى القرن الجديد مع أنطونيو بوليتو»، و«الأمم والقوميات».

وآثر المؤلف أن يركز فى مجموع مقالاته هذه، ولاسيما ذات الطابع السياسى منها، على خمسة مجالات تتطلب اليوم تفكيراً واضحاً ونظراً واعياً، هى مسألة الحرب والسلم فى القرن الحادى والعشرين، وماضى إمبراطوريات العالم ومستقبلها، وطبيعة القومية وسياقها المتقلب، وآفاق الديمقراطية الليبرالية، ومسألة العنف السياسى والإرهاب. فكل هذه أمور تجرى على مسرح عالم يطغى عليه مستجدان مترابطان على نحو ما يجلى ذلك هوبزباوم، أولهما التسارع الضخم والمتواصل لقدرة الإنسان على تغيير وجه المعمورة بوسائل التقنية والنشاط الاقتصادى، والآخر العولمة وما جلبته معها من تداعيات على مصير العالم وسائر الشعوب.

ويرى المؤلف محقاً أن أول هذين الأمرين لم يترك تأثيراً ملموسا حتى الساعة على وعى واتجاهات تفكير صناع القرار السياسى، فالوصول بالنمو الاقتصادى إلى أقصى ذروته لم ينفك يمثل أسمى أهداف الحكومات الراهنة، وليس ثمة من أفق حقيقى لأى خطوات فعلية فى مواجهة أزمة الاحتباس الحرارى الذى يتهدد العالم. ومن جهة أخرى، فمنذ الستينيات غدا للتقدم المتسارع للعولمة، أى تحول العالم إلى وحدة واحدة تشملها نشاطات متداخلة لا تعوقها الحدود المحلية، تأثير سياسى وثقافى كبير، ولاسيما فى شكلها الحالى الطاغى وهو السوق الحرة العالمية المستعصية على السيطرة.

على أن الوجه السياسى للعولمة لم يحظ بتركيز خاص فى هذا الكتاب لأسباب عدة، أهمها أن السياسة هى المجال الوحيد من النشاط البشرى الذى تتقلص فيه مؤشرات التأثر بالعولمة. ففى محاولات تعريف العولمة، لم يجد جدول KOF للعولمة (٢٠٠٧) صعوبة فى إيجاد جداول لجريان الاقتصاد والمعلومات والاتصالات الشخصية والانتشار الثقافى - مثلاً عدد مطاعم ماكدونالدز ومحلات آيكيا بالنسبة لكل فرد- لكنه لم يجد مقياسا لـ«العولمة السياسية» أفضل من عدد السفارات فى بلد ما، وعضويته فى المنظمات العالمية، ومشاركته فى مهمات مجلس الأمن الدولى.

مناقشة العولمة السياسية عموماً مسألة لا تقع ضمن حدود هذا الكتاب، غير أن ثمة ملاحظات ثلاث عامة عنها تمس موضوع الكتاب على نحو خاص. أولها، أن عولمة السوق الحرة التى باتت صبغة العصر جاءت بنمو ضخم فى الاقتصاد وجلبت معها فروقا اجتماعية على المستويين المحلى والدولى. وليس ثمة مؤشرات على أن هذا الفصل الطبقى سيتوقف داخل البلدان، رغم تقلص الفقر المدقع بشكل عام. هذا الصعود للفروق الطبقية، ولاسيما فى ظروف عدم استقرار بالغ فى الاقتصاد كتلك التى

تمخضت عنها السوق الحرة العالمية فى التسعينيات، هو الذى يفسر التوترات الاجتماعية والسياسية الكبرى التى يمر بها القرن الجديد.

وقد جمع الكتاب بين دفتيه عشرة فصول، ناقش الكاتب فى أولها مسألة السلم والحرب فى القرن العشرين، قرن الحروب، الذى قسمه المؤلف من الناحية التاريخية إلى مراحل ثلاث، هى مرحلة الحرب العالمية التى تركزت على ألمانيا (١٩١٤ إلى ١٩٤٥)، ومرحلة المواجهة بين القوتين العظميين (١٩٤٥ إلى ١٩٨٩)، ثم مرحلة ما بعد نهاية نظام القوة العالمى التقليدى.

وفى الفصل الثانى تناول قضية الحرب والسلم والهيمنة فى مطلع القرن الحادى والعشرين، وتحدث عما يشهده هذا القرن من التحول التعليمى، نظراً لأن التأثير الاجتماعى والثقافى للتعليم العام لا يمكن فصله بسهولة عن التأثير الاجتماعى والثقافى للثورة المفاجئة التى لا مثيل لها قط فى إعلام الاتصالات العام والشخصى الذى انخرطنا فيه جميعاً على ما يقول المؤرخ البريطانى.

الفصل الثالث هو فصل تاريخى ممتع قدم فيه المؤلف إجابة موسعة عن السؤال التالى: لماذا تختلف الهيمنة الأمريكية عن الإمبراطورية البريطانية؟ وقد وقف هوبزباوم موقفاً وسطاً بين من يؤيدون الإمبراطوريات ويرون أنَّها قدمت الخير والنفع للعالم، وبين من يعادونَها ويسوقون كل ما قيل فى ذمها وتبيان مثالبها.

أما الفصل الرابع فكان معرضاً للحديث عن نهاية الإمبراطوريات، ويناقش فيما يناقشه فى هذا الفصل دعوى أن الإمبراطوريات والاستعمار جلبت الحضارة للشعوب المتخلفة وأبدلتها بالممالك نظاماً، ويرى أن هذه الدعوى مشكوك فى صحتها، إن لم تكن زائفة بالكلية. فمن القرن الثالث حتى القرن السابع عشر، كانت أغلب الإمبراطوريات خاضعة للغزو العسكرى من قِبَل قبائل محاربة من الأطراف الخارجية للحضارات الآسيوية والبحر متوسطية لم تأت إلى البلاد التى غزتْها، والتى غالباً ما كانت أكثر منها رقياً، بأكثرَ من سُيوفها، أو، إذا هى أرادت البقاء طويلاً، فبرغبة فى استخدام البنى التحتية والخبرات الموجودة لدى من قامت هى بهزيمتهم. العربُ وحدَهم الذين حملوا معهم لغتَهم المكتوبةَ ودينَهمُ الجديد، هم الذين جاءوا بشىء جديد. أما الأوروبيون الذين استعمروا الأمريكتين وإفريقية والهادئ فقد كانوا

وقف هوبزباوم موقفًا وسطًا بين من يؤيدون الإمبراطوريات ويرون أنَّها قدمت الخير والنفع للعالم، وبين من يعادونَها ويسوقون كل ما قيل فى ذمها وتبيان مثالبها

إن الوثيقة الحاسمة لهوية القرن العشرين ليست هى شهادة ميلاد الدولة القومية، ولكن وثيقة الهوية الدولية، أى جواز السفر

فى الواقع متفوقين تقنيًا على المجتمعات المحلية، رغم أنه حتى القرن التاسع عشر لم يكونوا متفوقين على الإسلامية منها والآسيوية على ما يذكر هوبزباوم.

ثم ينتقل الفصل الخامس للحديث عن الأمم والقومية فى القرن الجديد، ويحلل العناصر المؤثرة فيها، وأهمها بدء حقبةٍ من الاضطراب الدولى منذ سنة ١٩٨٩، ويتعرض لنتائج نهاية الحرب الباردة والاتحاد السوفيتى، وهما القوتان اللتان كانت لهما أهمية كبرى فى حفظ الاستقرار السياسى. أما العنصر الثانى الذى يتناوله المؤلف هنا، على أنه عنصر مؤثر فى مشكلة الأمم والقومية، فهو التسارع المذهل لعملية العولمة فى العقود الأخيرة، وما لذلك من آثار على حركة البشر وقدرتهم على التنقل. وفيه يطرح قضية عولمة الهجرة الدولية الجماعية، والتى غالباً ما تكون من الأماكن ذات الاقتصاد الضعيف إلى الأماكن ذات الاقتصاد القوى، إذ إن حجمها واضح على نحو خاص فى حالة دول مثل الولايات المتحدة وكندا وأستراليا، وهى دول لم تفرض قيوداً ذات بال على الهجرة. ويرى أنه لئن لم يحن الوقت بعد للحكم على تأثير هذه القدرة على التنقل بين الحدود، وفق المفاهيم القديمة للأمم والقومية، فإنه ما من شك سيكون لها تأثير ضخم. ويقرر هنا ملاحظة بيندكت أندرسون Benedict Anderson، أن الوثيقة الحاسمة لهوية القرن العشرين ليست هى شهادة ميلاد الدولة القومية، ولكن وثيقة الهوية الدولية، أى جواز السفر.

أما العنصر الثالث الذى يراه هوبزباوم مؤثراً فى الأمم والقومية فهو رُهاب الأجانب، ذلك أنه ينطوى على قوة تأثيرية كبيرة، ويعكس الجوائح الاجتماعية والتفكك الأخلاقى الذى شهدته أواخر القرن العشرين وبداية القرن الحادى والعشرين. ويرى أن هذه التركيبة تنطوى على طاقة تدميرية، ولاسيما فى الأقطار والمناطق الموحدة عرقياً وطائفياً وثقافياً والتى لم تعتد على تدفق كبير من الأجانب. ثم يختم بسؤال لم يجب عليه: ما الذى سيحل محل القومية، إن كان ثمة شىء، نموذجاً عامًا للحكومة الشعبية فى القرن الحادى والعشرين؟

ينطلق المؤلف من هذا الفصل إلى البحث فى آفاق الديمقراطية، فهو وإن كان لا يسلم بالتعريف الشائع للديمقراطية، ويرى أن المؤرخين والمشتغلين بالعلوم السياسية لا يرون أن هذا هو المعنى الأصلى للديمقراطية، وأنه قطعاً ليس الوحيد، إلا أنه يرى أن الديمقراطية الليبرالية هى ما نواجهه اليوم بصورة ملموسة، وأن آفاقها تستحق أن يفرد لها هذا الفصل. ثم يدلف فى الفصل السابع إلى البحث فى مسألة نشر الديمقراطية، التى يرى أنها لن تنجح، لأنها تهدد وحدة القيم العالمية. فالقرن العشرون أظهر أن الدول لا تستطيع ببساطة صبغ العالم أو اختصار التحولات التاريخية، وبيّن أن ليس بوسعها التأثير فى التغيير الاجتماعى بترحيل المؤسسات عبر الحدود. كما رأى هوبزباوم أن الجهود الرامية لنشر الديمقراطية أيضًا خطيرة من نواح أخرى غير مباشرة: من ذلك أنها تحمل لأولئك الذين لا يتمتعون بهذا النوع من الحكومة الفكرة الزائفة والتى مفادها أن الديمقراطية تسود فعلاً من يعيشون فى ظلها. وتساءل هنا: لكن هل هذا صحيح؟ واتخذ من قرارات الحرب على العراق فى دولتين من الدول التى تؤمن إيمانًا قويًا بالديمقراطية، وهما الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، نموذجًا لرد ذلك الاعتقاد الخاطئ عن الديمقراطية، لأن الديمقراطية الانتخابية والهيئات التمثيلية لم يكن لها فى تلك العملية إلا خلق المشاكل المعقدة المتسمة بالغش وتغطية الحقائق، كما يقول. لقد تم اتخاذ القرارات من قبل مجموعات صغيرة من الناس فى الخفاء، على نحو لا يختلف كثيراً عن اتخاذها فى البلاد غير الديمقراطية، فالديمقراطية الانتخابية، فى نظره، ليست هى بالضرورة التى تضمن الحرية الفعالة للإعلام وحقوق المواطنين والقضاء المستقل.

الآن ينتقل الكاتب للحديث عن مشكلة العصر: الإرهاب، مستفتحاً مقالته بتساؤل عما إذا كانت طبيعة الإرهاب السياسى فى أواخر القرن العشرين قد تغيرت. وهنا يبدأ بظاهرة التزايد غير المتوقع للعنف فى جزيرة كانت إلى وقت قريب آمنة مطمئنة، وهى سريلانكا، التى كانت قبل السبعينيات، قياساً بالمعايير الآسيوية، جزيرة نادرة من حيث التمدن مثل كوستاريكا وأوروغواى (قبل السبعينيات) فى أمريكا اللاتينية، ولكنها باتت اليوم تغرق فى بحر من الدماء. ويرى المؤلف أن سريلانكا إن هى إلا مثال واحد على ما عرفه العنف

السياسى فى أواخر القرن العشرين من تزايد وتحولات. لكنه يرى فى تزايد ظاهرة القتل العشوائى بوصفه صورةً من صور إرهاب الجماعات الصغيرة وما لاقت من تسويغ نظرى مثالاً آخر.

ويرى أن المقالة لا تتسع لتفسير هذه الظواهر، ولكنه يقرر ألا علاقة بين العنف الاجتماعى العام والعنف السياسى، لأن بعض أسوأ العنف السياسى يمكن أن يقع فى بلدان لم تعرف قطُّ أيًا من النوعين، لا العنف السياسى ولا العنف الاجتماعى، كسريلانكا أو أوروغواى. ويرى أن الخطاب الليبرالى أخفق على الدوام فى إدراك أن مجتمعًا لا يمكن أن يقومَ من دون قدر من العنف السياسى، حتى فى الشكل شبه الرمزى للمحتجين أو المظاهرات الحاشدة، وأن ذلك العنف له مراحل وقواعد، كما يعرف كلّ عضو فى المجتمعات التى يشكل فيها جزءًا من نسيج العلاقات الاجتماعية، وكما يحاول الصليب الأحمر الدولى دائبًا أن يذكر برابرة القرن العشرين من المحاربين. ويتناول فى هذا الفصل نماذج الإرهاب التى عرفها القرن العشرون، ويركز منها على نموذج «الانتحارى» الذى أرجعه أصلاً إلى عهد الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩، إذ حمل عقيدتَها القوية التى تمثلت فى المذهب الشيعى، وربطها بمفهوم الشهادة، فقد تم توظيف هذا النموذج بادئ الأمر سنة ١٩٨٣ توظيفًا فعالاً ضد الأمريكيين من قبل حزب الله فى لبنان. كما غدت فاعليته واضحة بانتشاره عبر الأصقاع، وصولاً إلى نمور التاميل سنة ١٩٨٧، ثم إلى حماس فى فلسطين سنة ١٩٩٣، ثم بتبنى القاعدة وغيرها من «المتشددين» الإسلاميين فى كشمير والشيشان له بين سنى ١٩٩٨ و٢٠٠٠ كما يلاحظ الكاتب.

الفصل التاسع يناقش قضية هامة، هى قضية النظام العام فى عصر العنف، ويرى أن حفظ النظام العام فى هذا العصر بات أكثر صعوبة باعتراف الحكومات. ويرد ذلك إلى ارتخاء قبضة الدولة القومية، وانتشار الأسلحة الخفيفة، وما شهدته المجتمعات من تحولات اجتماعية قربتها من مشاهد العنف والجريمة. ويختم بأن الإرهاب يتطلب مجهودات خاصة، لكن من المهم ألا نبخع أنفسنا من أجله. فنظريًا، إن بلداً لم يفقد أعصابه خلال ثلاثين سنة من المشاكل الأيرلندية عليه ألا يفقدها الآن. أما عمليًا، فإن الخطر الحقيقى للإرهاب لا يكمن فيما تمثله ثُلَل مجهولة الهوية من المتطرفين من خطر، ولكن فيما تثيره أعمالهم من خوف غير معقول، تشجعه اليوم وسائل الإعلام والحكومات على السواء. هذا واحد من الأخطار الكبرى التى نعيشها فى هذا الزمان، هو بلا ريب أكبر من المجموعات الإرهابية الصغيرة نفسها.

أما الفصل العاشر والأخير فيخصصه هوبزباوم للحديث عن الإمبراطورية الأمريكية التى يرى أنها لا تنفك آخذة فى التوسع، وأنها تختلف عن سابقتها البريطانية من نواح عدة، أولها أن الولايات المتحدة بلد هائل يقطنه أحد أكبر الشعوب فى العالم، ولا يزال عدد سكانه فى ازدياد مطرد، خلافًا للاتحاد الأوروبى، نظرًا لما تتدفق عليه من هجرة تكاد تكون غير محدودة. ويرى أن هناك فروقًا فى الأسلوب أيضًا، فالإمبراطورية البريطانية فى أوج عظمتها احتلت ربع وجه المعمورة وقامت بإدارته. أما الولايات المتحدة فلم تمارس الاستعمار إلا فترة وجيزة خلال الموضة الدولية للاستعمار الإمبريالى فى نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

لقد عملت الولايات المتحدة عوضًا عن ذلك مع الدول التابعة لها والتى تدور فى فلكها، ولاسيما فى الفضاء الغربى حيث لم يكن لها منافسون. وخلافًا لبريطانيا، فقد ابتدعت أمريكا سياسة للتدخل المسلح فى هذه الدول خلال القرن العشرين. يفسر الكاتب بعد ذلك السياسة التى تسلكها واشنطن، ويرى أنها تبدو لجميع المراقبين من الخارج من الجنون بحيث يصعب فهم المقصود بها. لكن من الواضح أن ما فى عقول النخبة التى تتحكم الآن فى صنع القرار، أو على الأقل بيدها نصف صنع القرار فى واشنطن هو جعل الشعب يؤمن بفكرة التفوق العالمى عبر القوة العسكرية. وهدفها من وراء ذلك لا يزال يكتنفه الغموض.

يختم الكاتب هنا بالسؤال: هل سيكتب لهذه القوة «الجديدة» النجاح؟ لكن يبدو أن العالم من جهة نظر المؤرخ البريطانى من التعقيد اليوم بحيث لا يتأتى لأية دولة مفردة فرض سيطرتها عليه. ويرى أنه إذا ما استثنينا ما تملكه الولايات المتحدة من تفوق عسكرى فى الآلة الحربية عالية التقنية، فإنّ ما تعتمد عليه من أصول آخذ فى التآكل، أو مآله إلى التآكل والاضمحلال. فاقتصادها رغم حجمه الكبير، يشكل نصيبًا آخذا فى التقلص من الاقتصاد العالمى. كما أنها باتت مكشوفة على المدى القصير وعلى المدى الطويل معًا. ■

كتاب الزاوية

قصيدة اعتذار لأبى تمام
نزار قبانى

(٣)

إِذَا كُنَّا تَلاَقَينَا
لِكَىْ نَتَبَادَلَ الأَنْخَابَ ، أو نَسْكَرْ ..
وَنَستَلقِى عَلَى تَختٍ مِنَ الرَّيحانِ وَالْعَنبَرْ
إِذَا كُنَّا نَظنُّ الشِّعرَ رَاقِصَةً .. مَعَ الأفرَاحِ تُستَأجَرْ
وَنَتلُوهُ كَمَا نَتلُو كَلاَمَ الزِّيرِ أَوْ عَنْتَرْ
إِذَا كَانَتْ هُمُومُ الشِّعرِ يَا سَادَة
هِىَ التَّرفِيهُ عَنْ مَعشُوقَةِ الْقَيصَرْ
وَرِشْوَةُ كُلِّ مَنْ فِى القَصرِ مِنْ حَرَسٍ .. وَمِنْ عَسكَرْ ..
إِذَا كُنَّا سَنَسرِقُ خُطْبَةَ الْحَجَّاجِ : والحجاجَ .. وَالمِنبَرْ..
وَنَذبَحُ بَعضَنَا بَعضاً لِنَعرِفَ مَنْ بِنَا أَشعَرْ ..
فَأَكْبَرُ شَاعِرٍ فِينَا هُوَ الْخَنجَرْ..

ديفيد غولدبرغ ثيو ـ سارى مقدسى
David Theo Goldberg and Saree Makdisi

هـــــل تجـــــرؤ.. ألا

■■ يظل الصراع الإسرائيلى- الفلسطينى أحد أبرز القضايا السياسية المطروحة فى الجامعات فى مختلف أنحاء الولايات المتحدة الأميركية. فهناك مخاوف متزايدة إزاء الاحتلال الإسرائيلى المستمر للأراضى الفلسطينية (منذ يونيو/حزيران ١٩٦٧، ودخل الآن عقده الخامس)، فضلاً عن الموقف الحرج الذى تواجهه الأقلية الفلسطينية المحاصرة فى إسرائيل. تم التصدى لهذه المخاوف بمحاولات صارخة تصل إلى حد المحاولات الغاضبة لإسكات أو إخماد النقد الموجه إلى السياسة الإسرائيلية فى الجامعات الأميركية.

زاد التوتر بصفة خاصة فى أعقاب قيام إسرائيل فى يناير/كانون الثانى ٢٠٠٩ بإعادة غزو قطاع غزة، وما ترتب على هذا من تعبئة الاحتجاجات، والحملة المتصاعدة المنادية بالمقاطعة، وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات. وبينما استمر تيار الرأى العام بالولايات المتحدة وحول العالم فى التحول ضد سياسات إسرائيل المتعلقة بالاحتلال والقمع، كانت الردود على الانتقادات الموجهة للسياسة الإسرائيلية فى الحرم الجامعى الأميركى تزداد بشاعة. وتلعب منظمات من خارج الحرم الجامعى ـ وكثير منها مرتبطة باللوبى الإسرائيلى فى واشنطن- دوراً متنامياً فى الجدل الدائر داخل الحرم الجامعى. نتيجة لذلك، أصبحت أنشطة الحرم الجامعى مرتبطة مباشرة بالسياسة القومية، وأصبحت أكثر إثارة للجدل، وأكثر مرارة بما لا يُقاس. ومن المرجح أن يستمر هذا الموقف فى التفاقم حيث تشهد صورة إسرائيل تدهورا مستمرا، ويتزايد قلق المدافعين عنها ولجوؤهم لاتخاذ تدابير يائسة، لم يسبق لها مثيل لتغيير مجريات الأمور.

من الحقائق المذهلة أن ما لا يقل عن ثلاث وثلاثين منظمة (صهيونية) أميركية مختلفة، بما فى ذلك المنظمة المسماة «لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية» والمُسمّاة اختصاراً (إيباك)، والمؤتمر اليهودى الأمريكى، والصندوق القومى اليهودى، تجتمع اليوم سويًا كأعضاء أو منظمات تابعة لتحالف إسرائيل فى الحرم الجامعى. يشكّل التحالف كيانًا له قوة ساحقة فى حرم الجامعات الأميركية؛ وببساطة، لا يوجد ما يكافئه فى الجانب الفلسطينى أو العربى.

المهمة التى أعلنها التحالف لنفسه ليست مجرد رصد الكليات والجامعات (الأمريكية). فهذه هى مهمة برنامج رصد الحرم الجامعى، الذى أطلقه الناشطون

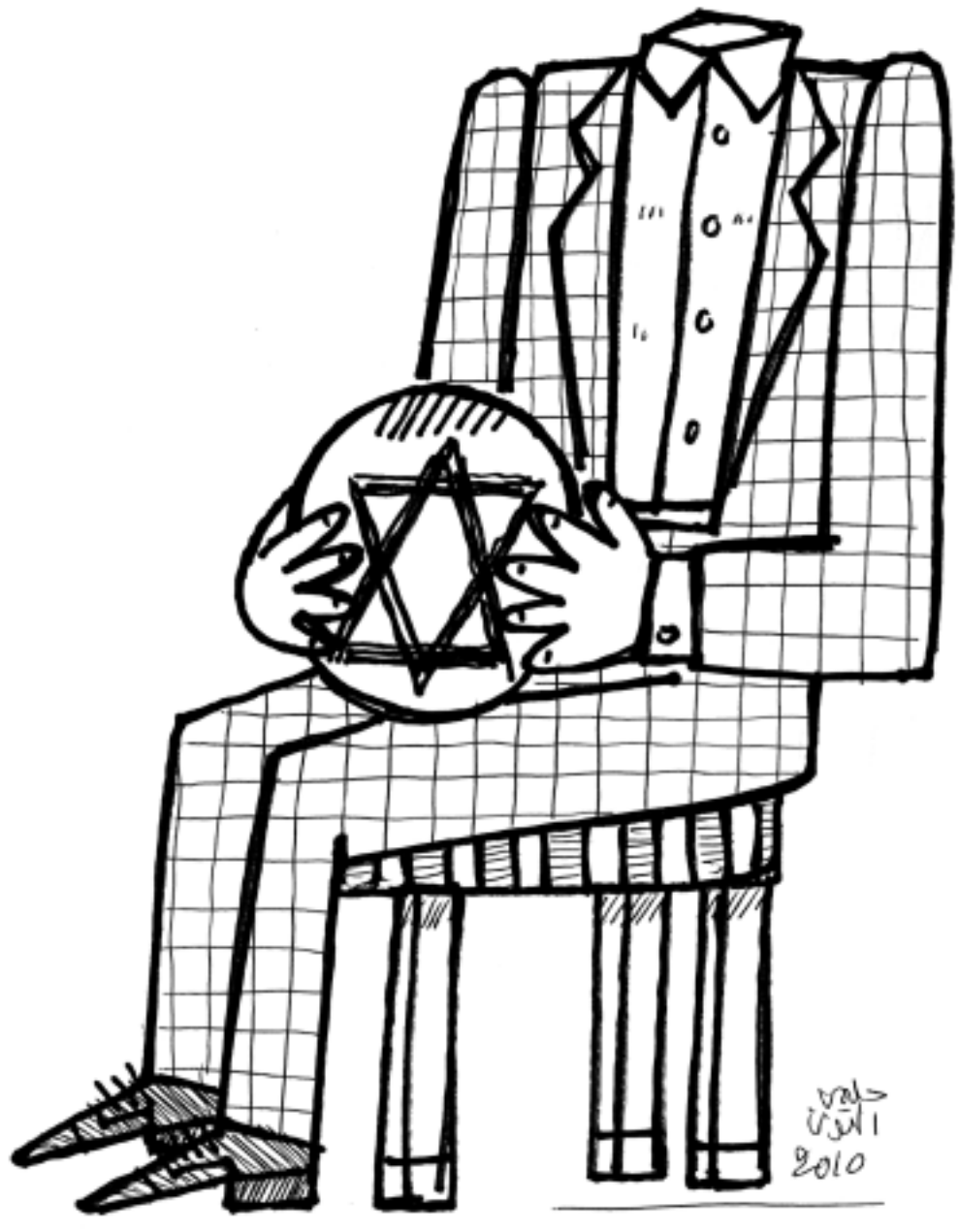

بترتيب خاص مع:
Tikkun

ترجمة: مازن النجار

تكـــــون إســـرائيليا!!

الموالون لإسرائيل فى عام ٢٠٠٢. بل إن مهمتهم، بالأحرى وبتعبيرهم، هى إنشاء «جدول أعمال مترقب، ومؤيد لإسرائيل فى الحرم الجامعى».

هناك، بالتالى، تدخل غير متناسب وغير متوازن فى الجامعات بجميع أنحاء البلاد على يد تحالف يتشكّل من منظمات تحظى بتمويل جيد، ليس لديها الوقت ولا حتى الاهتمام، بجماليات التبادل الفكرى والعملية الأكاديمية.

أصبح الغمز واللمز والاتهام والتشهير هى الأسلحة التى يلجأون إليها أولاً للرد على المناقشات والانتقادات التى توجه إلى السياسات الإسرائيلية. ومن وجهة نظر جماعات الضغط الخارجى هذه، (وممثليهم فى الحرم الجامعى)، فإن الثمن الفكرى والأكاديمى الذى يدفعه المجتمع الدراسى نتيجة لهذا النوع من التدخل يتجاوز قليلاً مجرد كونه أضراراً جانبية.

زاد قلقنا بشأن السبل التى يتم بها مواجهة الأكاديميين المعارضين للسياسة الإسرائيلية من تشويه يتسم بالعجرفة والخبث، غالباً من خلال شن هجمات على شخصياتهم، وسمعتهم، وحياتهم المهنية. كما أننا قلقون أيضاً بشأن الطرق التى تتعرض بها البرامج الأكاديمية -خاصة برامج دراسات الشرق الأوسط فى الجامعات الكبرى- للهجوم من معاقل التطرف غير المسؤول والنشاط المضاد للقيم الأميركية.

ويزداد قلقنا هذا بصفة خاصة فى ضوء الضغوط الخارجية التى تُمارس على الإدارات الجامعية، ويبدو أن بعضها قد يسفر عن الابتزاز، رغم محاولة تحقيق «التوازن» بين المناداة بالمسئولية الأكاديمية والالتزام تجاه الحرية الأكاديمية.

ويبدو أن بعض كبار الموظفين الإداريين فى الجامعات على استعداد لقبول مغالطات وافتراءات الأنصار المتحمسين لإسرائيل باعتبارها حقائق لا تقبل الجدل، ويفعلون ذلك بناء على مجرد توكيدات متشددة لأولئك الذين تصدر عنهم هذه المزاعم. يحدث هذا الموقف الغريب باسم «التوازن»، وهى فكرة لدينا الكثير مما سنقوله عنها لاحقاً.

بطبيعة الحال، هذه التطورات ليست جديدة تماماً، بوصفها تهديداً خطيراً كما يشهد بها عدد من المهن الأكاديمية والبرامج المؤسسية فى السنوات الأخيرة، خاصة فى دراسات الشرق الأوسط. فالأكاديميون الذين تعد أعمالهم نقداً للسياسات الإسرائيلية، كانوا يحرمون من فرص العمل، والتثبيت والترقيات (أو واجهوا تهديدا لفرصهم فى التثبيت والترقيات)، وبصفة عامة كانت حياتهم معرضة للصعوبات. لم يكن هذا بسبب المعايير الأكاديمية، وإنما بسبب التدخل السياسى من قوى خارج النطاق الأكاديمى. تسبب التدخل السياسى الخارجى من جانب أولئك الذين يدافعون عن الدعم الثابت لإسرائيل فى الزج بالبرامج الأكاديمية أو الجامعات الأمريكية واحدة تلو الأخرى فى أزمات. جامعة كاليفورنيا أحدث حلقة فى سلسلة هذه الجامعات، بعد ما حدث بجامعة كولومبيا، وكلية برنرد، وجامعة ييل، وجامعة وين بمشيغن، وجامعة ديبول.

ضجة مفتعلة بجامعة كاليفورنيا لوس أنجيليس (UCLA)

على مدى عدة أسابيع من ربيع ٢٠٠٩، واجهت جامعة كاليفورنيا بلوس أنجيليس ضغوطا كبيرة، على مركز دراسات الشرق الأدنى بها بشكل خاص. فى حين وصلت الأزمة إلى ذروتها، تنبأ ستانلى كيرتز، فى مقالة نشرتها ناشيونال ريفيو أونلاين أن يكون مركز الدراسات بجامعة كاليفورنيا فى الطريق إلى اعتباره اليوم بعبع (شيطان) المجتمع الأكاديمى، تماماً كما كان برنامج دراسات الشرق الأوسط فى جامعة كولومبيا بالنسبة لأنصار إسرائيل المتشددين منذ بضع سنوات. وكيرتز هو ثالث ثلاثة من غير الأكاديميين (مارتن كريمر ودانيال بايبس يحيطان الجماعة، ويمثل ديفيد هورويتز نوعاً من المنتسبين) الذين طالما وبخوا الأكاديميين مراراً وتكراراً لانتقاداتهم السياسة الإسرائيلية.

من الأهمية بمكان أن نلاحظ أن تنبؤات كيرتز كانت تدفعها حسابات مزيفة تماماً لحدث تم تحت رعاية مركز جامعة كاليفورنيا فى وقت سابق من ٢٠٠٩، بالاعتداءات المستمرة على أعضاء هيئة التدريس الذين صرحوا بانتقادهم للسياسة الإسرائيلية، وبتصويرهم بأوصاف مضللة القصد منها -على الأقل- دفع الآخرين إلى إعادة التفكير قبل إصدار تصريحات مماثلة.

فى يناير/كانون الثانى ٢٠٠٩، استضاف مركز دراسات الشرق الأدنى فى جامعة كاليفورنيا (لوس أنجيليس) حلقة نقاش فى الجامعة بعنوان «حقوق الإنسان وقطاع غزة»، تتناول الوضع فى غزة فى سياق حقوق الإنسان والقانون الإنسانى الدولى. حضر أحدنا بصفته أحد الحضور، والآخر تحدث فى حلقة النقاش، جنبا إلى جنب مع الأساتذة ريتشارد فولك، ليزا حجار، جابرييل بتربرغ، وسوزان سُليموفتش (بصفتها رئيسا لحلقة النقاش). كل واحد من المشاركين فى حلقة النقاش نشر الكثير من المقالات حول الموضوع، وطبعا ريتشارد فولك هو المقرر الخاص للأمم المتحدة لحقوق الإنسان فى الأراضى الفلسطينية المحتلة، وبالتالى يعد حجة عالمية فى هذا الشأن.

لم تكن حلقة النقاش سوى واحدة من ثلاثة أحداث حول غزة وقعت فى جامعة كاليفورنيا فى الوقت نفسه تقريبا. الحدثان الآخران، اللذان تما تحت رعاية برنامج الدراسات الإسرائيلية فى جامعة كاليفورنيا، كانا يهدفان بصراحة إلى نقل وجهات النظر الإسرائيلية إلى الحرم الجامعى - بما فى ذلك وجهة نظر القنصل الإسرائيلى فى لوس أنجيليس- ولتبرير قصف غزة. بينما حلقة النقاش التى تمت بعنوان «حقوق الإنسان وقطاع غزة»، على النقيض من ذلك، لم تكن مصممة لتقديم وجهة نظر فلسطينية (والواقع أن ثلاثة من المشاركين الخمسة كانوا يهوداً، وأحدهم إسرائيلى)، وإنما كان الغرض منها هو استعادة نوع من التوازن الفكرى والسياق التاريخى، عن طريق توفير مساحة - فى سياق أكاديمى- يمكن فيها للأكاديميين المخضرمين معالجة المخاوف المتنامية (فى الحرم الجامعى، وعلى نطاق أوسع أيضاً) حول حقوق الإنسان للسكان الذين يتعرضون لهجوم مدمر من الجيش الإسرائيلى. وربما يفسر اهتمام حلقة النقاش بانتهاكات حقوق الإنسان والقانون الإنسانى الدولى، السبب وراء عدم إضافة أى من المؤيدين لتلك الانتهاكات إلى حلقة النقاش (على الرغم من كل شىء، فإن المدافعين عن الانتهاكات القانونية وانتهاكات حقوق الإنسان ليسوا دائما على استعداد للتفاعل والمواجهة).

كانت كلمات المتحدثين الأربعة عادية إلى حد كبير، وقاطعتها صيحات الاستهزاء من قبل الموالين لإسرائيل مرة واحدة فقط ولفترة وجيزة. كانت فترة الأسئلة والمناقشة أكثر سخونة وإثارة للجدل. إلا أنها لم تتسم بعدم التمدن، باستثناء عضو فى حزب العمال الاشتراكى، أصرت على تلاوة كلمتها بصوت عال، ورفضت التوقف حتى عندما طلب منها هذا رئيس حلقة النقاش، وكذلك فعل اثنان من مؤيدى إسرائيل عندما انفعلا فى الكلام. أثار هذا أحد أعضاء حلقة النقاش فأصدر استجابة مفارق أسيئ تأويلها إزاء تعليق - صدر من أحد الحضور- حول الطبيعة الإجرامية لدى كل العرب (والذى قدم اعتذارا عنه عضو حلقة النقاش وليس من قاله من الحضور).

والآن إذا قرأت توصيفات هذا الحدث (حلقة النقاش) التى نشرت فى وسائل إعلامية مختلفة- من الجريدة اليهودية بلوس أنجيليس إلى ناشيونال ريفيو، وصحيفة وول ستريت جورنال، ولوس أنجيليس تايمز- فستكون لك وجهة نظر مختلفة تماماً للأمور. لقد وردت أوصاف متكررة لهذا الحدث بقلم أولئك الذين يعترفون بأنهم لم يحضروا وقائعه، حيث وصفوه بأنها كانت أقرب إلى «مسيرة سياسية فى إحدى الحانات»، وحشد من الغوغاء المعادين للسامية، بل وذهبوا إلى أبعد من ذلك -فى الوقت الذى انضم فيه إليهم ستانلى كيرتز- حيث وجه الاتهام إلى حلقة النقاش، بأنهم على ما يبدو يعملون نيابة عن حماس، وبأنهم قادوا الحشود المسعورة لإصدار هتافات «اللعنة على إسرائيل» و«الصهيونية هى النازية».

حقائق واضحة: ما حدث فعلا بجامعة كاليفورنيا.

كان كلانا حاضراً بجميع فعاليات الحدث بأكمله، استمعنا فى أعقاب هذه الاتهامات السخيفة إلى تسجيلات صوتية «پودكاست» podcasts للمحادثات وهى متاحة للجمهور، وتحققنا مع الحضور الآخرين. ولم يكن هناك ما هو أبعد عن الحقيقة مما نشر فى وسائل الإعلام تلك.

وكان خير دليل على رقى تلك الأمسية واضحا من ظهور أحد رجال شرطة الحرم الجامعى بجانب المنصة، عندما بدأت حرارة المناقشة تزداد قليلاً. كان حضوره فيما يبدو لتهدئة الأجواء، وتبادل الابتسامات والتحيات مع بعض أفراد الجمهور. فى حين كان هناك تصفيق عند عدة وقفات، وضحكات عند وقفات أخرى- مما يختلف كثيراً عن معظم حلقات النقاش الأكاديمية- ولكن لم يكن هناك أبدا فى أى وقت من الأوقات أى هتافات أو إساءات يرددها الجمهور أو أحد المشاركين فى الحلقة تجاه إسرائيل أو تجاه أى دولة أخرى (لم يشهد أى منا، أو أى شخص ممن تحدثنا إليهم مثل هذه المواقف. لم يدعُ أى من المشاركين الجمهور أو يقودهم نحو ترديد هتافات أو تأنيب جماعى ضد إسرائيل.

أصبح الغمز واللمز والاتهام والتشهير هى الأسلحة التى يلجأون إليها أولاً للرد على المناقشات والانتقادات التى توجه إلى السياسات الإسرائيلية

فى الواقع، التعبير الأكثر بعثًا على الضيق فى الأمسية تكرر مراراً وتكراراً عند المنصة الأمامية بعد أن انتهت فعاليات الحدث، من قِبَل إسرائيلية مستفزّة ومعروفة فى جامعة كاليفورنيا (ليست طالبة ولاعضواً فى هيئة التدريس) والتى كانت انخرطت من قبل فى شجار مع حاخام الحرم الجامعى فى جامعة كاليفورنيا (من بين كل الناس)، كانت تسير صعوداً وهبوطاً، وتصدر أصواتا متوعدة لأحد المتحدثين فى حلقة النقاش منادية إياه باسمه الأول، وتصرّ فى لهجة يشوبها الذم على أنه يجب أن يشعر بالخجل من نفسه.

كيف، إذن تمكنت الإشاعات، والمبالغات، والافتراءات المحضة من أن تحل محل السرد الصحيح المتين لهذا الحدث (حلقة النقاش) على أساس الوقائع الفعلية؟ هناك سردان لوقائع حلقة النقاش نشرا بعد وقت قصير من عقدها.

كان السرد الأول بقلم صحفى محترف يكتب لحساب صحيفة «جامعة كاليفورنيا اليوم» UCLA Today، وهى صحيفة الحرم الجامعى. وصفت الصحيفة المنتدى بأنه «حدث جيد شهد حضوراً جيداً من الجمهور» وتابع ذلك بتلخيص المناقشات الرئيسة للمساهمات. لم تأت الصحيفة على ذكر صيحات الاستهزاء، أوالهتافات، أو غيرها من السلوكيات غير المرغوب فيها (لأنه لم يوجد أى منها). من الجدير بالملاحظة أنه فى كل المناقشات حول حلقة النقاش التى تمت فى وقت لاحق، هناك، على حد علمنا، كانت هناك وصلتان فقط لهذه المقالة على شبكة الإنترنت بأكملها.

كيف تجتذب الإنترنت التخيلات الخبيثة

التقرير الثانى أو المقالة الثانية والتى انتشرت على نطاق واسع عن طريق قوة إغراء الإنترنت كتبتها مديرة التعليم والأبحاث لمنظمة قف معنا «Stand With Us» (إحدى المنظمات الأكثر صخبًا فى تحالف إسرائيل بالحرم الجامعى)، والتى تعرّف نفسها أحيانا بوصفها عضوا فى هيئة التدريس فى فرع جامعة كاليفورنيا بمدينة إرفاين (وهى فى الحقيقة ليست كذلك). تحت عنوان «إحياء حانات ميونخ بالعشرينيات فى جامعة كاليفورنيا بلوس أنجيليس» قدمت وصفاً مضطرباً ومشتتًا للمناقشات ومخففًا فى النقل الدقيق لأى مما قيل بالفعل (وهو ما يمكن التحقق منه بسهولة عن طريق مقارنة مقالها بالتسجيلات الصوتية بودكاست للمناقشات على موقع: www.international.ucla.edu/cnes/podcasts).

كما أنها أضافت أيضاً بأريحية تأكيدات ومبالغات - لا يوجد ولا يمكن أن يوجد ما يؤيدها- إلى الخلطة السابقة (على سبيل المثال، قالت إن هذا الحدث بمثابة «شنق أكاديمى لإسرائيل بدون محاكمة» زاعمة أن المتحدثين «أعربوا عن أملهم فى أن تخسر إسرائيل أمام حماس» وشبهت الكلمات التى ألقاها أربعة أكاديميين مميزين نشرت لهم الكثير من الأبحاث بهياج الحشود المعادية للسامية فى حانات ميونخ بالعشرينيات»).

استمرت هذه التأكيدات التى لا أساس لها (وهو ما يؤكده مجرد الاستماع السريع للتسجيلات الصوتية للندوة) فى وضع الإطار واللون للطريقة التى تم بها تقديم الحدث ووصفه، فى جميع المناقشات اللاحقة تقريبًا. لم تكتف المناقشات اللاحقة بالاعتماد على هذه المقالة وحدها، وإنما لم تشر أى منها إلى مصدرها أو الشهادة غير الموثوقة بطبيعتها للكاتبة، أو الفجوة بين المقالة والمناقشات الفعلية كما وردت فى التسجيلات الصوتية الحية المتاحة فى متناول الجميع. وبالتالى، فإن المناقشات اللاحقة التى كتبها، ولا مناص من تكرار هذه الحقيقة، أناس يُقرّون بأنهم لم يحضروا هذا الحدث فى الواقع، تمت وفقًا للنمط المستخدم فى لعبة الأطفال «الهاتف»؛ حيث تنتقل رسالة من طفل إلى آخر حتى تنتهى إلى أن تحمل شبهًا عابراً بالكلام الأصلى بعد أن تنتقل عبر أنحاء الغرفة. الفارق فقط فى هذه الحالة أن التدهور (التحريف) لا يقتصر فقط على الرسالة الأصلية (وهى خاطئة فى حد ذاتها، نظرا لمصدرها)، ولكن طبقات أخرى من المبالغة والغلو تضاف إليها مع كل خطوة انتقال.

معلومات بيرل المضللة

جوديا بيرل، أستاذ علوم الحاسوب بجامعة كاليفورنيا وأحد أشد المدافعين عن إسرائيل حماساً بلوس أنجيليس، ساعد على زيادة تحريفات هذا الحدث. بدأ بيرل بالكتابة عن حلقة النقاش حول غزة: أولاً فى صحيفة وول ستريت جورنال The Wall Street Journal (فى الثالث من فبراير/ شباط ٢٠٠٩)، ثم فى مقال آخر بالجريدة اليهودية The Jewish Journal بلوس أنجيليس (شباط/ فبراير ١٨، ٢٠٠٩)، ثم فى مقال آخر فى صحيفة لوس أنجيليس تايمز Los Angeles Times. فى أول مقال أكد بيرل بدون أدلة أو مبررات أن هذا الحدث (حلقة النقاش) كان فى الأساس «تجمعاً مجنداً من قبل حماس» والهدف منه بالنسبة إلى حماس، (كما يمكن أن يوحى للقارئ) هو السعى إلى «غزو عقول الغربيين». بحلول وقت نشر المقالة فى الجريدة اليهودية، كان بيرل قام بالمزيد من التنميق لروايته، مضيفاً ادعاء وهمياً تماماً قائلاً إن المشاركين فى حلقة النقاش قادوا جمهوراً متحمساً فى ترديد هتافات «الصهيونية هى النازية» و«اللعنة على إسرائيل».

على كل حال، فإن الأكثر إثارة للاهتمام فى روايات بيرل العديدة لهذا الحدث ليس فى طبيعتها المغرقة فى المغالاة، وإنما فى حقيقة أنه لم يكن حاضراً فى هذا الحدث الذى وصفه بمثل هذه الكلمات الفظيعة فى ثلاثة مقالات منشورة مختلفة. مصدر معلوماته (كما يعترف فى واحدة فقط من مقالاته، وليس فى المقالتين الأخريين) هو مقالة مديرة التعليم والأبحاث لمنظمة «قف معنا». فى وقت لاحق، ومشيراً إلى التداول السلس لهذه السلسلة من المقالات التى تنأى بنفسها عن الحقيقة، أشار كاتب آخر فى الجريدة اليهودية (توم توجند، نشرت فى ٢٥ فبراير/ شباط ٢٠٠٩) إلى الحدث على أنه «الندوة الأسوأ سمعة فى جامعة كاليفورنيا حتى الآن». وهو ما يعد محاولة لتلطيخ السمعة بتلفيقات ذاتية المصدر!

تحريفات وافتراءات رواية بيرل، والمبنية فى حد ذاتها على الأساس الهش للتحريفات والافتراءات التى وردت فى مقالة مديرة التعليم والأبحاث لمنظمة «قف معنا» كررها آخرون إلى حد الغثيان على أنها حقيقة مجردة. على سبيل المثال، على الرغم من أنه أمر غير عادى تماماً، إن لم يكن أمراً لم يحدث أصلا من قبل- لرئيس الجامعة أن ينتقد أعضاء هيئة التدريس لديه للتعبير عن آرائهم فى سياق أكاديمى، من خلال تعليقات على الملأ فى معبد يهودى بمدينة لوس أنجيليس؛ فقد فعل مارك يودوف رئيس جامعة كاليفورنيا ذلك بحذافيره، مؤنباً الأكاديميين المشاركين فى حلقة النقاش بمركز دراسات الشرق الأدنى، وفقا لما علم به من تحريفات بيرل لهذا الحدث. كذلك جاء دليل ستانلى كيرتز الرئيس على وصفه لحلقة النقاش فى مقاله فى ناشيونال ريفيو أونلاين National Review Online من بيرل. باختصار، أصبحت الافتراءات هى المصدر العام المعتمد، أو «الحقيقة» فى هذه المسألة.

وتيرة أوسع نطاقًا: كلية بارنارد بجامعة كاليفورنيا. سانتا باربْرَة.

يتبع هذا «المنطق» الأوسع نطاقًا أيضاً يتبع نمطا مثيراً للقلق. فى حملة (بدأها مجموعة من الخريجين الغاضبين المقيمين بمستوطنة يهودية فى الضفة الغربية) ضد تثبيت أستاذة بمنصب جامعى دائم بكلية بارنارد قبل عامين، وجهت اتهامات إلى الأستاذة الجامعية نادية أبو الحاج بالممارسات العلمية الرديئة من قبل أولئك الذين لم يقرأوا عملها. ووجهت إليها زوراً تهمة الكتابة عن الآثار الإسرائيلية دون أن تعرف اللغة العبرية، وتزييف تاريخ علم الآثار لإرساء حجة عن المطالبة التاريخية للفلسطينيين بالأراضى المقدسة (فى حين أنها لم تفعل شيئًا من هذا القبيل).

وكانت تحريفات مشابهة قد زُعمت فيما يتعلق بالممارسات العلمية لغيرها من المنتقدين للسياسات والإجراءات الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين، وكانت أيضًا تقوم على أساس أدلة كاذبة أو مضللة، أو غير موجودة، أو محض تخيلات. الافتراءات العامة حول الأحداث الأخرى، بما فيها رسائل الشكوى إلى العمداء، وبعضها فى إحدى الكليات التابعة لجامعة

كان خير دليل على رقى تلك الأمسية واضحا من ظهور أحد رجال شرطة الحرم الجامعى بجانب المنصة، عندما بدأت حرارة المناقشة تزداد قليلاً

كاليفورنيا، نسبت عبارات كاذبة، ومؤذية، ومنحطة اللغة إلى أفواه المنتقدين للسياسة الإسرائيلية؛ مغيرة الحجج والنوايا إلى ما هو محرف تماما، وأحيانا مشوه، فى حين رفضت تلك الافتراضات إجراء مناقشة بأى شكل من الأشكال، حول مضمون الانتقادات التى تم توجيهها. تعرض كلانا مراراً وتكراراً -مثل القائمة المتزايدة من الآخرين- لتلقى نفس «المعاملة».

تضمنت أحدث حلقات هذا النوع من التحريف البروفيسور وليام (بيل) روبنسُن، الأستاذ بقسم علم الاجتماع بجامعة كاليفورنيا فى سانتا باربرة. خلال القصف الإسرائيلى لقطاع غزة فى يناير/كانون الثانى ٢٠٠٩، أحال روبنسن إلى فصله الدراسى مواد عن «العولمة والسياسة» تعقد مقارنات بين الهجوم النازى فى غيتو (حى اليهود) وارسو وبين الهجوم الإسرائيلى على قطاع غزة. قام اثنان من الطلبة اليهود فى الفصل، بعد تحدثهما فيما يبدو مع رابطة مكافحة التشهير (ADL)، بتقديم شكوى ضد روبنسن «لانتهاكه أخلاقيات السلوك لأعضاء هيئة التدريس» وتوقفا عن حضور هذه المادة الدراسية. تبين أن أبراهام فوكسمان، مدير رابطة مكافحة التشهير، التقى (تحت ذرائع مضللة) مع كبار مسؤولى جامعة كاليفورنيا فى سانتا باربرة، وبدأ الضغط عليهم للتحقيق وتوجيه اللوم إلى روبنسن. كما هدد فوكسمان على ما يبدو بتشجيع المتبرعين اليهود للجامعة بسحب دعمهم المالى إلا إذا تمت معاقبة روبنسُن. كذلك فعلت منظمة «قف معنا» وبنفس الطريقة التى لعبت بها دوراً مؤذياً فى حادثة جامعة كاليفورنيا بلوس أنجيليس، أصبحت تشارك بنشاط، وتنظم حملة ضخمة لكتابة رسائل الاحتجاج، وتهدد بممارسة الضغط لقطع التبرعات عن الجامعة.

الجانب الأكثر إثارة للقلق إزاء هذه القضية ليس توجيه رابطة مكافحة التشهير هذا الاتهام أو فى انضمام منظمة «قف معنا» بحماسة إلى المعركة الدائرة؛ بل يكمن فى أن إدارة جامعة كاليفورنيا بسانتا باربرة أخذت هذا الاتهام على محمل الجد، ويبدو أنها استسلمت لضغوط سياسية خارجية لإجراء تحقيق مع روبنسن، بحسب (http://sb4af.wordpress.com). تزايدت الأدلة على انتهاكات عديدة ضمن إجراءات الجامعة فى عملية التحقيق. وشملت الإجراءات - مما يُعد بحد ذاته الأكثر إثارة للقلق- قيام أعضاء رئيسيين فى اللجنة (معروف أنهم من مؤيدى السياسة الإسرائيلية) بمناقشة الحالة على انفراد مع فوكسمان الذى -كما يجب أن نؤكد- لا شأن له على الإطلاق بالمشاركة فى التحقيقات.

وعلى ما يبدو، تقدم التحقيق بسرعة فى مواجهة الانتقادات المتصاعدة من أعضاء هيئة التدريس والطلاب، والانتقادات الخارجية لانتهاكات الجامعة للحرية الأكاديمية، ولسياساتها فى إجراء التحقيق. بيد أنه فى منتصف يونيو/حزيران ٢٠٠٩، بعد ستة أشهر من بدء القضية، تلقى البروفيسور روبنسن إشعارا بإسقاط جميع الاتهامات الموجهة إليه. لم يتم ذكر أى سبب لهذا، ولكن لا شك فى أن التعبئة الملحوظة من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس ضد التحقيق لعبت دوراً رئيساً فى ذلك، وبلغت ذروتها بتصويت مجلس (الشيوخ) الأكاديمى لجامعة كاليفورنيا بسانتا باربرة بالإجماع على إرجاء تحقيق فى سوء تناول إدارة الجامعة ذاتها للقضية برمتها.

التأثيرات السياسية:

قضية تشارلز فريمان

ربما لأن العديد من المنظمات نفسها، مثل رابطة مكافحة التشهير، تشارك فى كلتا القضيتين (عن طريق تحالف إسرائيل فى الحرم الجامعى)، تداخل الوضع فى المجتمع الأكاديمى الآن مع الوضع خارجه، وفى عالم السياسة الملموس والواقعى المتمركز حول واشنطن.

على سبيل المثال، فى الخطاب الأخير للسفير تشارلز فريمان، والذى أوضح فيه انسحابه المفاجئ (من ترشيح الرئيس باراك أوباما) لرئاسة مجلس الاستخبارات القومى، قال: «من الواضح أننا الأمريكيين لم يعد بإمكاننا إجراء مناقشة عامة جادة أو ممارسة الحكم المستقل حول ما يتعلق بمسائل على درجة كبيرة من الأهمية لبلادنا، وكذلك لحلفائنا وأصدقائنا». وفى رسالة نشرت يوم العاشر من مارس/آذار ٢٠٠٩ على موقع «فورين بوليسى»، أنحى فريمان باللوم فى هذه القضية، وفى انسحابه من الحياة العامة وسط دوامة من ادعاءات وتحريفات وافتراءات لا أساس لها، على العناصر المهيمنة داخل اللوبى الإسرائيلى فى واشنطن:

«تهبط تكتيكات اللوبى الإسرائيلى إلى مستويات متدنية من العار والبذاءات تشمل تشويه السمعة، واستشهادات انتقائية مغلوطة، وتحريف متعمد للسرد، وتلفيق أكاذيب، وتجاهل تام للحقيقة. هدف هذا اللوبى هو السيطرة على العملية السياسية من خلال ممارسة حق الاعتراض على تعيين الأشخاص الذين لا يجدون حكمة فى وجهات نظر اللوبى، واستبدال الصواب السياسى بالتحليل، واستبعاد أى من خيارات اتخاذ القرار لدينا كأمريكيين ولدى حكومتنا فيما عدا تلك القرارات التى يفضلها اللوبى.

يجب علينا جميعا أن نشعر بالفزع من أن يكون ما يحدث فى الأوساط الأكاديمية اليوم هو امتداد لما يحدث فى مجلسى النواب والشيوخ الأمريكيين وفى أروقة السلطة الحقيقية. يكمن الأمر الهام فعلاً فى عملية توصيف وتَمَثُّل القضايا، التى تشكل الذاكرة والتصورات، ويمكن الجدل بأنها تشكل -على المدى الطويل ووفقاً لأى تقدير- عملية تكوين السياسات نفسها. لقد استخدمت كثير من التكتيكات ذاتها فى كلا الوضعين؛ وهما يشتركان فى هدف احتكار الشرعية عن طريق تشويه كافة الانتقادات والتشكيك فيها باعتبارها غير مشروعة وشريرة بطبيعتها».

اللوبى الإسرائيلى الأكثر سطوة:

تكتيكات شائنة وتجنب النقاش

تجدر الإشارة إلى أن أولئك الذين يلجأون إلى إطلاق العنان لأنواع من الاتهامات التى لا أساس لها، والمتمثلة بهجمات على حلقة النقاش بجامعة كاليفورنيا عن غزة أو فى قضية البروفيسور روبنسُن فى جامعة كاليفورنيا بسانتا بربارة، نادراً ما يشاركون بالفعل فى مناقشات مع منتقدى إسرائيل. وقلّما قدموا حججاً مضادة، كما أنهم لم يفكروا أبداً فى ضرورة تقديم أدلة مضادة. يمكن التنبؤ بصياغة الرد لديهم، حيث يأخذ شكلاً مألوفاً من التأكيدات المستهلكة التى لا مناص من ترديدها معاً ودفعة واحدة، دون أى إشارة إلى ما قيل بالفعل؛ وما جرى تقديمه من أدلة؛ والأسباب والحجج والحقائق والأرقام والاستشهادات التى يتم جمعها معاً.

بالتالى، فإن أى انتقاد لإسرائيل والصهيونية يعامل على أنه انتقاد لليهود (حتى لو كان الذين يوجهونه يهوداً حيث سيعتبرون حينها مصابين بكراهية الذات)، ومن ثم توجه اتهامات معادية للسامية أو ما هو أسوأ، مثلما أكد جوديا بيرل فى مقالته بصحيفة لوس أنجيليس تايمز فى ١٥ مارس/آذار ٢٠٠٩. كل ما تفعله إسرائيل هو مجرد حماية أمن شعبها؛ أى دولة تقع تحت هجوم صاروخى من شأنها أن تفعل الشىء نفسه. حماس - مثل حزب الله- هى منظمة إرهابية، وإسرائيل -على غرار الولايات المتحدة- لها الحق فى حماية نفسها عن طريق جميع الوسائل الضرورية؛ (وهو حق وفقاً لهذه الحسابات لا يبدو أن الفلسطينيين يملكونه أبداً). وانتقاء إسرائيل لتوجيه الانتقادات إليها ليس من العدل أو هو يعتبر -وهو الأفضل- معاداة للسامية بطبيعته، خاصة عندما تكون هناك أماكن فى العالم أكثر بعداً عن الديمقراطية وأكثر عنفاً تجاه سكانها من إسرائيل (غالباً ما يضرب المثل بدارفور، فى قضية شهيرة أثارتها الكثير من المنظمات الموالية لإسرائيل، على الرغم من أن هذا المثال عادة ما يمر دون ملاحظة أن الولايات المتحدة لا تدعم ولا تقدم السلاح والدعم للحكومة السودانية أو تعطى غطاء سياسياً لأفعالها غير المشروعة فى مجلس الأمن، ناهيك عن أنه لا يوجد أحد فى الولايات المتحدة يعمل بنشاط من أجل التغاضى عن الفظائع فى دارفور، على النقيض من عشرات المنظمات الممولة تمويلاً جيداً وتلك القوة الكبيرة فى الحرم الجامعى للدفاع عن أفعال إسرائيل).

كتيب الدعاية لإسرائيل

إذن ليس من المستغرب، بالنظر إلى أصلها، أن يعبر تقرير منظمة «قف معنا» عن حلقة النقاش «غزة وحقوق الإنسان» عما يشير إليه الناشطون المؤيدون لإسرائيل فى الحرم الجامعى بالكلمة العبرية «هاسبارا». وهى تعنى، أساساً إن لم يكن حرفياً: «الدعاية». وزعت منظمات مثل «قف معنا» كتيب هاسبارا: الترويج لإسرائيل فى الحرم الجامعى على الناشطين فى الجامعات. (على سبيل المثال، انقر الرابط «Guides for Activists» على موقع www.middle-east-info.org). يوضح الكتيب أن تسجيل النقاط

علينا أن نشعر بالفزع من أن يكون ما يحدث فى الأوساط الأكاديمية اليوم هو امتداد لما يحدث فى مجلسى النواب والشيوخ الأمريكيين وفى أروقة السلطة الحقيقية

هل تجرؤ ألا تكون إسرائيليا!!

غالبًا هو أفضل من الاشتراك فى النقاش، ويقدم تفسيراً كما ورد فيه- لكيفية «تسجيل نقاط بينما يتم تجنب النقاش». تسجيل النقاط، كما يفسرها دليل هاسبارا «ينجح لأن معظم أفراد الجمهور يفشلون فى تحليل ما يسمعونه؛ فهم لا يلتقطون إلا بضع نقاط رئيسة، ويكون لديهم «انطباع» غامض عن أولئك الذين كانت حجتهم أقوى. جزء من هذه الاستراتيجية هو إعادة تدوير نفس الادعاءات مراراً وتكراراً، فى كثير من المواقف وكلما أمكن. «إذا سمع الناس شيئا ما بما فيه الكفاية»، كما ورد فى الكتيب، فسينتهون إلى الاعتقاد به».

يقدم كتيب هاسبارا العديد من الأدوات الدعائية الأخرى، والتى يمكن رؤيتها بوضوح فى التطبيق العملى لها فى تغطية حلقة نقاش جامعة كاليفورنيا عن غزة وغيرها من الأحداث المماثلة، بما فى ذلك، مرة أخرى، قضية روبنسن. «تكوين دلالات سلبية عن طريق إطلاق النعوت السلبية على الآخرين يتم فى محاولة لدفع الجمهور إلى رفض فكرة أو شخص على أساس التداعيات السلبية المرتبطة بها، دون السماح بإجراء فحص حقيقى لهذا الشخص أو الفكرة»، يدعو الكتيب فى فظاظة واضحة إلى استخدام هذا التكتيك. كما يقترح الكتيب أيضا ما هو عكس إطلاق النعوت السلبية على الآخرين عن طريق الدفاع عن إسرائيل باستغلال ما يصفه الكتيب «بالعموميات المتألقة» (استخدام كلمات مثل «الحرية»، «الحضارة»، «الديمقراطية») لوصف إسرائيل؛ فيما يمثل تلاعباً بمخاوف الجمهور «(حيث يكون بال المستمعين مشغولاً للغاية بالتهديدات الفظيعة لهذه العموميات عن التفكير بشكل نقدى فى رسالة المتحدث)»؛ وهلم جراً. والهدف من كل ذلك هو عدم استخدام حجج يدعمها العقل والأدلة. وبدلا من هذا يتم التلاعب (وهى الكلمة التى استخدمها الكتيب) بالجمهور على وجه التحديد من أجل عدم فحص الحجج، وعدم التفكير بشكل نقدى حول ما يقال. وهو منهج لافت للنظر بالنسبة لكتاب مخصص لجمهور الجامعات.

هذا هو على وجه التحديد، وبالتفصيل تقريباً، النهج الذى تتبعه معظم الهجمات على النقاد الأكاديميين للسياسة الإسرائيلية. لا يهم كثيرا ما يناقشه النقاد بالفعل؛ فالردود المألوفة المعدة سلفاً ستكون جاهزة لإنهاء النقاش. أو سيتم شن حملة لإسكات المنتقدين عن طريق جعل الحياة صعبة بالنسبة لهم، أو التهديد بسحب الدعم لمؤسساتهم، أو تصل إلى أقصى حد لها بتهديد حياتهم الوظيفية، أو حرمانهم من فرص الحصول على وظائف (كما حصل مع المؤرخ الأميركى اليهودى نورمان فنكلشتاين فى جامعة دى پول). وكلما كانت المحاولة الأولية لإغلاق الموضوع أقل نجاحاً، كلما كانت الجولة التالية من التجريم والإدانة أعلى صوتاً، والقدح أكثر سخونة، والاتهامات أكثر تطرفاً، لمزيد من التصعيد غير المبرر.

هكذا تتصاعد حدة ونغمة الهجمات التى تستهدف المشاركين فى حلقة النقاش بجامعة كاليفورنيا لوس أنجيليس، والتى وصلت الآن إلى اتهامهم بأنهم أساسا يتلقون أوامر مباشرة من حماس، ويقودون الحشود فى ترديد هتافات معادية للسامية. لقد تعرض كلانا لاتهامات مماثلة، فى وجوهنا مباشرة وعلى صفحات الجرائد، وتعرضنا لتغيير ما نعنيه، ونسبت إلينا كلمات لم نتلفظها ولم نفكر بها، وبدناءة نقلت عنا تصريحات غير دقيقة أو مجردة من سياقها، وتم الاستشهاد جزئياً بما نكتب بما يخل بالمعنى الحقيقى المقصود. لم يكن ذا أهمية أننا مراراً وتكراراً وعلناً أيدنا أشكال الاحتجاج غير العنيف على أعمال العنف الإسرائيلية ومواجهتها؛ ولم يكن ذا بال أننا نؤمن بالعدالة والقانون وحقوق الإنسان؛ وأننا نفضل أن يستمتع جميع الناس فى الأرض الموعودة بوعدها بدلاً من أن يعانى بعضهم من الاختناق على أيدى الآخرين.

دعوات غير متوازنة لـ«التوازن» تقوض مفهوم الجامعة بحد ذاته

لماذا إذن يلجأ أنصار إسرائيل المتعصبون مراراً لهذه الأساليب، ويؤخذون على محمل الجد دون مشاركة فى النقاش الفعلى ورغم تجنبهم التام له؟ من ينتقدون منتقدى السياسة الإسرائيلية يكررون الدعوة إلى «التوازن»، بافتراض أن كل حلقة نقاش ينظمها خصومهم -وليست تلك التى ينظمونها بأنفسهم- ينبغى أن يشترك فيها الرأى الآخر. بطبيعة الحال، كل حلقة نقاش أحادية الجانب يمكن موازنتها بحلقة نقاش مثلها أحادية الجانب على الناحية الأخرى؛ مما يشير إلى أن الجامعات يمكن أن تحقق مظهراً أوسع للتوازن بوسائل أخرى، كما سجّل بحق جين بلوك، مستشار جامعة كاليفورنيا بلوس أنجيليس، فى رده على محاولات أنصار إسرائيل لإسكات منتقدى إسرائيل. نحن لا نسمع كثيراً دعوات موجهة لأقسام علم الاقتصاد بشأن ضرورة توظيف أساتذة اقتصاد سياسى ماركسيين، أو (فى الاتجاه السياسى المضاد) دعوات إلى أقسام علوم الحياة لتعيين أساتذة بيولوجيا يتبنون نظرية التصميم الذكى (مقابل النشوء والارتقاء)، باسم تحقيق «التوازن». لا داعى للقلق، فنحن لا نحاول فتح أبواب للإشكاليات والتعقيدات الفظيعة! وإنما نقصد فقط أن نبين كم هى أحادية الجانب تلك الدعوات (للتوازن) فى حالة إسرائيل-فلسطين، وكم هى غير متوازنة باسم تحقيق التوازن. إنها فى الواقع، فاقدة للتوازن.

بالتأكيد لا نتذكر أننا سمعنا من أى من هذه الجهات أى إدانة للتحيز، فلنقل، كما يمثله آلن ديرشوفيتز. كما أننا لم نسمع على الأقل أى تعبير عن القلق من أولئك الذين يدينون بطلاقة لسان تلك الصواريخ التى أطلقتها حماس على جنوب إسرائيل بشأن الدمار الذى ألحقه القصف الإسرائيلى للمدنيين من الرجال والنساء والأطفال الذين يحتمون فى المدارس ومبانى الأمم المتحدة خلال الاعتداء الذى وقع على غزة منذ عام.

وعندما يصر علنا بَنّى موريس، مؤرخ إسرائيل التصحيحى الأشهر على أنه إذا كان عليك أن تَقتُل أو تُقتَل، فمن الأفضل أن تَقتُل، لا نسمع عندها أيا من الأصوات المؤيدة لإسرائيل تعترض، باسم «التوازن»، على أن هذين ليسا هما الخياران المتاحان الوحيدان فحسب. طرح هذه القضايا مختزلة ومنفردة كأنها قضايا حياة أو موت من منطلق الدفاع عن النفس، يحرف القضايا حيث ينهى إمكانية إجراء أى نقاش. لكن ربما كانت هذه النقطة هى الهدف من المزاعم (كما يشير كتيب هاسبارا).

عندما وجهت الدعوة إلى الرئيس الأسبق جيمى كارتر للتحدث فى جامعات مختلفة، بما فيها جامعتنا (كاليفورنيا بلوس أنجيليس)، بعد نشر كتابه فلسطين: سلام لا فصل عنصرى، أصر ديرشوفيتز باسم «التوازن» على أن يشارك بنفسه الرئيس الأسبق فى الحديث على المنصة أو يتبعه. ولا شك فى أن الأستاذ ديرشوفيتز يتحدث إلى مجموعات كثيرة بنفسه، معززاً موقفه أحادى الجانب. بيد أننا لا نسمع من يدعو لأن يتمكن جمهوره من الوصول إلى رأى مضاد فوراً. إذا كان التوازن مطلوباً فى جمهور رئيس الولايات المتحدة الأسبق، ألا ينطبق هذا أيضا على الأستاذ «المتحيز»؟ وماذا بعد.. هل سيكون مطلوباً أن كل محاضرة حول كل قضية فى كل جامعة تتبعها محاضرة تعرض الرأى المضاد؟ الفكرة بحد ذاتها سخيفة للغاية. بالمثل، وربما ينطبق هذا الأمر أيضاً على المنتديات العامة مثل ناشيونال ريفيو أونلاين. يعطى ستانلى كيرتز، فى مقالته، أهمية كبيرة لفقدان المنتديات العامة للتوازن بإعطائها أصواتها إلى منتقدى إسرائيل. إلا أنه يقوم بهذا فى حين يعرف بأنه لا ينشر مقالات مؤيدة للفلسطينيين. فليكن حذراً مما يدعو إليه!

فى روايته: المحاكمة، كتب فرانز كافكا: «الاتهامات لم تكن أبداً طائشة، كما أن المحكمة، بمجرد أن يرد إليها اتهام لأى شخص، تكون على اقتناع راسخ بجرم المتهم، ولا يمكن زحزحتها عن هذه القناعة إلا بصعوبة بالغة». منتقدو إسرائيل داخل الحرم الجامعى توجه إليهم الاتهامات دون سابق إنذار، دون وجود أدلة إدانة؛ ويدانون دون دليل، ويحكم عليهم بدون تقديم دفاعهم. أنصار إسرائيل الأمريكيون الأعلى صوتا يقومون بدور الشرطى والمدعى بالجرم، والقاضى، وهيئة المحلفين. وفى النهاية، يتضاءل أولئك المدانون ليتحولوا إلى شخصيات فى الظل ليس أكثر، كما لو

فإن أى انتقاد لإسرائيل والصهيونية يعامل على أنه انتقاد لليهود، ومن ثم توجه اتهامات معادية للسامية أو ما هو أسوأ

كانوا أشخاصا من القش اشتعلت بهم نيران الاتهام.

أولئك القائمون على تصنيف كل الانتقادات لدولة أو جيش إسرائيل بشأن معاملتهم للفلسطينيين على أنها انتقادات تتجاوز الحدود بالشجب التلقائى الارتجالى لمثل هذه الانتقادات، ووصفها بالعداء للسامية، يهونون من شأن أى تهمة شرعية حقيقية بمعاداة السامية. يضع هذا التسطيح للاتهامات مثل هؤلاء الأنصار المتحمسين فى مأزق. فهم يسعون إلى رفع الاستثناء عن إسرائيل بالإصرار على أن النقاد لا يدينون بالمثل السودان أو الصين أو كوريا الشمالية لانتهاكات حقوق الإنسان. مع ذلك فإنهم يستثنون دولة إسرائيل من خلال السعى لحمايتها من أى نوع من أنواع النقد. لا فائدة تُرجى أبداً من دولة جعلت أو تجعل نفسها بمنأى عن النقد، كما تثبت الحالات التى يستشهد بها أنصار إسرائيل دون قيد أو شرط.

ومع ذلك، صحيح أننا بطبيعتنا، كأكاديميين ينبغى أن نعيش لدفع الأفكار قدماً، والتركيز على النقاط الصعبة، لمناقشة المداخل والمخارج. وكما أشار إدوارد سعيد مراراً وتكراراً، الأكاديميون والمثقفون يتحملون مسؤولية -ليس فقط مسؤولية الحديث بصياغات واضحة وإنما أيضا بث الأفكار حتى عن الموضوعات الصعبة، والمغامرة بالذهاب إلى ما يتجنبه الآخرون. والتحريفات التى وضعها مؤيدو إسرائيل الأكثر صخبا مصممة لتضييق نطاق، ليس فقط ما يمكن أن يقال عن موضوع ما، ولكن أيضاً الموضوع الذى يمكن أن يطرح فى الأساس. والتحريفات، والإسكات الضمنى، والتضمينات الغادرة ليست مؤذية فقط، وإنما يبدو من الواضح أنها تهدف إلى قمع أى انتقاد للسياسة الإسرائيلية. وباختصار، فإن مثل هذا التدخل كان له أثر، يتمثل بإضعاف فكرة الجامعة من أساسها.

توجيهات مقترحة لمناقشة فلسطين/إسرائيل بالجامعة

وهكذا فإن روح الكياسة الفكرية تقتضى بعض المبادئ التوجيهية التى نعتقد أنها سوف تسهل مناقشة الشأن الفلسطينى/الإسرائيلى فى حرم الجامعات الأمريكية. هذه هى المعايير، كما نقترحها، التى ينبغى تقييم النقد بها - النقد الموجه لإسرائيل والنقد الموجه لمنتقدى إسرائيل. نهيب فى حالة وجود خلافات أن يتم الحكم على المتحاورين من منطلق كونهم:

يردون على الحجج بحجج مضادة، وليس باتهامات موجهة إلى شخصية المنتقد.

يردون على الأدلة بأدلة مضادة، وليس مجرد توكيدات.

يركزون على ما يقال وإلى أى مدى يمكن دعمه بالأدلة، بدلا من اللجوء إلى صرخات «عدم التوازن» و«التحيز».

يبذلون كل جهد ممكن لكى لا يحرفوا ما قاله شخص آخر: وعلى وجه الخصوص، ما إذا كانوا يعيدون بناء الاستشهادات خارج سياقها أو يستشهدون فقط بأنصاف العبارات.

يضعون الكلمات على ألسنة الناس الآخرين، ويحاولون تصوير شخص يعرّف نفسه بأنه داعية للسلام والعدالة كما هو الحال فى الحقيقة سراً أو جهراً؟ على أنه داعية بوحشية للعنف العنصرى.

يحاولون تضييق الخناق على الاعتراض عن طريق التهديد أو تعريض الحياة المهنية للمنتقدين للخطر.

يقللون من عدد القتلى أو الجرحى أو من أهمية براءة قتلى أو جرحى بين أولئك الذين يعتبرون «أعداءهم»، بينما يبررون الدمار الذى يخلفه العمل محل النقاش بأنه «ضرورى» حتى لو كانت الآثار «مؤسفة».

تبقى نقطة أخرى. هناك منذ فترة طويلة مراكز أكاديمية وبرامج تعليمية للدراسات اليهودية، وكذلك لدراسات الشرق الأوسط والشرق الأدنى، وللدراسات العربية والإسلامية. فى الماضى، كانت أفضل تلك التشكيلات المؤسسية تتطلع إلى المشاركة والانخراط عبر الانقسامات الشخصية والسياسية؛ وعلى وجه التحديد، العلاقات المعقدة التى تميزها الظروف السياسية الفاصلة.

فى الآونة الأخيرة، ازدادت السياسات الانفصالية وتبريراتها الأيديولوجية قوة على أرض الواقع، وبدأت البرامج الأكاديمية تعكس ظروف الانعزال هذه. فمثلاً، بدأت تظهر برامج أو مراكز أبحاث متخصصة فقط فى الدراسات الإسرائيلية، تمولها هبات وقفيات خاصة، وتميل إلى تجاهل أو رثاء (تَحَسّر) أو تبرير وعقلنة العلاقة بين الأوضاع فى إسرائيل وأوضاع أولئك الذين يعيشون فى الأراضى المحتلة. تحاول مثل هذه البرامج النظر إلى إسرائيل كما لو كان من الممكن وضعها فى إطار موضوع للدراسة بمعزل عن الفلسطينيين (الذين يشكلون خمس سكانها والنصف من مجموع السكان الذين تحكمهم إسرائيل)، وبمعزل عن كامل قضية فلسطين، وترتبط إسرائيل فى الحقيقة بهذين العاملين لا محالة. تخيل محاولة وضع إطار لبرنامج الدراسات الأمريكية اليوم يستبعد بقصد (أو بدون قصد وهو الأسوأ) أى تناول لموضوع السود أو اللاتين.

وفقا لذلك، وفى ضوء البنية المعقدة للمنطقة، فإننا نرى أن من الحتمى لأى برنامج تعليمى أو بحثى حول الشأن الإسرائيلى الفلسطينى أن يأخذ على محمل الجد السبل المعقدة والمتفاعلة، التى تتشابك بها عميقاً الترتيبات الاجتماعية والثقافية والسياسية والقانونية والمعرفية، وأن أوضاع الحياة والموت بالنسبة للبعض تكون متصلة بأوضاع الآخرين. يستتبع هذا طريقة مختلفة فى التفكير، ليس فقط عن المنطقة، ولكن أيضاً وأكثر عن تشكيل مؤسسات تكوين المعرفة وترتيباتها المؤسسية التى تميل إلى أن تكون الاتجاه السائد اليوم.

مقترح لمنتديات «تِكون»

تحتل مجلة «تِكون» موقعاً تقدمياً هاماً ومثمراً للغاية فى ظل التوترات السياسية والفكرية. فنحن نعتبر تِكون والمجتمعات التى تستطيع الوصول إليها ومخاطبتها، والمتموضعة بشكل جيد وفريد؛ تستطيع بالتالى ترويج مجموعة من المنتديات، سواء كانت مصممة عبر الإنترنت، أو الصحافة المطبوعة، أو وجهاً لوجه، بهدف تعزيز الاشتباكات المتحضرة المحترمة بل والانتقادية كذلك، عابرة مختلف التوجهات السياسية. ومن شأن هذه المنتديات (وهو ما يحدث فعلا) أن توفر منصات (منطلقات) لبث مختلف الآراء حول المواقف الصعبة فيما يتعلق بالخلاف بين إسرائيل وفلسطين، وتقديم للنقد والنقد المضاد دون التعرض للضرر، ومناقشة ترتيبات بديلة دون خوف من التصغير أو التسخيف أو الذم أو حتى التهديد.

وستكون هذه المنتديات حسنة التموضع بما يخولها إرساء قواعد ومبادئ توجيهية أساسية لنقد البرامج والممارسات السياسية، فضلا عن مؤيديها ومنتقديها، بتحضر ودون الدخول فى مطاردات نتيجة الانتقادات التى تم بثها. ستقوم هذه المنتديات بإرساء معايير، بشكل مماثل، فيما يتعلق بالاستخفاف غير المقبول باليهود وبالفلسطينيين، وكذلك بمنتقدى إسرائيل والقضية الفلسطينية. وستكون مثالا يحتذى للتمييز بين النقد المقبول لتصرفات إسرائيل وسياساتها، وبين النقد المعادى للسامية الموجه لليهود.

هذا المثال، بدوره، سيكون له تأثير فى تشجيع الممثلين الرئيسين لرابطة مكافحة التشهير على إعادتها إلى دورها التاريخى الحاسم فى رصد ليس العداء للسامية فحسب، بل أيضا جميع أشكال التعصب الأعمى، دون اختزال الانتقادات الضرورية الموجهة إلى إسرائيل إلى معاداة للسامية.

استبعاد النظر فى الاعتبارات المضادة الحاسمة يُعَد اعتباراً غير متوازن للبدائل. والمنتدى الذى يهيمن عليه أولئك الذين يمكنهم الصراخ بأعلى صوت، والحصول على مزيد من فرص الوصول والحراك والموارد، أو يشعرون أكثر بالإهانة؛ يعتبر منتدى متحيزاً، وبالمحصلة هداماً. ولا يعتبر التوكيد أحادى الجانب والمراعى للذات، تبادلاً للآراء على الإطلاق. وفى التحليل النهائى، فإنه لا يثمر أى فائدة لأى طرف كان، ناهيك عن الناس الذين يعانون من العواقب، فى كل من جانبى الخلاف.

على النقيض من ذلك، إننا ندعو إلى المشاركة فى المناقشات، واحترام الحق فى قول الأمور صعبة القبول لدى الآخر، والمقارعة بدون اعتداء، مما يجعل الانتقادات والانتقادات المضادة خالية من التحريفات المؤذية. وبدون هاسبارا (بروباغندا). وفى دعوتنا إلى التبادل القائم على الاحترام، والمشاركة النقدية، فإننا ندعو إلى احترام المواقف التى يتخذها المفكرون الشرفاء. وفى إصرارنا على التوازن وإعادة التقويم، نوافق على التوازن فى كل القضايا المركبة، وجميع السجلات والأبعاد. فهذا أقل مما تستحقه حياة الناس المعرضين للخطر، بل حياة كل الناس. ■

أنصار إسرائيل الأمريكيون الأعلى صوتا يقومون بدور الشرطى والمدعى بالجرم، والقاضى، وهيئة المحلفين

صورة الرئيس

عدسة: بلاتون

■ ■ كان العام ١٩٧٦، عندما ذهب ريتشارد أفيدون إلى واشنطن، ليلتقط صورة فوتوغرافية لهنرى كيسنجر، الوزير الأمريكى الشهير، والذى باغته، قبل أن يجلس إلى الكاميرا قائلا: «من فضلك.. كن لطيفا معى».

منذ تمثال ملك أسبانيا فيليب الرابع الذى نحته الرسام الأسبانى دييغو فيلازكيز حتى لوحة الملكة إليزابيث الثانية للفنان البريطانى المعاصر لوسيان فرويد، قام الفنانون بتصوير بورتريهات عديدة لزعماء وقادة . وكلهم على الأغلب، لاحظ حالة القلق أو بالأحرى «ضعف القوة» التى تعترى هؤلاء الكبار حين يجلسون أمام عدسة تبدو وكأنها تحدق فيهم.

فى هذا اليوم البعيد من عام ١٩٧٦، أدرك أفيدون أن كيسنجر كان يحاول أن يؤثر فيه ويستميله. ولكن ماذا كان يريد تحديدا؟، كتب أفيدون فيما بعد: «هل رغب كيسنجر فى أن يبدو حكيما ودافئا وأكثر صدقا مما هو عليه؟ أليس من اللامهنية وعدم الاحترام جعل شخص ما يبدو حكيما ونبيلا ـ وذلك سهل لأى مصور محترف ـ رغم أنه قد لا يكون فى الواقع كذلك؟»

فى سبتمبر الماضى، عندما كان كل زعماء العالم تقريبا فى نيويورك لحضور اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة، قام بلاتون مصور The New Yorker، بإنشاء استوديو صغير قبالة قاعة الاجتماع، محاولا انتهاز الفرصة لتصوير «شخصيات» هؤلاء الزعماء والقادة. ورغم أنه ولعدة شهور، كان العاملون بالمجلة قد قاموا بكتابة خطابات إلى العديد من الحكومات والسفارات لترتيب الأمر، إلا أن المسألة على أرض الواقع لم تكن أبدا سهلة. فعلى مدى أيام الاجتماعات الخمسة، كان على بلاتون أن يفعل كل ما فى وسعه لجذب انتباه محمود أحمدى نجاد وهوجو شافيز ومعمر القذافى للكاميرا التى كان قد ثبتها لهذا الغرض.

ولم يكن ما قاله رئيس الوزراء الإسرائيلى، بنيامين نتنياهو، لبلاتون قبل التقاط الصورة «من فضلك، اجعلنى وسيما»، استثنائيا. فالتاريخ ملىء بحكايا مختلفة للقادة مع عدسات التصوير. فونستون تشرشل مثلا، ورغم أنه كان قد أشاد بصورة له قام بالتقاطها المصور الإنجليزى جراهام سوثيرلاند إلا أن زوجته كليمنتين قامت بتدميرها بعد أن شعرت بأنها تجعله يبدو أكبر سنا وكأنه فى مرحلة الشيخوخة. ويحكى التاريخ أيضا أنه فى يوم ٢٧ فبراير عام ١٨٦٠، وهو اليوم الذى تولى فيه مهامه وألقى خطابه الأول فى جامعة Cooper Union، قام إبراهام لنكولن بالذهاب إلى استوديو المصور الفوتوغرافى الأمريكى الأشهر Mathew Brady ليلتقط له صورة بدأت بها الحياة السياسية لواحد من أعظم السياسيين الأمريكيين. وإن كان لا أحد يعلم ماذا قال لينكولن لمصوره فى هذا اليوم البعيد، إلا أن بلاتون (مصور النيويوركر) يذكرنا بأن بنيامين نتنياهو، السياسى الإسرائيلى المحنك، كان حريصا على أن يؤكد طلبه قبل الجلوس إلى الكاميرا: «من فضلك، اجعلنى وسيما». ■

بترتيب خاص مع: The New Yorker

ترجمة: أميمة صبحى

رايلا أودنجا

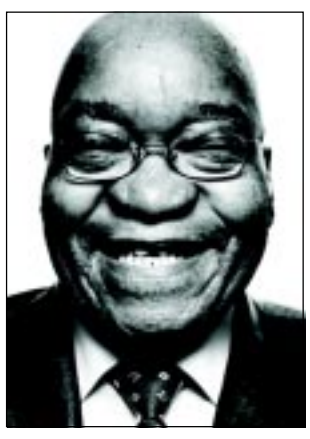

جاكوب زوما

معمـــــر القـــــذافى

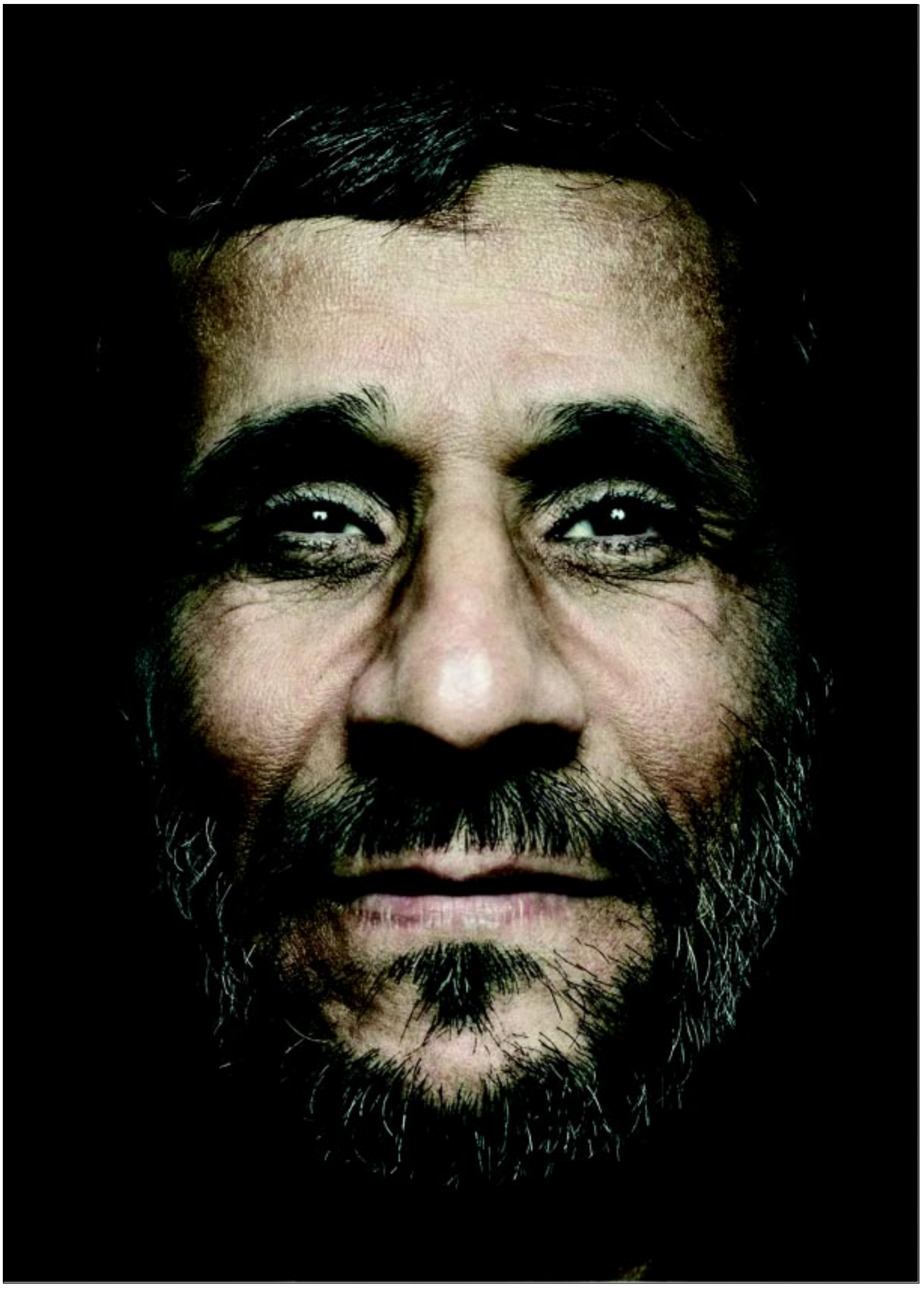

أحمـــــدى نجـــــاد

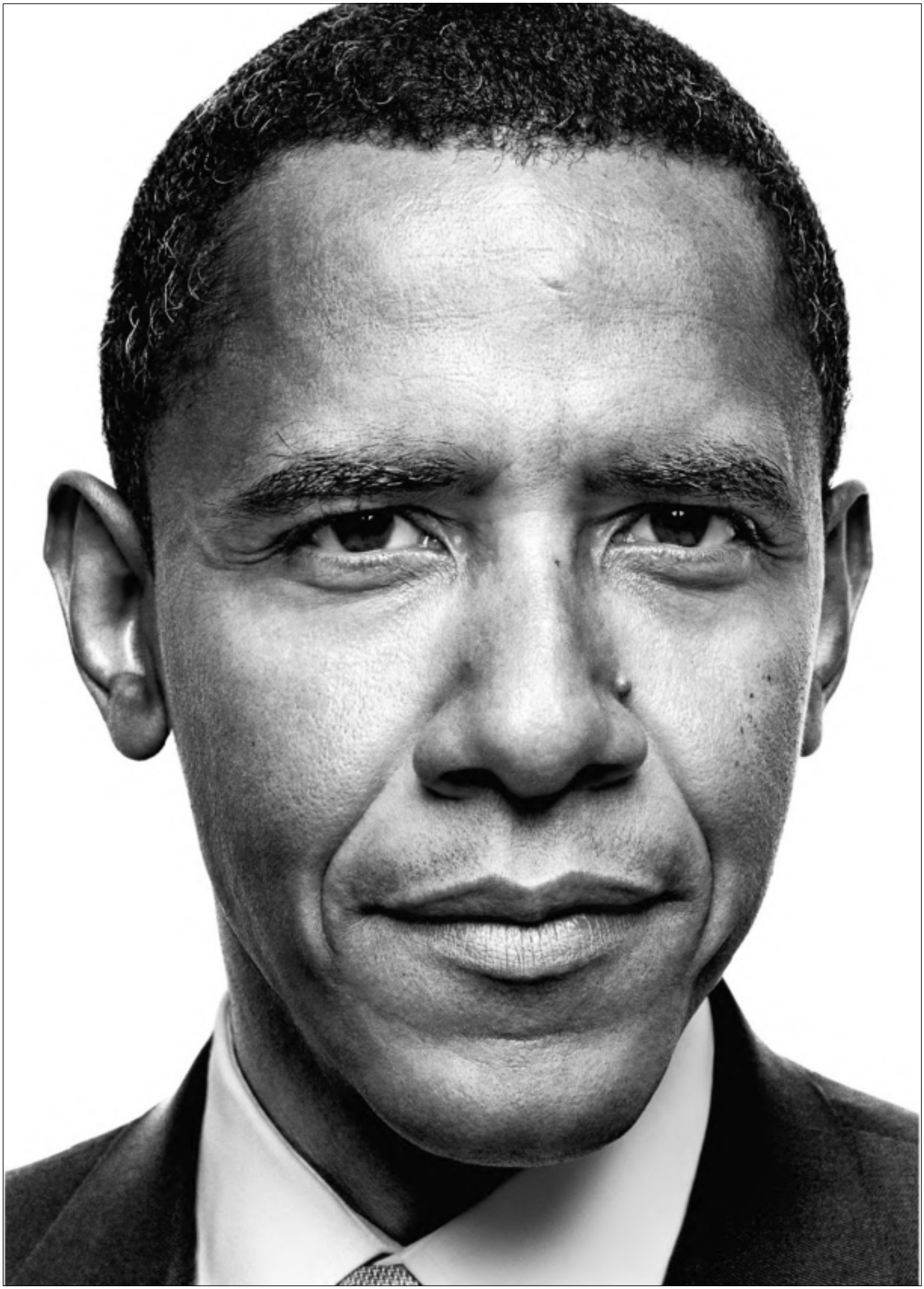

أوبـــامـــا

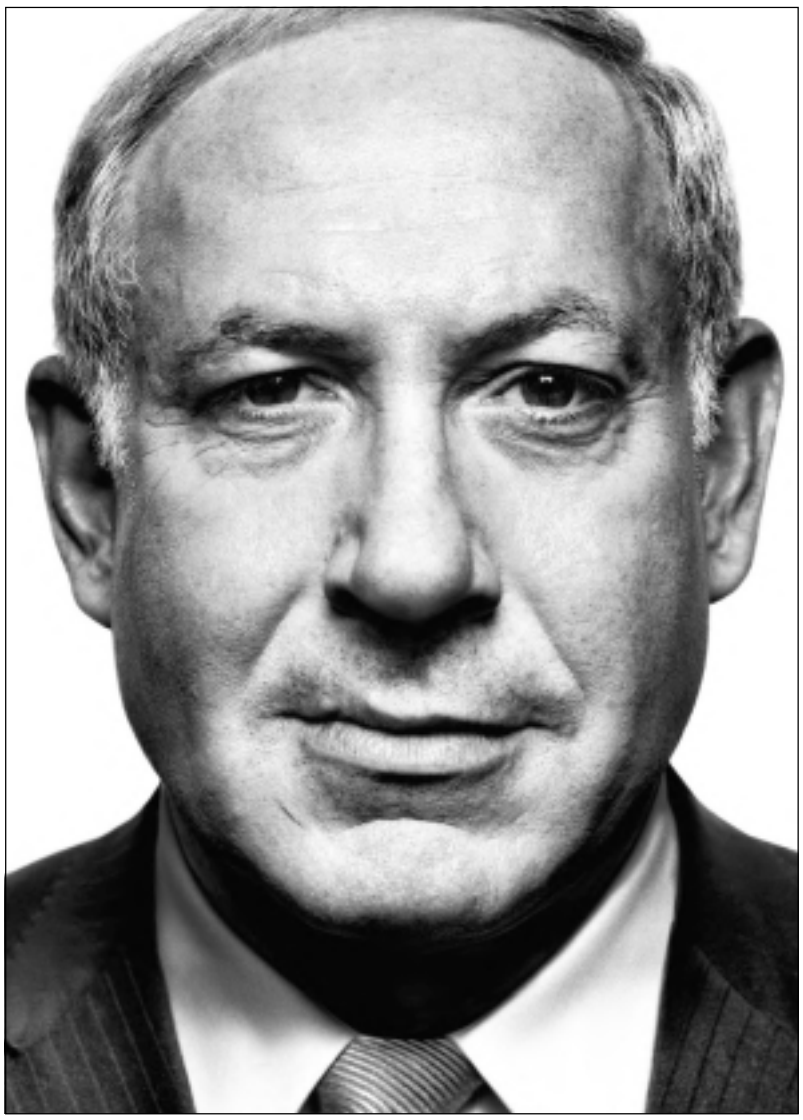

نيتنيـــاهـــو

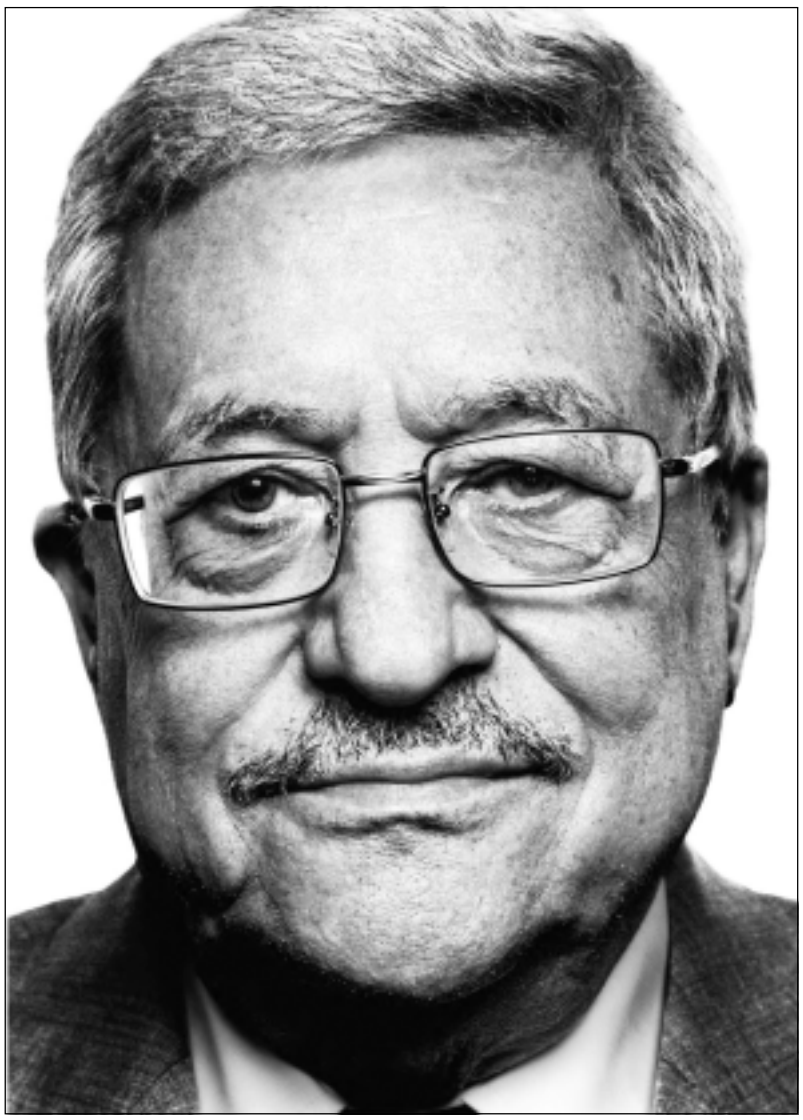

عبـــاس

طـــيب أردوغـــان

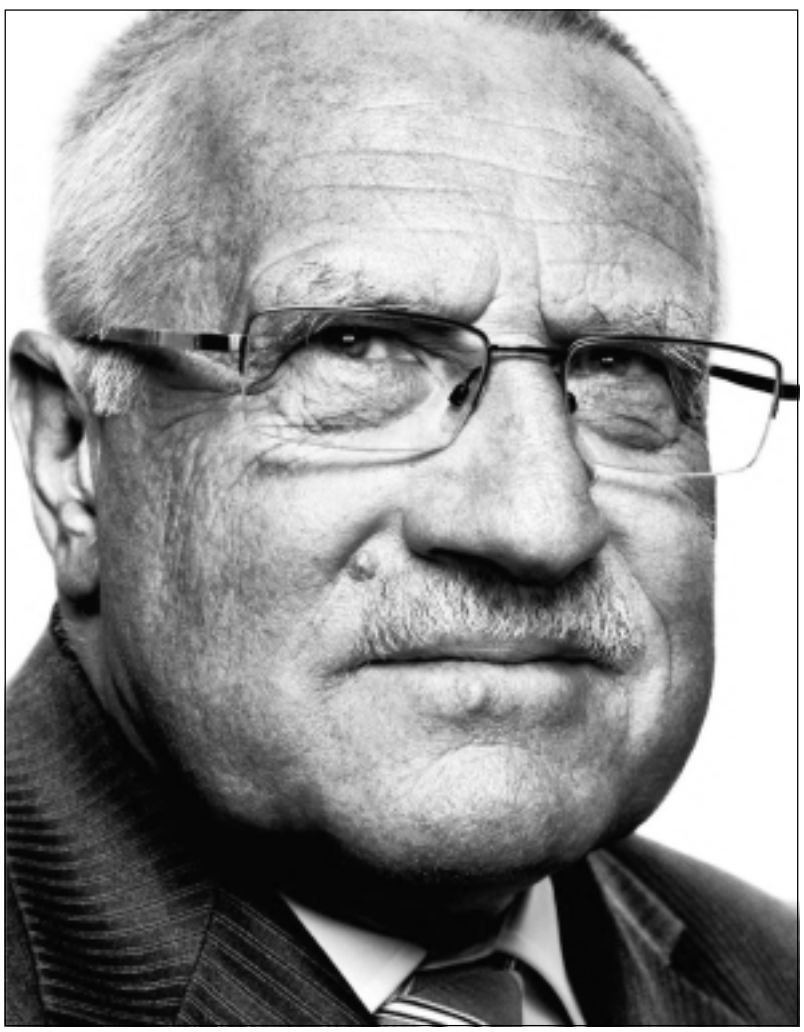

فاكـــلاف كـــالاوس

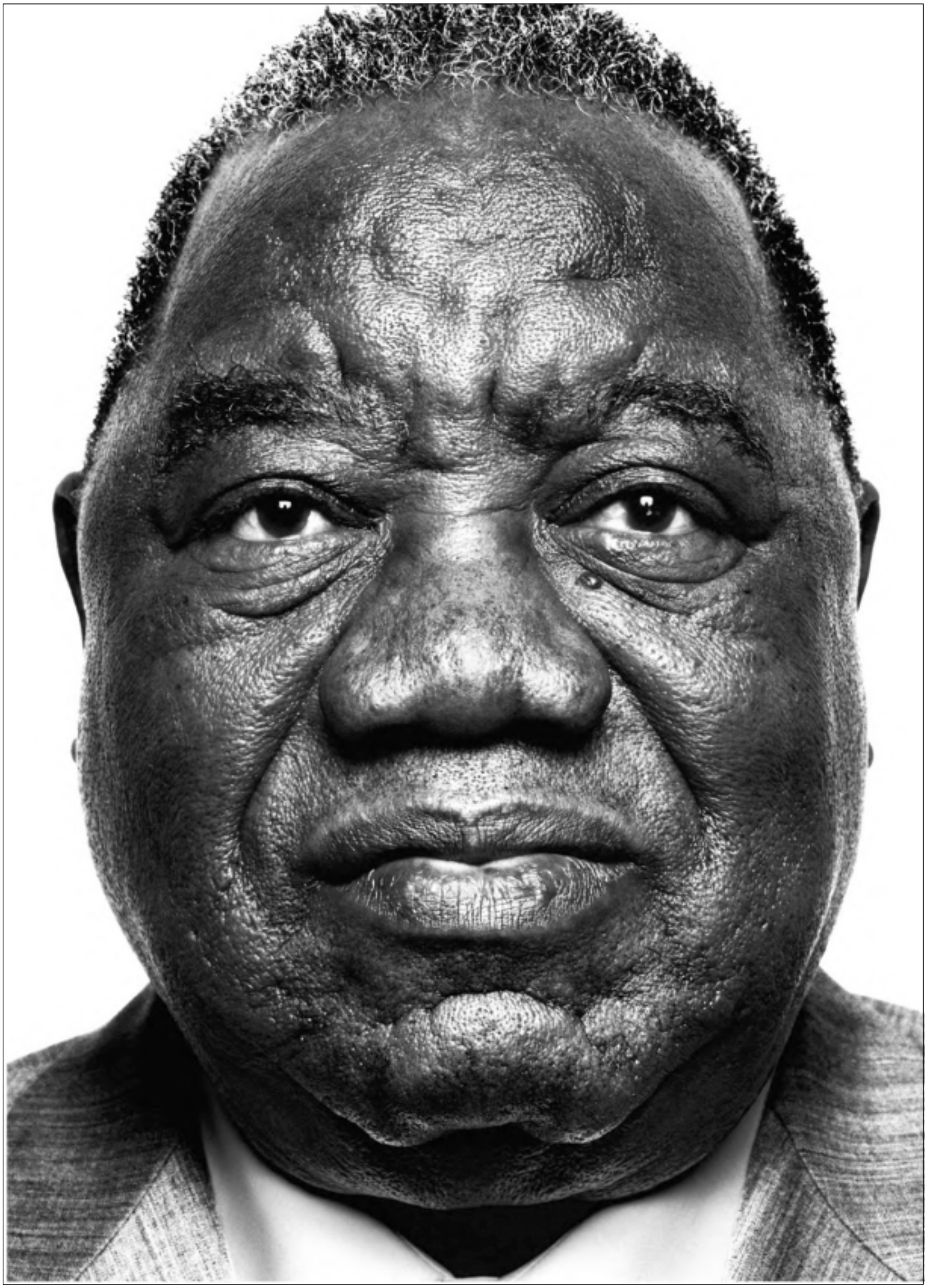

روبيـــاب بـانـــدا

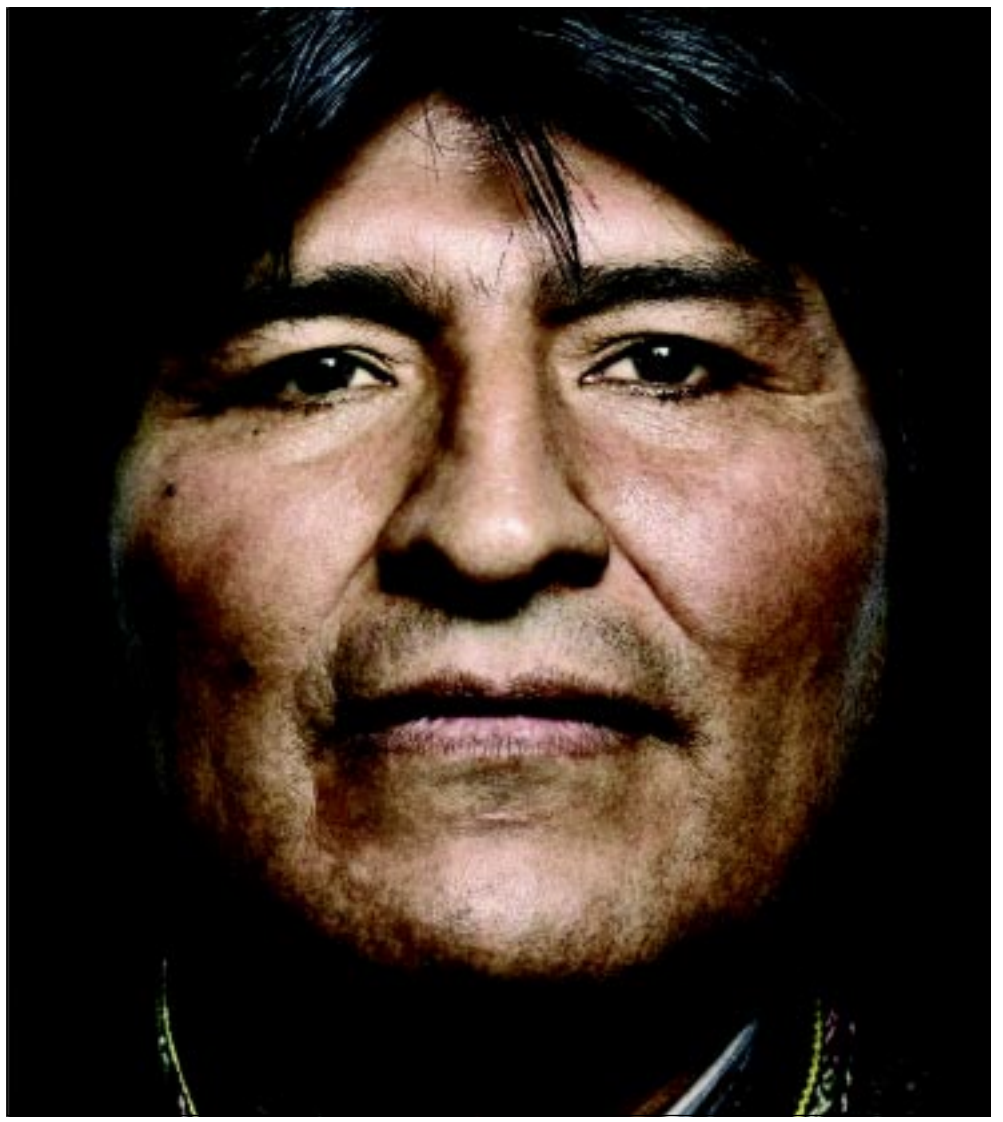

ريفـــو موراليـــس

كرســـتينا فرنانـــديز

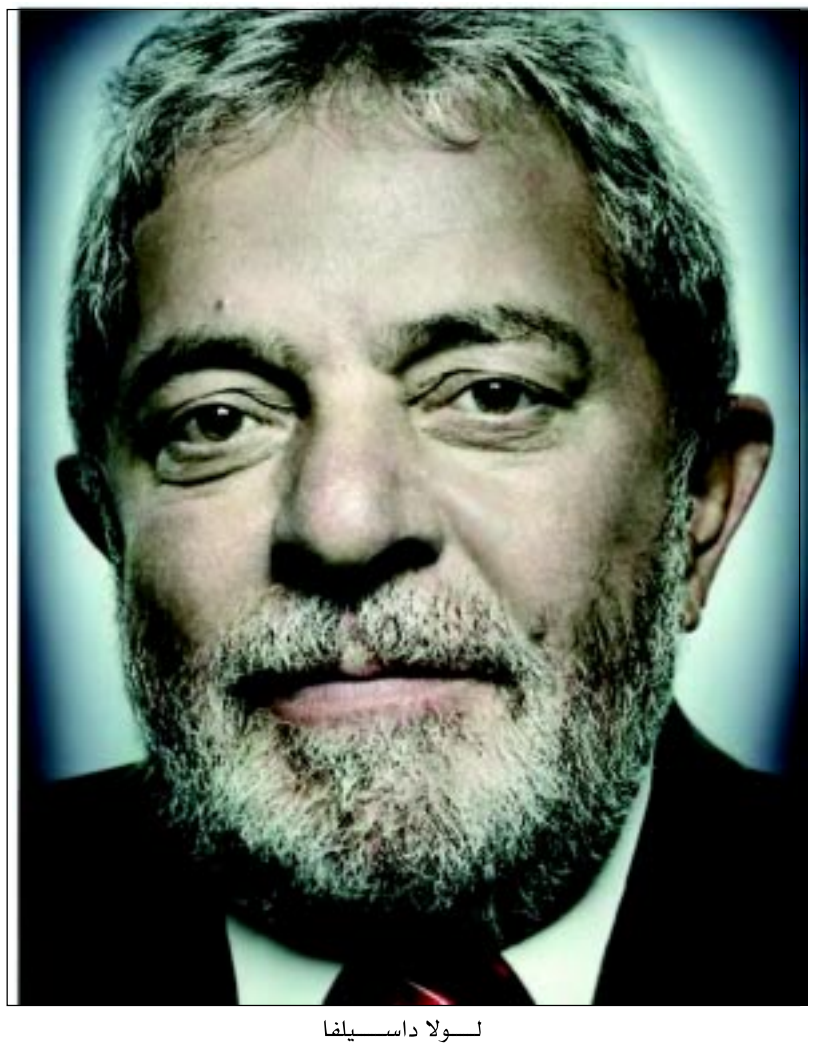

لـــولا داســـيلفا

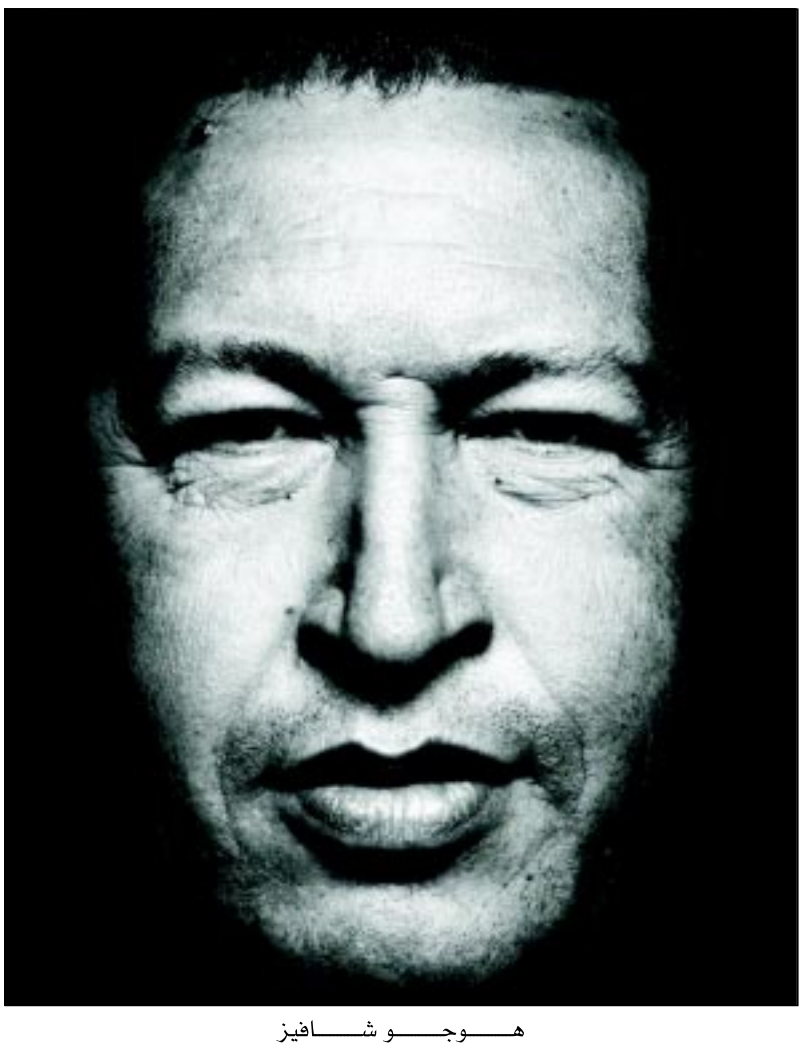

هـــوجـــو شـــافيز

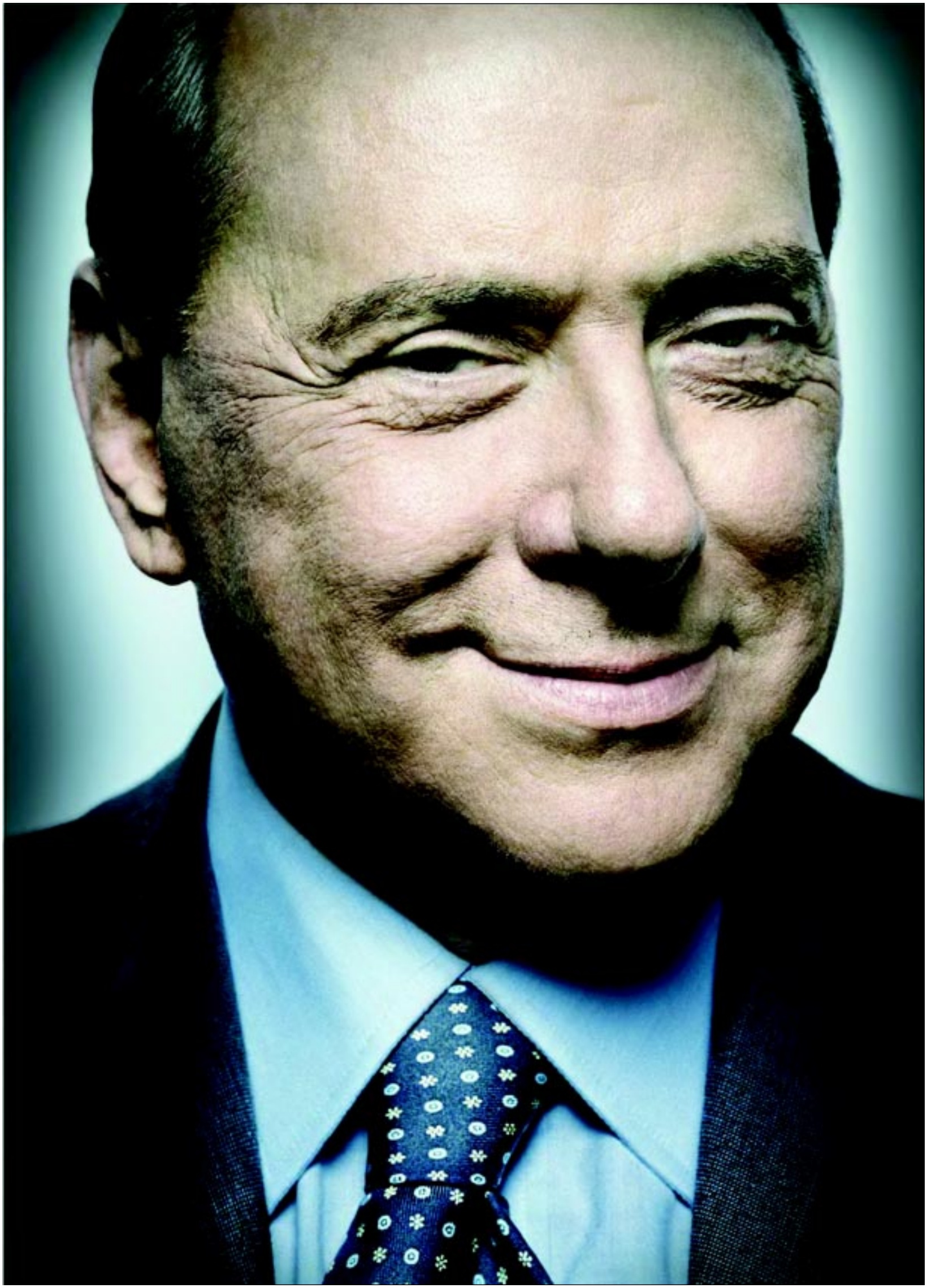

برلســـــكونى

سَيّد قطبْ وجماعات العنف والتكفير

معتز الخطيب

■■ أول ما يُلحظ فى التعامل مع فكر سيد قطب ـ رحمه الله- أن الكثيرين يقرؤونه بمعزل عن سياقه زمانًا ومكانًا وظروفًا، وتكوينًا شخصيًا. وهذا يرتد إلى النزعة الإطلاقية السائدة لدى كثير من الإسلاميين حين يتصورون الأفكار متعالية تهبط من السماء، لا تنبع من الأرض. وهذه الملحوظة المنهجية لها تأثيرها الكبير فى الموقف الذى سنتخذه مع أو ضد، ومن الأفكار التى سنناقشها سواء وصفناها بالتطرف أم بالاعتدال، فهما وصفان غير كافيين بذاتهما؛ دون النظر إلى بيئة تشكل ذلك الفكر، وروافده، وفى مواجهة من وماذا؟. هذا النظر سيؤدى بنا ـ على مستوى الفكرة- إلى مسألة أخرى لصيقة به وهى: هل يصلح لزماننا هذا كلاً أو جزءاً؟ وإن كان يصلح جزئيًا فما التعديل الواجب عليه؟ وما الذى تغيّر؟.

وعلى مستوى الموقف سيؤدى بنا إلى تقدير أهمية الرجل فى زمنه، وعدم غمطه حقه، لا تقديسًا ولا تهوينًا!. فقطب برز فى خضمّ الصراعات الفكرية، وحصول «المثال» الغربى على قدر كبير من السيادة فى القيم السياسية وفى العادات وأساليب العيش، وفى ظل صعود نجم الاشتراكية والفكر القومى لدرجة ظهور محاولات تحمل الربط بين الإسلام والاشتراكية والقومية، ولو عنوانًا.

فكر قطب.. وسياقه التاريخى

كانت الصراعات الفكرية الدائرة آنذاك، سواء التغريبية أم الإسلامية الإصلاحية، تعكس ـ فى أحد جوانبها ـ حالة نفسية تجاه الغرب، انبهاراً بمنجزاته، ومع سقوط الخلافة وقيام الدولة الوطنية العلمانية، سادت أجواء من اهتزاز الثقة بالنفس، وفى هذا السياق جاء السؤال الكبير والمؤثر الذى صاغه أبو الحسن الندْوى (١٩٥٠م) - رحمه الله- «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، واعتبره سيد قطب «من خير» ما قرأ من الكتب التى تتناول الإسلام كـ «عقيدة استعلاء، من أخص خصائصها أنها تبعث فى روح المؤمن بها إحساس العزة من غير كبر، وروح الثقة من غير اغترار، وشعور الاطمئنان من دون تواكل، وتشعر المسلمين بالتبعة الإنسانية الملقاة على كواهلهم، تبعة الوصاية على هذه البشرية فى مشارق الأرض ومغاربها، وتبعة القيادة فى هذه الأرض للقطعان الضالة»، بعد أن انتكس المسلمون «إلى الجاهلية الأولى» ـ على حد تعبير سيد قطب فى مقدمته للكتاب.

سيد قطب كانت كتاباته مشبعة بالحديث عن زيف الحضارة الجديدة، وجنايتها على الإنسان، وفقدان الرجل الأبيض لدوره. كان يكتب من منطلق استعلاء إيمانى، وكان مشروعه هو تجديد إيمان المؤمن بدينه، وشحذ همته، ليكون مؤهلاً لدور الوصاية، فأعاد تعريف مفهوم «الجهاد»، وحمل على القائلين بكونه دفاعيًا بشدة، واتخذ موقف المفاصلة من الأنظمة التى وصفها بـ «الجاهلية»، وتحدث عن ضرورة بناء الطليعة المؤمنة التى ستكون نواة للمجتمع الإسلامى على صورته الأولى، ونقاؤه لا يتأتى إلا من عزلته عن «الجاهلية» السائدة، ومن ثم فإن الحديث عن الاجتهاد الفقهى هو ـ بمنظوره ـ عبث قبل إنشاء المجتمع الإسلامى؛ فالاجتهاد يكون لمجتمع إسلامى لا جاهلى!.

إلى الواجهة الإعلامية، ومع التطورات الداخلية فى جماعة «الإخوان المسلمون»، صعد فجأة تعبير «القطبيون» ليستدعى إلى الذاكرة اسم الرجل الذى مازالت أفكاره محل جدل واسع، يمتد ليشمل أصحابه وتلاميذه أنفسهم.

الرجل، أو بالأحرى الاختلاف حول أفكاره، كان موضوعا لكتاب مهم من تحرير كاتب مقالنا هذا، وبالعنوان نفسه، يضم مجموعة من المقالات لعدد من الكتاب والباحثين ورموز الحركة الإسلامية، تنشره شبكة «إسلام أون لاين» ضمن سلسلة «الإسلاميون.. طرق وحركات»

إن تنظيم الإخوان غصّ بفكر سيد فلا هو قدر على هضمه ولا هو قدر على لَفظه، مروراً بعبد الله عزام رائد «الجهاد الأفغانى»، الذى يقول: «وجهنى سيد قطب فكريًا وابن تيمية عقديًا وابن القيم روحيًا والنووى فقهيًا

كان الخيار الراديكالى للأمة حسب ما تُصوره نخبها فى ذلك الوقت هو إما التغريب الذى كان يعنى التقدم، أو الأسلمة والتى تعنى لدى التغريبيين التخلف والرجعية، وكانت مظاهر المجتمع تسير باتجاه التغريب؛ الأمر الذى أدى إلى نشوء فكر الهوية، وهنا مثّل قطب أحد أركانه فبعث الكثير من الثقة فى نفوس قرائه بدينهم ونصرته وعظمته، وزهّدهم بالنموذج الغربى وحضارته، وبين لهم أن الإسلام هو الحضارة حين رفض وصفه بـ «المتحضر». واللافت أن قطبًا كان يرى أن دور الإسلام المنتظر يقتصر على دائرة القيم فقط، والتى ترتكس فيها الحضارة المعاصرة، فقيادة العالم الغربى أوشكت على الزوال؛ لأنه «لم يعد يملك رصيداً من القيم يسمح له بالقيادة»، ولابد من قيادة تملك إبقاء وتنمية الحضارة المادية التى وصلت إليها البشرية، عن طريق العبقرية الأوروبية فى الإبداع المادى، وتزود البشرية بقيم جديدة جدةً كاملة» هذه القيادة هى الإسلام كما يقول قطب[1].

لكن فى المقابل لم يكن نقاء تصورات قطب ونزعته الطهورية لتعكس بالضرورة واقعيتها، وصحتها أيضًا، فقد كان مسكونًا بالمفاصلة الحدية مع جاهلية المجتمع، وبهاجس أن الصراع مع العالم بأسره ومع الأنظمة هو عقدى، وأن نقطة البدء فى إقامة المجتمع الإسلامى هى تعبيد الناس - بحق - لله وفق مدلول الحاكمية عنده، التى هى من العقيدة (كلمة لا إله إلا الله)، ومن هنا كانت المفاهيم المركزية التى ميزت فكره هى: الجاهلية، والحاكمية، ومن باب هاتين الفكرتين (العقديتين) دخلت إلى الفكر السياسى الإسلامى والعمل الحركى جميع أفكار المقاطعة والتكفير والاستحلال واستباحة الدماء والأموال، وعدد من النتوءات التى نُسبت إلى الإسلام!.

لم تكن أفكار قطب تتناول مسائل فقهية فرعية، بل كان ينأى بنفسه عن ذلك أيضًا، ليس لأنه غير فقيه فقط، ولكن بناء على رؤيته الخاصة بخصوص «حضور» الفقه فى المجتمع «الجاهلى»، وهو وإن لم يكن يهدف - كما يبدو وكما صرح هو فى بعض نصوصه- إلى الحكم على الناس، لكن أصول أفكاره هى أفكار عقدية، فهو قد جعل نظرية «الحاكمية» مسألة عقدية لصيقة بالإيمان والكفر، بل داخلة فى مفهوم «التوحيد» الذى هو أخص خصائص مسائل الاعتقاد، وربما يكون متأثراً فى تقريره هذا بعكوفه على كتب الإمامين الكبيرين ابن تيمية وابن القيم - رحمهما الله- فى سجنه[2] حيث بلور «حاكميته» فى صورتها الأخيرة فى كتاب «المعالم»، وهو بهذا قدم للسلفية الجهادية المعاصرة مَعينًا ثريًا أدركت من خلاله «الشرك المعاصر» الذى يعكر صفاء التوحيد، ولزم منه تكفير الحكام والأنظمة.

هذا فضلاً عن أنه شكّل مع المودودى - ومن قبلهما البنا - ريادةً لفكرة «النظام الإسلامى الشامل» طوالَ الخمسينيات، التى كان لها كبير أثر على رؤية الحركات الإسلامية لدورها، وذلك عندما كتبا فى مكافحة الرأسمالية، ومحاسن النظام الاجتماعى والاقتصادى الإسلامى، كما كتب محمد الغزالى والسباعى - رحمهما الله - فى مكافحة الشيوعية، وفى القراءة النقدية للإعلان العالمى لحقوق الإنسان، إلا أن قطبًا سقى ذلك النظام بفكره الثورى، وأمده ببرنامج عمل لتنفيذه فى «معالمه»، وبيئة ذلك كانت أجواء القطيعة والاشتباك مع النظام الحاكم.

يقوم النزاع هنا كثيراً حول مسألتين أساسيتين: الأولى هل لفكر قطب علاقة بجماعات العنف والجهاد التى ظهرت؟ والثانية: هل يتحمل قطب مسؤولية هذا كله؟

فكر قطب.. والفكر الحركى والجهادى

فيما يخص المسألة الأولى: يبدو للعديدين ولى أن فكر قطب شكل مَعينًا لكل الفكر الجهادى والحركى، ومن السهل أن نلحظ كاريزما قطب لدى عدد من الحركات الإسلامية بدءًا من الحديث عن علاقته بالتنظيم الخاص الإخوانى ودوره فى الانشقاقات التى حدثت داخله أثناء فترة سجنه حتى قيل: إن تنظيم الإخوان غصّ بفكر سيد فلا هو قدر على هضمه ولا هو قدر على لَفظه، مروراً بعبد الله عزام رائد «الجهاد الأفغانى»، الذى يقول: «وجهنى سيد قطب فكريًا وابن تيمية عقديًا وابن القيم روحيًا والنووى فقهيًا، فهؤلاء أكثر أربعة أثروا فى حياتى أثرا عميقا»[3]. وكذلك يذكر أبو قتادة عن الظواهرى أنه عاش شبابه «منفعلاً بما كتبه سيد قطب»[4] إلى أن التقى شبابًا مثله وأسسوا التنظيم، كما أن أبا قتادة شديد الاحتفاء بفكر سيد قطب ويقول: إن «الحركات الإسلامية توقفت عموماً فى التقدم نحو الأفضل، ومن الأمثلة الصريحة على ذلك صنيع الإخوان المسلمين، فقد كان سيد قطب رحمه الله تعالى هو النتيجة الجيدة، والموقع المتقدم بعد حسن البنا»[5]. وهو يعتبر الحركات «الجهادية السلفية» هى «الطائفة المنصورة»، وأن أول أسس شرعية عملها هو أن دار الإسلام «قد انقلبت إلى دار كفر وردة، لأنها حُكمت من قبل المرتدين، ولأن الكفر قد بسط سلطانه عليها من خلال أحكامه ودساتيره»[6]، وهذا ذاته مضمون ما نجده لدى قطب فى كتبه، ومع ذلك فهذا ليس حكماً على الأفراد كما ينبه.

كما أن صالح سرية وهو صاحب أول تطبيق فعلى للعنف فى مصر عام ١٩٧٤ (تنظيم الفنية العسكرية) يقول فى «رسالة الإيمان» التى كتبها سنة (١٩٧٣م): «إن كل الأنظمة، وكذلك كل البلاد الإسلامية التى اتخذت لها مناهج ونظماً وتشريعات غير الكتاب والسنّة فقد كفرت بالله واتخذت من نفسها آلهة وأرباباً. فكل من أطاعها مقتنعاً بها فهو كافر» معتبراً هذا «الفرض الأول لأنها أساس التوحيد والشرك فى هذا العصر»[7]، ومحيلاً إلى سيد قطب. بل إنه اعتبر فى مقدمة رسالته تلك أن من خير التفاسير لمعرفة التفسير الحق للقرآن «فى ظلال القرآن» فى طبعاته الأخيرة.

وبالرغم من أن محمد عبد السلام فرج صاحب الدور البارز فى اغتيال السادات، لم يأت على ذكر قطب فى «الفريضة الغائبة» الذى كتبه ١٩٨١م وشحنه بنقول عن ابن تيمية إلا أن جوهر الكتاب يقوم على البدء بجهاد الأنظمة الكافرة، وأن «الأحكام التى تعلو المسلمين اليوم هى أحكام الكفر» على حد قوله، ففكرة الحاكمية وروح كتابات سيد قطب غير خافية فى رسالته وإن لم يذكره، فهو يتحدث عن تكفير الأنظمة وجهادها، ومفاصلة المجتمع، و«دعوة الناس إلى الإسلام» وغير ذلك.

كما أن أفكار وإصدارات الجماعة الإسلامية المصرية عن الجهاد وتحكيم الشرع والمواجهة مع الأنظمة لا بد أن تتماس مع فكر سيد قطب، وليس بالضرورة أن يكون الشكل الوحيد للتفاعل هو النقل والاقتباس، ففكر العنف يبدو لى بطبيعته لا يقف عند مرجعية ثابتة، بل يطوّر نفسه وفق تعقيدات مختلفة تتعلق بالظرف والزمان والأشخاص، ولا يمكن السيطرة عليه، وهو الأمر الذى يفسر الانشقاقات التى تحصل داخل بعض التنظيمات الجهادية والعنفية.

إن أى حركة جهادية أو تغييرية عنفية لا يمكن لها أن تزهد بالمعين الثورى الذى تركه قطب، ومن هنا نجد أنه حتى حركات الجهاد الحقيقى كحركة الجهاد الإسلامى فى فلسطين تحتفى بسيد قطب مع على شريعتى، ومالك بن نبى، وثلاثتهم يشكلون وفق تعبير زعيمها الشهيد فتحى الشقاقى «مثلثًا خطيراً فى الفكر الإسلامى الحديث»، وكان كتاب «المعالم» من ضمن ما استند إليه الشقاقى فى «كيفية الصياغة الثورية للفكر الإسلامى». فسيد قطب تم النظر إليه فى حركة الجهاد من زاوية تحقيقه «للشرط الذاتى» لعملية البعث والنهضة، الشرط الذاتى كمحرك للذات الإسلامية التى أرادها متميزة وواعية بأزمة التحدى الغربى للأمة[8].

إن أفكار وإصدارات الجماعة الإسلامية المصرية عن الجهاد وتحكيم الشرع والمواجهة مع الأنظمة لا بد أن تتماس مع فكر سيد قطب

إذن إن ثورية قطب وأفكاره تشظت على مجموعات ورجالات مختلفة التوجهات والعمل الحركى الإسلامى.

اعتذاريات القطبيين.. ومنهجية قراءة فكر قطب

أما فيما يخص المسألة الثانية فيميل المدافعون عن قطب، إلى أن المسألة لا تعدو أن تكون مشكلة قرائه، لا مشكلته هو. ويعتذرون بأدبيته عن فقهيته، وبليونة تعبيراته عن دقة مدلولاتها، وبأفعاله مع أقواله عن أقواله فقط، وبالجمع بين نصوصه عن بعضها فقط، وبظروف المولعين به عن مدلولات أفكاره فى ذاتها، وأن الظروف أوصلتهم إلى ما أوصلتهم إليه. وهنا يحسن أن نذكر ملحوظات منهجية فى التعامل مع الأفكار، ومع فكر سيد - رحمه الله - تحديداً.

١- ضرورة النظر لملابسات تأليف الكتاب:

إنه لا بد من النظر مرة أخرى فى ملابسات تأليف الكتاب الذى يُرجع إليه، وأن مصنفات كاتب ما ليست جميعها على الدرجة نفسها من العمق والتحرير أولاً، فمنها ما يكون فى ابتداء الأمر، ومنها ما يكون لأغراض أخرى؛ فقد كان من عادة العلماء قديماً أن يصنفوا الكتب فى بداية طلبهم، لمجرد النفع الذاتى، وثانياً لأن الكاتب نفسه قد يطرأ عليه تغيير فى فكره فيرجع عن شىء دوّنه قبلُ. وهذا لا بد من تحريه بالوسائل المنهجية المعروفة لدى المعنيين بهذا الشأن.

نضرب مثلا للأول، بالإمام الحافظ ابن حجر الذى قال فى أَخَرة من حياته: «لست راضياً عن شىء من تصانيفى لأنى عملتها فى ابتداء الأمر، ثم لم يتسنَّ لى تحريرها سوى شرح البخارى ومقدمته والمشتبه، والتهذيب، ولسان الميزان. وأما سائر المجموعات فهى كثيرة العَدد، واهية العُدد، ضعيفة القوى، خافية الرؤى»[٩].

ونضرب مثلاً آخر بالإمام الحافظ الذهبى الذى قال: «كتاب مستدرك الحاكم كتاب مفيد، وقد اختصرته ويعوز عملاً وتحريراً»[١٠]. وأمام هذه النصوص يتبين لنا الخطأ الذى يقع فيه عديد من الباحثين المعاصرين حين يتجاهلون هذه الكلمات أثناء تعاملهم مع تلك المصنفات، فيشنع بعضهم على الذهبى مثلاً لكونه سكت عن حديث ضعيف أو موضوع فى المستدرك!، أو لخطأ وقع من ابن حجر فى كتبه التى لم يحررها ومات غير راض عنها!.

وللثانى نضرب مثالاً بالإمام الكبير الشافعى رضى الله عنه، ومعلوم أنه تراجع عن مذهبه القديم ولم يُحلّ الرجوع إليه باستثناء مسائل معدودة يعرفها أهل الفقه.

وفيما يخص سيداً، وهو قاصر عمن سبق ذكرهم مكانةً، غير أن المنهج نفسه ينطبق عليه، فقد ذكر القرضاوى فى مذكراته[١١] فقال: «حدثنى الأخ د. محمد المهدى البدرى أن أحد الإخوة المقربين من سيد قطب - وكان معه معتقلا فى محنة ١٩٦٥م- أخبره أن الأستاذ سيد قطب عليه رحمة الله، قال له: إن الذى يمثل فكرى هو كتبى الأخيرة: المعالم، والأجزاء الأخيرة من الظلال، والطبعة الثانية من الأجزاء الأولى، وخصائص التصور الإسلامى ومقوماته، والإسلام ومشكلات الحضارة، ونحوها مما صدر له وهو فى السجن، أما كتبه القديمة فهو لا يتبناها، فهى تمثل تاريخاً لا أكثر. فقال له هذا الأخ من تلاميذه: إذن أنت كالشافعى لك مذهبان: قديم وجديد، والذى تتمسك به هو الجديد لا القديم من مذهبك؟. قال سيد رحمه الله: نعم، غيّرت كما غيّر الشافعى رضى الله عنه. ولكن الشافعى غير فى الفروع، وأنا غيرت فى الأصول!».ا.هـ

الإمام الكبير الشافعى رضى الله عنه، معلوم أنه تراجع عن مذهبه القديم ولم يُحلّ الرجوع إليه باستثناء مسائل معدودة يعرفها أهل الفقه

هذه الشهادة التاريخية لها قيمتها التى لا تنكر، ومع ذلك يجب أن نحتاط منهجياً فيها، ويكون ذلك بالدراسة المتأنية لأفكاره قبل السجن وبعده

هذه الشهادة التاريخية لها قيمتها التى لا تنكر، ومع ذلك يجب أن نحتاط منهجيًا فيها، ويكون ذلك بالدراسة المتأنية لأفكاره قبل السجن وبعده، ورصد المتغيرات التى طرأت عليه، ويدعم تلك الشهادة شهادة أحمد عبد المجيد[١٢] الذى كان من الدائرة الأولى التى تجالس «قطب» وتأخذ منه مباشرة، وتأثرت بأفكاره تأثراً كبيراً، وهو يقرر أن التغير طرأ فى السجن وفى أصول أفكاره (الجاهلية، الحاكمية، المفاصلة الشعورية،...). ولا شك أن آخر ما يكتب الرجل هو آخر ما ينتهى إليه فكره فى كمال نضجه.

٢- تأريخ الأفكار وخطأ الجمع بين الأقوال:

بناء على ما سبق فإن من الخطأ الجمعَ الاعتباطى بين أفكاره، وحمل بعض نصوصه على بعض، فمعلوم أن فكر سيد مر بمراحل وظروف مختلفة، وتأريخ أفكاره هنا بالغ الأهمية، فلا يمكن مثلاً الاستدلال على فكره بنصوص من رسائله لأخته أيام إقامته فى أمريكا (٤٨-١٩٥٠م)، التى نُشرت فى كتابه «أفراح الروح» للبرهنة على أن قائل هذا الكلام لا يمكن أن يكفّر المجتمع!. فلا بد لمن يريد أن يفهم سيد قطب أن يحيط بمراحل حياته وتطوره فيها، حتى يعرف حقيقة موقفه الذى انتهى إليه.

إن مشكلة البعض[١٣] ممن تحدث عما أسماه بـ «المنهج الإسلامى فى الجمع بين الأقوال المتعارضة» للجمع بين أقوال سيد قطب: أنه يقع فى مشابهة مذمومة، فيستعير المنهج الإسلامى للتعامل مع نصوص الوحى، ليطبقها على أقوال البشر!!. والفوارق المنهجية - فضلاً عن الدينية - كبيرة، فالجمع والترجيح والنسخ والتوقف، وهى الخيارات المطروحة بضوابطها للتعامل مع نصوص الوحى (قرآن أو سنة) المتعارضة أو التى «ظاهرها التعارض»: مبنية أصلاً على نزاهة النص الدينى لأنه لا ينطق عن الهوى، وعلى براءة القائل من الوقوع فى التناقض أو النسيان الذى هو شأن البشر، وعلى عصمة التشريع الإلهى من خضوعه للتطور، أو اكتشاف مجهول ونحو ذلك من الفروق، دون أن ندخل فى الفروق المرجعية بين نص وحى لا

مناص من الاحتكام إليه، وبين نص بشرى لا يضير تجاهله وعدم معرفته أصلاً!.

فكيف بعد هذه الفوارق لو علمنا أن فكر سيد نفسه تعرض لتطورات وتغيرات حكمت بها ظروفه النفسية والفكرية والوجدانية، قبل وبعد السجن؟ ضميمةً إلى ما نُقل من شهادة عنه سابقاً؟!.

٣ ـ لغة الكاتب وبناؤه المفاهيمى:

مسألة أخرى تثار فى الاعتذاريات عن قطب، وهى أدبيته، ولا بد أن نقرر أن المعانى تُطلب من المفاهيم لا من الألفاظ، فمن طلب المعانى من الألفاظ ضل وتاه، وقوام الأدبية قائم على التشبيه والتخييل والتمثيل، ورقة العبارة، وسعة التعبير، وفى هذا غلبة للحس على اللفظ، وللعاطفة على الفكر، ومشكلة قطب أنه خاض بعباراته المرنة هذه فى قضايا عقدية، والمسائلُ العقدية يطلبها الناس من الألفاظ، والأحكام الشرعية تقوم فى الحدود والعبارات، فلا يمكن تبرئة الأديب سيد قطب ـ رحمه الله ـ من مسؤولية عباراته.

ثم إن المفاهيم التى شرحها ونظّر لها حين تُضم إلى بعضها لا يمكن إلا أن تؤدى إلى نتائج عنيفة، من الجاهلية والحاكمية ـ على ما شرحه وأفاض فيه- والجهاد وفق شرحه، والبرنامج الحركى الذى رسمه فى معالمه، ومنعه الاجتهاد الفقهى بتعليله السابق، والقول بتوقف وجود الإسلام، وبإنشاء المسلمين من جديد، وحصر الإسلام فى الطليعة المؤمنة التى ستشكل نواة المجتمع المسلم المنشود، إلى غير ذلك.

إن إطلاقية قطب الصارمة فى مجمل ما يصدر عنه بوصفه يقيناً لا يحمل الاجتهاد، وصواباً لا يحمل شائبة من الخطأ، كل هذا يبنى تصوراً ويُشيد قلاعاً، ويحطم كل الجسور، لأن المسألة لديه أبيض وأسود فقط والثالث مرفوع!.

أقول هذا مع علمى بأنه هو نفسه حين سئل عن التكفير قال: إن «المسألة تتعلق بمنهج الحركة الإسلامية أكثر مما تتعلق بالحكم على الناس!»[١٤]، وهو بالفعل كان معنياً بهذا فى فكره وكتاباته، وكذلك أنا لست معنياً هنا بأن قطباً يكفر المجتمع أو لا، غير أن مفاهيمه لم تكن لتقف عند حدود المقدمات التى تبنيها دون النتائج التى تسكت عنها، بل كان من المنطقى أن يأتى من يستنتج من تلك المقدمات ما تحمله فى طياتها وفى ذاتها!.

فكر قطب.. وضرورة المراجعة

أميل إلى النظر إلى الفكر الإسلامى- بما هو نتاج بشرى- كحركة كلية بكل تنويعاته وانشقاقاته، مع ربطها فى سياقاتها زماناً ومكاناً وأفكاراً، وبأن كل فصيل يؤدى دوراً فى زمنه، اتفقنا أو اختلفنا معه، وهذا يكمن فى بحث التساؤل الكبير أمام نشأة كل فكر أو اتجاه: لماذا نشأ هنا والآن، زماناً ومكاناً وفكراً؟ وفى مواجهة من.. وماذا؟ ولماذا ينمو ولماذا يخبو؟ غير أن الحركة (الكلية) للفكر لا بد أن تحصّل فوائد فى نهاية النظر، بحسب النتائج التى أنتجها هذا الفكر أو الاتجاه، والأغراض التى أداها، سلباً وإيجاباً، وهكذا يمكن أن تُقرأ المسارات البارزة فى الفكر الإسلامى من ظهور الشافعى ـ مثلاً ـ إلى ابن تيمية إلى.. سيد قطب مع حفظ التفاوت فى المكانة بينهم.

وإذا كان فكر قطب نشأ فى الظرف الذى شرحته ومتزامناً مع سؤال الندوى، فنشأة ظاهرة «الصحوة الإسلامية» التى اكتسحت المجتمعات الإسلامية برمتها منذ منتصف الثمانينيات لا بد أن تفرض نظراً جديداً فى تشخيصات قطب للمجتمع والأمة، والتغير الكبير الذى طرأ على الغرب طوال العقود الثلاثة الأخيرة جعل من تشخيصات قطب له جزءاً من التاريخ، وقَصْر قطب الدورَ الإسلامى المنشود على إطار القيم فقط، مُنبنٍ على ذلك التصور البسيط عن الغرب، كما كان شأن الندوى ـ رحمه الله- فى سؤاله وتشخيصه.

أمكن الآن الحديث أيضاً عن ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين معرفياً أيضاً[١٥]؛ فقد نضج العقل العربى والمسلم عبر هذه العقود، وتعمقت معرفته بالغرب، معايشةً ودراسةً، وفهماً. فنخبنا الثقافية تعلمت هناك، وتجاوزت حالة «الانبهار» به، وبدأت حقبة جديدة أظهرت نقداً لاذعاً وعميقاً للغرب بمختلف أطيافه، وبالتأكيد ساعد على ذلك أيضاً كتابات فلاسفة ما بعد الحداثة من أمثال هابرماس وفوكو وهايدغر.. وغيرهم. فى حين أن سيد قطب عاش سنتين فقط فى أمريكا، ويبدو لى تشخيصه لأزمة القيم الغربية الذى هو غير خارج عن التصور العام السائد فى ذلك الحين: من خلال اعتماده على أمثال ألكسيس كاريل، الذى اعتمد عليه بكثرة فى تشخيصه للحضارة الغربية والدور المنشود للإسلام[١٦] فضلاً عن إفادته من تشخيص الندوى الذى كانت كتبه معه فى سجنه، وقد كانت معرفته بالغرب كما بدت من خلال نُقول بعض الغربيين التى اطلع عليها، ومن خلال «مشاهدات» عابرة وقعت له ولبعض من حوله. وخلص إلى أن الذى يقبله الإسلام من الحضارة الغربية المادية هو الجانب المتعلق بالأمور المادية الصناعية التكنولوجية، وهو التصور البسيط الذى كان سائداً أيضاً.

إنه انطلاقا من نقد الحداثة، تفتَّحت معرفة العرب والمسلمين بالغرب فبصروا بالعيوب المزمنة داخل النسق الثقافى والعلمى الغربى، وأصبح ممكناً الآن بهذه المعرفة إقامة مقارنات بين أنظمة معرفية مختلفة، والتعرف على بنية الأجهزة المعرفية (مفهوم العقل، ونظرية المعرفة)، واكتشاف مميزاتها وعيوبها. ولم تعد تلك الرؤية البسيطة للفصل بين الآلة والقيمة فى الحضارة الغربية دقيقة، بل هناك حديث عن بعد أنطولوجى للتقنية الآن، وحيادية التقنية ما عادت موضع تسليم كما كانت.

فضلاً عن أن نظرية المواجهة العنيفة مع الأنظمة الحاكمة، والمواجهة العنيفة مع «الجاهلية الغربية» ـ وقطب يقول بكل ذلك ـ أثبتت التجارب فشلها، وبينت الأحداث التى شهدناها داخلياً فى الثمانينيات والتسعينيات، وخارجياً بدءاً من أحداث سبتمبر، كارثية هذا الخيار، وأضراره على الأمة.

كما أن الهيمنة الأمريكية العسكرية على قلب العالم الإسلامى، والمقاومة الفلسطينية، والمحن المتوالية على الأمة، والتحديات التى تواجهها الآن، واتخاذ الصراع عناوين وممارسات دينية: أدت إلى تمسك شديد بالهوية الإسلامية، فما عدنا بحاجة إلى الحفاظ على إسلامنا بالوقوف عند تخوم «المشاعر» ببث الثقة فى النفوس. والوقوفُ عند فكر الهوية والعودة إليه من شأنه أن يزيد من تأخرنا ويضيّع علينا المزيد من الوقت لأجل البناء الطويل الذى نحتاجه. والتغيير والتطوير لا يمكن أن يتوقف لأجل أنه يوافق هوىً أو شعاراً خارجياً أو داخلياً، المهم أن نعلم ما نحن بحاجة إليه ونعمل وفق أولوياتنا دون تجاهل لِما يجرى حولنا، مع الحرص على الفصل والتمييز بين ما هو سياسى داخلى أو خارجى وما هو معرفى يمليه البحث والدرس للواقع. ■

هـــــوامـــــش

(١) سيد قطب، معالم فى الطريق، القاهرة، دار الشروق، المقدمة.

(٢) يقول أحمد عبد المجيد وهو من تنظيم ٦٥ الخاص فى شهادته عن قطب: «حدث تغيير فى أفكار سيد قطب، فعندما كان فى مستشفى ليمان طرة، طلب من أسرته كتب الشهيد «حسن البنا»، والأستاذ «أبو الأعلى المودودى»، فبدأ يتنبه إلى أمور كانت غائبة عنه، خاصة فى ضرورة التركيز على موضوع العقيدة، ثم بدأ يطلب كتب «ابن تيمية» و«ابن القيم»، وبدأ التغير فى تفكيره وكتاباته، وظهر ذلك جلياً فى الطبعة الثانية من الظلال، بدءا من الجزء (١٣) والأجزاء الأخيرة، وكتاب «خصائص التصور الإسلامى»، و«مقومات التصور الإسلامى» و«معالم فى الطريق». (الشهادة منشورة ضمن هذا الكتاب).

(٣) عبد الله عزام، عملاق الفكر الإسلامى الشهيد سيد قطب، باكستان، مركز شهيد عزام الإعلامى، ط١، ص٢٧.

(٤) فى تصريح مع كميل الطويل، أبو قتادة: الظواهرى «حكيم الحركة الإسلامية» وكتاب الزيات عنه «انتقام» و«حالة شاذة»، الحياة ٢٠٠٤/ ١٢/٠٥.

(٥) أبو قتادة (عمر محمود أبو عمر)، الجهاد والاجتهاد: تأملات فى المنهج، (نسخة إنترنت) فصل (الجهاد والتغيير)، ص٤٥.

(٦) المرجع السابق، ص٤٨.

(٧) انظر: صالح سرية، رسالة الإيمان، ضمن: رفعت سيد أحمد، النبى المسلح ١٩٩١م.

(٨) انظر: أنور أبو طه، حركة الجهاد الإسلامى فى فلسطين، رسالة جامعية فى علم الاجتماع السياسى، الجامعة اللبنانية، ١٩٩٩م، فصل: «أيديولوجيا الإسلام المحارب». سنة ١٩٩٩م.

(٩) قال ذلك فى المعجم المؤسس له، ونقله عنه السخاوى أيضاً، ونقله: الكتانى، فهرس الفهارس، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامى، ج١ص٣٣٧ .

(١٠) الذهبى، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ج١٧ص١٦٧.

(١١) القرضاوى، ابن القرية والكتاب، القاهرة: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٦م، ج٣، ص٦٢. وأصل الكلام فى مجلة الشهاب، سنة ١٩٧٢م، بعنوان: «سيد قطب فى يوم ذكراه» بقلم محمد البدرى، وقد حكاه عمن وُصف بأنه «حوارىّ سيد قطب».

(١٢) انظرها فى هذا الكتاب.

(١٣) كصلاح عبد الفتاح الخالدى، سيد قطب، (أعلام المسلمين)، دمشق، دار القلم، ط١، ٢٠٠٠م، ص٥٨٠

(١٤) سيد قطب، لماذا أعدمونى، الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، ص٣٦.

(١٥) عالج هذا السؤال: عبد الرحمن الحاج، فى مقاله: فلسفة العلم.. أزمة المعرفة فى سياق الحداثة ، مقال منشور على موقع «إسلام أونلاين.نت».

(١٦) نقل عنه مثلاً فى «المستقبل لهذا الدين» الذى صدر سنة ١٩٦٠م نحو ١٠ صفحات، وفى «الإسلام ومشكلات الحضارة» الذى أصدره سنة ١٩٦٢م نحو ١٥ صفحة فى فصل بعنوان كتاب كاريل نفسه «الإنسان ذلك المجهول»، فضلا عن تكرار نقله عنه فى مواضع متعددة من الكتاب.

فوق الاتهام .. ولكن

■■ قد يبدو غريباً أن يكون شخص فوق الاتهام!. لكن هذا جاء ليُمايز معالجتنا هذه لموضوع (سيد قطب وفكره) عن تلك (القراءة المريضة). وربما سماها البعض (القراءة الظاهرية)، وفى هذا ظلم لمذهب إمامٍ كبير بوزن ابن حزم رحمه الله، مهما يكن موقفنا منه. فآفة تلك القراءة المريضة فى عقول أصحابها وقلوبهم التى سوّلت لهم القول بكفر قطب نفسه أو أنه يقول بوحدة الوجود أو ما شابه ذلك!.

كما أن نفى الاتهام وُضع ليميز بين الطعن فى الأشخاص ومناقشة الأفكار، فلسنا هنا معنيين بشخص قطب. رحمه الله- جرحًا أو تعديلاً على طريقة المتسلفين الجدد الذين شوهوا علمًا جليلاً اسمه (الجرح والتعديل) فجعلوه مطية لادعاءاتهم وتصفية حساباتهم مع خصومهم!.

إنه يجب الفصل - بحدة - بين الأفكار والأشخاص، وبين صحة الأفكار وتضحية أصحابها ومصيرهم، فموت الأشخاص فى سبيل فكرة لا يعنى صحتها، ولكن لا شك أننا نقدّر هذا الصدق والإخلاص للأفكار. مهما تكن - وقد عزّ فى زماننا!. فهذان موقفان متمايزان: موقف أخلاقى نلتزمه، وموقف فكرى نناقشه ونأخذ منه وندع.

سيد قطب فوق الاتهام بوَصْفه شخصًا دفع حياته ثمنًا لأفكاره، وشَهِد أنّ شرع الله - وفق اجتهاده وإن اختلفنا معه - أغلى من حياته، ورفض أن يشترى الحياة الزائلة بكذبة لن تزول! وقال: إنه يرفض أن يكتب بسبّابةٍ توحّد الله ما يضارّها!. وهو القائل: (إن كلماتنا ستبقى عرائس من الشموع حتى إذا متنا من أجلها انتفضت حية وعاشت بين الأحياء)، وهذا ما يجعل من الفصل بين صحة الفكرة وتضحية أصحابها فى سبيلها صعبًا على المستوى المنهجى، فالناس تتعاطف دائمًا مع الضحية، وأفكار الموتى تتقدس، فكيف بمَن وُصفوا بالشهادة؟ إنها بهذا تتغذى من مَعين الثورية والقدسية معًا!. وهذا من شأنه أن يزيد الأمور تعقيداً، ويصعّب الأمر على الباحثين فى فكر سيد - رحمه الله.

لم يَدُر فى خلدى يومًا أن أخصص كتاباً موضوعه سيد قطب، إلا أن وقفة العلامة الشيخ يوسف القرضاوى (مع الشهيد سيد قطب) فى مذكّراته التى نشرها، وقوله: إن سيداً ركَن إلى التكفير وتَوَسع فيه، أثار انتقادات استدعت فكر الرجل، فنهض الشيخ للدفاع عن رأيه وكتب ما نُشر تحت عنوان (هل يُكَفر قطب مسلمى اليوم؟)، فزادت الانتقادات، ووجدنا أنفسنا متورطين فى الموضوع، فخصصتُ ملفًا عن الموضوع نُشر على موقع إسلام أونلاين سنة ٢٠٠٤م، قرأه الشيخ القرضاوى كاملاً، ثم كتب ما أسماه (كلمة أخيرة حول سيد قطب)، علّق فيها على ما جاء فى الملف من مقالات وشهادات وانتقادات، ثم هدأت القضية وخِلتُ أن المعالجة بهذا كَفَت وَوَفت، حتى عادت المسألة إلى ساحة المناقشة والجدل من جديد فى سنة ٢٠٠٩ حينما تحدث الشيخ القرضاوى - مرة أخرى - عن موقفه من سيد قطب فى برنامج (منابر ومدافع) على إحدى الفضائيات المصرية: (فراعين)، فعاد السجال سيرتَه الأولى واحتدم، وانقسم الناس فِرَقًا!. وهذا ما استدعانى مرة أخرى إلى تخصيص هذا الكتاب عن الشهيد سيد قطب - رحمه الله - وفكره.

ومن المهم هنا أن نبيّن تاريخ الاهتمام بفكرة التكفير؛ فقد بدأت فى السجن أولَ الأمر، حين انتشرت بين مَن سُمّوا (إخوان ١٩٦٥م) داخل المعتقلات، وأثارت فتنةً عارمة فى صفوف الإخوان استدعت - فى حينها - أن تُصدر الجماعة سنة ١٩٦٩م كتاب (دعاة لا قضاة) بتوقيع المرشد العام حسن الهضيبى رحمه الله، الذى تمّ تداوله بين صفوف الجماعة حتى إنه كان يُسمى (البحث)، وذلك لمحاولة ضبط الوضع خوفًا من انتشار فكرة التكفير والحكم على معتقدات الناس.

ويبدو أن تلك الفكرة انتشرت بعد كتاب (المعالم) الذى تم تصنيفه فى السجن قبل الإفراج عنه للمرة الأولى سنة ١٩٦٤م[1]، وقد تكون تلك المحنة - أعنى فكرة التكفير- من آثار ذلك الكتاب، وقد رأى جمال باروت فى مقاله الآتى أن حسن الهضيبى فى كتابه يردّ على (معالم فى الطريق) خاصة، مع أنه لم يذكر اسم سيد قطب ولا مرةً واحدةً فى الكتاب!، لكن الشيخ القرضاوى - كما سيأتى - يعتقد اعتقاداً جازمًا أن الهضيبى وإخوانَه لم يقرؤوا ما كتبه سيد فى ذلك الوقت، وإلا لَردّوا عليه بالاسم، فى حين أن اسم المودودى والنقد الصريح له ورد فى الكتاب المشار إليه. والسبب فى ذلك - كما يرى الشيخ القرضاوى- أن كتابات قطب الجديدة لم تكن انتشرت فى ذلك الوقت، ولذلك كانت كل المحاورات والمجادلات تدور حول ما سمعه بعض الأشخاص من سيد مشافهة.

الموجة الثانية من فكرة التكفير- إن صح التعبير- كانت فى سنة ١٩٧٢م فى الذكرى السادسة على استشهاد سيد قطب - رحمه الله- فقد أفردت مجلة (الشهاب) التى كانت تصدرها الجماعة الإسلامية فى لبنان، صفحاتٍ للحديث عن سيد وفكره فى ذكراه، بدأتْ بمقالة لمحمد البدرى بعنوان (سيد قطب فى يوم ذكراه) نقل فيها عمن (مكث مع سيد قطب عشر سنوات لا يفرقهما إلا نداء السجان عند الغروب ليدخل كلٌّ إلى زنزانته، ويجمعهما الصباح من جديد ليقضيا يومًا كله علم وفكر ودراسة فى ظلال القرآن، فكان تلميذَ السيد وحواريَّه وحاملَ فكره والداعى إليه. هكذا قال عنه السيد نفسه رحمه الله، وهكذا عرفه إخوانه).

فى تلك المقالة يتحدث هذا الحوارىّ عن ظروف نشأة تلك الأفكار، والضغوط والملابسات التى عاشوا فيها فولّدت تلك الأفكار، وينقل عن سيد قوله: إنه غيّر فى الأصول لا فى الفروع، ونقل فيها البدرى عن حوارىّ قطب هذا الذى لم يُسمِّه قوله: (وما أحسب سيد قطب والله - بما

أزمة أفكار .. أم مشكلة قراء
سيد قطب.. وجماعات العنف والتكفير
سلسلة «الإسلاميون.. طرق وحركات»
اعداد وتحرير: معتز الخطيب
شبكة «اسلام أون لاين» - القاهرة ٢٠٠٩

من المؤسف أن لا يدرك بعض الشباب المخلص أن ما يقوله إنسان أو يكتبه فى مثل هذه الظروف لا يمكن أن يكون معبِّراً عن حقيقة رأيه فيما لو عاش ظروفاً طبيعية هادئة

عرفته فيه وخبرته منه- لو امتدّ به الأجل، واستقبل من أمره ما استدبر، ورجع إلى دنيا الناس وواقع الحياة إلا غيّر وجدّد ورأى غير ما كان يرى، وقال غير ما كان يقول).

لكن مقالة البدرى أثارت ردوداً من المتحزبين لقطب، فكتب حامد أبو ناصر: (ليس فى فكر سيد ما تدعو الحاجة لتعديله)، وفيه رأى أن سيداً (بنى آراءه وأفكاره على أصول راسخة رسوخ الجبال)، ويقدم النصح للبدرى وأمثاله بالقول: (نحن ننصح لهؤلاء أن يحتفظوا بأفكارهم ويتركوا شباب الدعوة وجيلها الجديد يتسلح بهذه الأفكار ويشق طريقه من خلال ظلام الجاهلية ليعيد الصرح الإسلامى الجديد)، ويتساءل عن الشىء الذى سيغيره قطب لو امتد به الأجل، (وهل العقائد عرضة للتغيير والتبديل حسب ظروف الفسحة والشدة؟). (صحيح أن الذى يستقصى حال المجتمع من الخمسينيات وحتى السبعينيات يجد أن المجتمع قد انتقل نقلة بعيدة، ولكن فى مجال البعد عن الله عز وجل، ويجد أن التجدد فيما يقدمه اليهود وأتباعهم لهذه الأمة من موضات فكرية وتقليعات فى العادات واللباس).

إن صاحب هذا المقال يلح على استمرار الجاهلية، وأن المسألة مسألة عقيدة لا تتغير، ولا بد من إقامة صرح الإسلام الجديد.

فى أعداد لاحقة، كتب ع. أبو عزة مقالين بعنوان: (الحركة الإسلامية فى الدوامة)، رأى فى جزئه الأول أن الحركة الإسلامية حققت أعمالاً مجيدة، لكنها تواجه اليوم - أى أوائل السبعينيات- فراغاً فكرياً مريعاً، أما فى جزئه الثانى (عدد ١٧ السنة السادسة ١٩٧٢) فقد استدعى وجهة نظر مخالفيه المفترضين فقال: (هؤلاء قد يحتجون - عادة - بأن هناك منهجاً حركياً مصوغاً مدوَّناً متكاملاً ومطبوعاً فى كتب تزخر بها المكتبة الإسلامية، وأن الحل الأمثل يكمن فى تبنى هذا المنهج... وهم يعنون بذلك ما تضمنه كتاب (معالم فى الطريق) للشهيد سيد قطب - رحمه الله).

ثم بدأ فى نقد فكر قطب وكتاب المعالم فقال: (رغم قناعتى بإخلاص صاحب المعالم - رحمه الله - إلا أننى مقتنع كذلك بأنه جانَبَ الصواب فى كثير من أجزاء الصورة التى تخيلها، والتى سماها الكثيرون من المتحمسين منهجاً، ورأوا فيها الخلاص). وكرر فكرة أن سيد قطب (صاغ منهجه وهو يعيش ظروفاً بالغة القسوة ويتعرض لاضطهاد بشع، ولقد استثارت فيه هذه الاضطهادات أعنف أنواع التحدى وأشد حالات الرفض، وقد عبّر عن هذه الأوضاع النفسية بعواطف مشبوبة وبأسلوب أدبى أخّاذ. وإذا كان له عذره فيما قال وكتب، فمن المؤسف أن لا يدرك بعض الشباب المخلص أن ما يقوله إنسان أو يكتبه فى مثل هذه الظروف لا يمكن أن يكون معبِّراً عن حقيقة رأيه فيما لو عاش ظروفاً طبيعية هادئة. إنها ليست منهجاً إسلامياً، إنها صرخات احتجاج عنيفة صادرة من قلب يتمزق ألماً ويذوب حرقة من لهب الاضطهاد المتلاحق).

ويرسم أبو عزة ملامح التفكير الجديد المرجو من الحركة الإسلامية بإعادة تحديد موقف الفرد الإسلامى - بوضوح- من حركته، فردياً وجماعياً، وموقفه من أفراد مجتمعه من مسلمين وغير مسلمين، ومن الشعوب الأخرى، ومن العالم أجمع. ثم إعادة تحديد موقف الحركة الإسلامية من مجتمعاتها وحكام بلادها على اختلاف مسالكهم، ومن عامة المسلمين وغير المسلمين، إلى جانب ملامح أخرى.

فأبو عزّة كتب فى الذكرى السادسة لقطب، نقداً جذرياً لفكر قطب، ومعالمه، واقترح إعادة التفكير من جديد فى مجمل المسائل التى طرحها قطب بتحديد الموقف من المجتمع والحكام والأفراد وغير المسلمين والرؤية إلى العالم وغير ذلك. وهو المنهج الذى رأى أنه يغيب عن الحركة الإسلامية فى وقتها، التى تعانى فراغاً كبيراً.

أثارت كتابة أبى عزة انتقادات، فكتب محمد سلامة جبر فى عدد لاحق ما عَنْوَنَه بـ(حاول أن يلغى بعشرة أسطر ما كتبه سيد قطب فى عشر سنوات)، قال فيه: إن سيد قطب لقى (أحسن المعاملة بعد انتهاء البداية القاسية للمحنة، ووضع فى المستشفى مدة سجنه، وسُمح له بالكتابة والنشر وزيارة الأهل له بانتظام...)، وإن سيداً (اعتصم بالدليل فى كل ما كتب، وفى كل ما خطّ من منهاج وغاية)، وإن وجوب الرد على أبى عزة ليس مبعثه الحرص على مقام سيد فى النفوس فقط، بل الحرص على عدم التشكيك فى الغاية التى حددها سيد والمنهاج الذى رسمه أيضاً.

ثم كتب محمد توفيق بركات مقالاً بعنوان (النقد بين الموضوعية والتشكيك)، ردّ فيه على أبى عزة، وأعاد القول: إن الأستاذ سيداً (كان فى جو يسمح له بالكتابة مدة سبع سنوات حيث انقطع التعذيب تقريباً فى أعوام ١٩٥٨م إلى ١٩٦٥م، حين اعتُقل ثانية)، وقال: إن الموضوعات التى اقترحها للتفكير قد (أجاب عليها سيد قطب بصورة مفصلة، وأجاب على موضوعات أخرى لم يخطر لأبى عزة أن يومئ إليها!).

ثم كتب حامد الرفاعى (فكر سيد قطب يواجه التحديات)، ورأى أن هناك (هجمة عنيفة ومركزة تستهدف فكر المجاهد الشهيد سيد قطب طيّب الله ثراه)، ورأى أن تلك الهجمة مشبوهة، وتساءل فى آخر المقال: (ما هى الفائدة المرجوة وفى مثل هذه الظروف القاسية المريرة التى تعانيها الحركة الإسلامية فى كل مكان، من الخوض فى مثل هذه الموضوعات على افتراض وجودها...)؟.

ثم كتب صالح عرفان مقالاً رأى أن سيداً (رسم صورة حقيقية لمجتمع خبره وعرفه عشرات السنين)، وأنه قد (شهد لكتاب المعالم كبار رجال الفكر الإسلامى، بل إن الأستاذ على الطنطاوى وصفه بأنه أفضل كتاب أُلّف فى العشرين سنة الأخيرة)، وأن سيداً (كتب المعالم فى الفترة الأولى من سجنه وليس فى الفترة الثانية التى تعرّض فيها لاضطهاد أبشع وأقسى، أى فى نفس الفترة التى كتب فيها الظلال)[٢]، وإلا علينا أن نسلم بأن الظلال أيضاً صرخات!. ثم (إن كبار المفكرين وأصحاب المذاهب الفكرية والمذهبية كتبوا أحسن ما كتبوا وهم فى السجون)، والمرحوم سيد هو الوحيد صاحب المدرسة الفكرية الجديدة من بين أبناء الدعوة بعد المرحوم حسن البنا، هو الوحيد الذى زوّد الدعوة بآراء واجتهادات جديدة وجريئة وواثقة.

وقد دفعت هذه الردود ع. أبو عزة إلى إثبات أن سيد قطب يكفّر عامة المسلمين، فكتب مقالاً مطوَّلاً عن (التكفير والجاهلية) نُشر على ثلاثة أجزاء[٣]، أورد فيه نقولاً من كتاب المعالم تحتوى على التكفير، ثم بيَّن موقف العلماء من التكفير.

الموجة الثالثة من التكفير - إن صحّ التعبير كذلك- كانت فى سنة ٢٠٠٤م حينما تَعرَّض الشيخ القرضاوى- أثناء كتابة مذكراته- إلى موقفه من سيد قطب، وأنه رَكَن إلى التكفير ومال إليه، فأثار كلامه انتقادات عديدة كان بعضها حاداً، فاضطُرّ لجمع النصوص المؤيدة لكلامه من كتب قطب: الظلال، والمعالم، والعدالة الاجتماعية، وهذه الموجة التى ساهمتُ فيها بالإعداد والتحرير والنشر على شبكة إسلام أونلاين. ثم أُعيد فتح الموضوع سنة ٢٠٠٩م حينما تحدث فى البرنامج المشار إليه سابقاً، وأثار انتقادات غلب عليها الانفعال والإنشاء، نُشرت على شبكة إسلام أونلاين ولم نتعرض لها فى هذا

إن وجوب الرد على أبى عزة ليس مبعثه الحرص على مقام سيد فى النفوس فقط، بل الحرص على عدم التشكيك فى الغاية التى حددها سيد والمنهاج الذى رسمه أيضاً

الكتاب؛ لأنها تفتقر إلى العمق والجدية، مكتفين بانتقادات سنة ٢٠٠٤م.

وقد بدأ نَقْد القرضاوى لأفكار سيد قطب مبكراً فى بداية الثمانينيات من خلال نقده لموقف قطب من الاجتهاد الفقهى، ودوّن ذلك فى كتابه (الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية)[٤]، وكذلك بدأ نَقده فى مسألة التوسع فى التكفير أثناء مشاركته فى أحد مؤتمرات البحرين مطلع الثمانينيات فيما أحسب.

والمتأمل لتاريخ الحركة الإسلامية الإخوانية تحديداً، يدرك أن فيها علامتين بارزتين بعد مؤسسها حسن البنا، وهما قطب والقرضاوى، فأحسب أن القرضاوى شغل فراغاً كبيراً عانى منه الإخوان، من حيث (غلبة الجانب العملى والجهادى على الجانب العلمى والفكرى)[٥]، وهذا الفراغ كان الدافع لمحاولة تلقيح فكر الإخوان المسلمين بفكر (الجماعة الإسلامية) فى شبه القارة الهندية[٦]. بل إن جهد القرضاوى يتضح بجلاء فى تنظيره للحركة الإسلامية، وتأصيله لقضاياها تأصيلاً (شرعيًا) يصل التراث بالمعاصرة، وفق مسلكيته الوسطية، وهذا ما يميزه عن كاتب بحجم الغزالى ـ رحمه الله ـ على عمق أفكار الغزالى ووضوح اتجاهه الإصلاحى.

ويتضح هذا الفراغ الذى شغله القرضاوى، فى مجيئه بعد سيد قطب الكاتب الكبير الذى كسبه الإخوان فى صفوفهم، لكنهم غصّوا به وبفكره، فالفراغ الذى عانوا منه، والتلاقح الذى حصل من فكر المودودى، توّجَه انضمام سيد قطب إليهم، وتطويره لأفكار المودودى: الحاكمية والجاهلية، وهو ما أحدث انتقاداً واسعًا داخل الجماعة نفسها، وبقى محلّ جدل حتى الآن، إذ لا تزال تعزى ظواهر العنف والتكفير إلى سيد قطب بوصفه الأب الروحى لها[٧].

وفى الواقع ساهمت جهود القرضاوى فى رأب الصدع الذى أحدثته أفكار سيد قطب، التى خالف فيها دعاة الحركة الإسلامية قبله، وأبرزها أربع أفكار بالغة الخطورة: الأولى: (الحاكمية السياسية) التى استعارها من المودودى، وعنها برزت فكرة تكفير الأنظمة القائمة، والثانية: أنه بنى على فكرة الحاكمية تكفير المجتمعات المسلمة وأنها لا بد أن تدخل الإسلام من جديد عبر شهادة أن لا إله إلا الله على معنى الحاكمية المطلقة، والثالثة: أنه قدم مفهوماً جديداً للجهاد اعتبره فيه حربًا على العالم بأسره، والرابعة: أنه لا معنى ـ برأيه ـ لما يحاوله علماء العصر من تطوير الفقه الإسلامى أو تجديده أو إحياء الاجتهاد فيه، ما دام المجتمع المسلم غائبًا من أصله. فإيجاد المجتمع المسلم يسبق الاجتهاد له لحل مشكلاته.

لم يكن القرضاوى فى تلك المرحلة قد برز كاتبًا مشهوراً، فهو حين خرج من مصر ١٩٦١/٩/١٢م لم يكن له إلا كتابان[٨] هما: الحلال والحرام، والعبادة فى الإسلام، وهما كتابان لا يبدو فيهما البعد الشمولى للإسلام ذى الغائية السياسية. وأحسب أن هذا البعد- على مستوى الكتابة ـ ظهر متأخراً بعد إعدام سيد قطب، والنكبة، وقد قام مشروعه ـ فى أصوله الكلية ـ على عكس مشروع سيد قطب تماماً، فهو بكتابته كتاب (الحلال والحرام) لمسلمى الغرب، يجتهد لمسلمين فى مجتمع غير مسلم أصلا، فى حين أن قطبًا يمنع الاجتهاد للمجتمع المسلم نفسه بحجة أن إسلامه غير صحيح!. وعلاقة القرضاوى بالغرب ليست علاقة مفاصلة، والجهاد لديه دفاعى وليس هجوميًا على عكس قطب، والمجتمعات الإسلامية إسلامها صحيح لكنه يحتاج إلى (ترشيد)، ولذلك كتب كتبه العديدة فى (ترشيد الصحوة)، بل إن القرضاوى قد آثر مناقشة أفكار قطب والرد عليه فى مسائل عديدة بدأت بفكرة الاجتهاد، وانتهت بفكرة تكفير المجتمعات المسلمة.

القرضاوى قطف ثمار الصراع مع القومية والتقط اللحظة المناسبة للكتابة فى النظام السياسى الإسلامى بوصفه حلاً حتميًا

بل إن القرضاوى أدرك ذلك الفراغ الفكرى فى الحركة الإسلامية وراح يملؤه، أولا من حيث إنتاجه الوفير فى مجالات العلم الشرعى والفكر والحركة، ثم فى إدراك نقطة الضعف الأساسية فى مشروع قطب وهى (أنه كان شديد الإعجاب بعلامة الهند الكبير الأستاذ أبى الأعلى المودودى وأنه اقتبس ـ تقريبًا ـ جميع الأفكار التى كانت موضع الانتقاد فى مشروع المودودى)[٩].

والقرضاوى مع هذا، أفاد من قطب ومن المرحلة التاريخية التى عاش فيها، فقد قطف ثمار الصراع مع القومية والتقط اللحظة المناسبة للكتابة فى النظام السياسى الإسلامى بوصفه حلاً حتميًا، وذلك بعد إعدام قطب وفى ظل نكبة القومية العربية. جاء ذلك فى سياق توسع شعبى ملموس لدائرة النشاط الدينى وبروز بوادر (الصحوة الإسلامية)، ولهذا فقد (نجحت المرجعية الإسلامية فى جذب جمهور واسع لأنها قادرة كعقيدة دينية على تجاوز التقسيمات التقليدية التى كانت تفرزها العقائديات الحديثة الطبقية والفكرية، وفتح المجال أمام تكوين تآلفات سياسية جديدة... لا تقبل ولا تقصى إلا على أساس معيار واحد: إعلان الانتماء للإسلام والأخذ به شعاراً سياسيًا إضافة إلى ما يمثله بشكل طبيعى كدين)[١٠].

بهذا المعنى، يمكن فهم وسطية القرضاوى، وإضافته التى قدمها للحركة الإسلامية، لجهة ترشيد الحاكمية والصحوة الإسلامية، ولجهة ممارسة الاجتهاد الفقهى، وبهذا المعنى شكّل رافداً كبيراً لإزالة الغلو والتطرف الذى طرأ على الحالة الإسلامية بفضل تنظيرات المودودى وسيد قطب (الانفصالية)، وما لحقهما من جماعات تَغَذت على أفكارهما[١١]، وهذا المعنى الذى أشرحه لم يتنبه إليه بعض دعاة العلمانية من خصومه الذين يخوضون معارك شخصية وأيديولوجية معه ومع فكره، دون إدراك للحالة الفكرية والاجتماعية العامة التى سادت منذ السبعينيات وحتى الآن، وكيف أنه شكّل صمَام أمان حال دون توسع مزاج التشدد وأفكاره فبقى مقصوراً على جماعات وفئات معزولة هنا وهناك.

باختصار، جاء مشروع القرضاوى ضد مشروع قطب الذى تعاطى مع الإسلام كتلةً واحدة لا تقبل التجزىء ورأى أن الأمة المسلمة انقطعت، وفَرْقُ ما بينهما فرقُ ما بين الداعية المناضل، والداعية الفقيه.

إنه بالرغم من رأينا السابق، فإن فكر قطب يبقى فكراً جدليًا يثير الكثير من التساؤلات عن سياقاته وكيفيات تَشَكُّله وتحولاته، وعن علاقته بالتكفير، وبجماعات العنف، وبتنظيم ٦٥، وبفكر الإخوان، وغير ذلك من مفاهيم كالجاهلية والحاكمية وغيرهما.

إن هذا الكتاب حول (سيد قطب)، يتناول علاقة فكر قطب بقضيتين رئيسيتين هما: التكفير، والعنف، وهو إذ يفعل ذلك يُظهر اختلاف أنظار الناس فى فهم مقولاته، وقراءة فكره فى سياقه العام، ولكلٍّ وجهةٌ هو مُوَلّيها. والجدل حول (سيد) ليس جديداً، ولا ضيقاً، ومع ذلك فهو يلقى تعاطفاً كبيراً فى أوساط الإسلاميين، مقابل خصومة شديدة من غيرهم، والبعض يرى فيه ابتعاثًا لفرقة الخوارج التى ظهرت فى القرن الهجرى الأول ورفعت شعار (لا حكم إلا لله). وبعضٌ آخر يرى أنه أسس للتشدد الدينى ومهّد لحركات التكفير والهجرة التى عرفتها الساحة العربية والإسلامية فى الثمانينيات وما بعدها.

لأجل ما سبق كله فتحنا الباب لمختلف وجهات النظر، فهو بالاعتبار الأول ربما يقرؤه البعض على أنه جدل (حزبى)، وعلى الاعتبار الثانى نرى أنه موضوع راهن له صلة بالحديث عن العنف والدولة ورؤية حركات الإسلام السياسى والتغيير والإصلاح.

تناول هذا الكتاب على المستوى المنهجى ثلاثة محاور:

- مقالات تحليلية عن فكر قطب

انشغلت بأسئلة رئيسة هى: السياق التاريخى لنشأة فكر قطب والموازنة بينه وبين البنا (طارق البِشْرى)، وعلاقة فكر قطب بفكر جماعات العنف والصلة الفكرية بينهما (معتز الخطيب)، ثم قضية التكفير عند قطب وهل يكفر المجتمع؟ (القرضاوى وجمال سلطان ويحيى هاشم)، وموقف حركة الإخوان من فكر قطب والقطبية (جمال باروت).

● نصوص لقطب من كتبه الثلاثة: فى ظلال القرآن، ومعالم فى الطريق، والعدالة الاجتماعية فى الإسلام، تحمل ـ بحسب البعض- تكفيرا منه للمجتمع، وهى ـ بحسب آخرين- مشتبهة يجب تأويلها.

● شهادات تاريخية: وهى لها أهميتها المنهجية فى الحديث عن فكر قطب، سواء لجهة فكر الرجل بشكل عام، أم لقضية التكفير على وجه الخصوص، وكذلك من جهة مكانة فكره، وتعاطى مَنْ حولَه مع انشغالاته وقراءتهم له، وهو ما يعتبر تأريخًا لمرحلة مهمة من تاريخ الحركة الإسلامية. وقد حَرَصتُ أن تكون الشهادات على قسمين: شهادات لأموات دوّنوها فى مذكراتهم أو نحوها، وشهادات لأحياء كانوا مع سيد قطب، وخصوصاً من تنظيم ١٩٦٥م الذى ظهرت بينه قضية التكفير قديماً سنة ١٩٦٨م لأول مرة.

وقد ختمتُ الكتاب بفصل مستقل خصصتُه للحديث عن الصراع بين السلطة والمعرفة، قدّم فيه رضوان زيادة قراءةً لذلك الجدل القديم المتجدد، من خلال الكتاب الشهير لقطب: (معالم فى الطريق).

أما المشاركون فى هذا الكتاب: فقد حرصتُ على تنوعهم بين إسلاميين وغيرهم، وبين إسلاميين مستقلين غير منتمين، وبين منتمين، وبين بعض الإخوان فى توجههم العام وبين توجه تنظيم ١٩٦٥م، وأرجو بهذا أن أكون أتحت مختلف الآراء وَوَفيت الموضوع حقه.

وقد حرَّرت النصوص، وراجعتها، ووضعتُ لها ـ فى الأغلب الأعم ـ عناوين فرعية تسهيلاً على القارئ.

واللهَ أسأل النفعَ والقبولَ والمغفرة والسداد، ورحم الله الشهيد سيد قطب وحشرنا وإياه فى زمرة النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقًا. ■

هوامش

(١) ينبغى التنبيه إلى أن أصل كتاب المعالم مستلٌ من كتاب «فى ظلال القرآن»، مع زيادات عليه. ويظن البعض أن الكتاب كان السبب فى إعدام سيد قطب، ولكن ذلك غير دقيق؛ فالكتاب نُشر فى عهد عبد الناصر، ويبدو أن السلطات لم تدرك خطورة الكتاب وقتها.

(٢) تأمل إصرار ثلاثة من الكتّاب على التخفيف من وطأة السجن أو تصويره على أنه مريح؛ للرد على فكرة أبى عزة!. مع أن محمد البدرى حين نقل عن حوارىّ سيد وصفه للظروف والضغوط والأجواء التى وُلدت فيها الأفكار لم يتطرق إلى فكرة التعذيب أصلاً!. فلو أخذنا برأى الناقدين أنفسهم بشخصية قطب، وأنه كان مرهف الإحساس أدبيًا، فإن الأثر المعنوى للسجن أبلغ من مسألة التعذيب، ولنا فى محمد الماغوط خيرُ مثال على أثر السجن فى بنائه النفسى وتفكيره، مع أنه سُجن لمدة قصيرة جداً، ولا أعرف أنه لقى تعذيبًا ولم يتحدث عن تعذيب، ووصف إحساسه بالسجن فقال: «أحسست أن بداخلى شيئًا تَحطّم، فكل كتابتى ـ بعد السجن ـ من مسرح وشعر وسينما وصحافة كانت حتى أرمم هذا الكسر، وما قدرت على ترميمه حتى الآن»!.

(٣) نشرنا هنا فى هذا الكتاب جزءيه الأول والثانى.

(٤) صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٥م، وأصله بحث لملتقى الفكر الإسلامى فى الجزائر سنة ١٩٨٣م، ثم طوره.

(٥) القرضاوى، ابن القرية، القاهرة: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٢م، ٣١٩/١.، وانظر اجتماعه مع عدد من إخوانه بدافع شعورهم بأن الجانب الفكرى فى الجماعة يجب أن يُنمّى وأن يؤصّل فى ٣/ ١٥٥.

(٦) انظر: القرضاوى، ابن القرية، ٣١٩/١، وخليل على حيدر، الحركات الإسلامية فى الدول العربية، الإمارات: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط١، ١٩٩٨، ص٢٣-٢٤.

(٧) سيأتى الحديث عن سيد قطب وجماعات العنف فى هذا الكتاب.

(٨) كتب بعض الرسائل الصغيرة مثل «قطوف دانية» و«رسالتك أيها المسلم» وغيرها. انظر: ابن القرية، ٢٩١/٢.

(٩) القرضاوى، ابن القرية والكتاب، ٦٥/٣-٦٦.

(١٠) برهان غليون، نقد السياسة: الدولة والدين، بيروت: المركز الثقافى العربى، ط٣، ٢٠٠٤م، ص٢٨١-٢٨٢.

(١١) يرى فهمى جدعان أن نزعة الانفصال والتقابل لم تنجم إلا مع المودودى وسيد قطب والجماعات المنعوتة بالأصولية، بفضل فكرة الحاكمية التى جعلت «الحكم الإسلامى» مبدأ لكل فعل فى المجتمع والدولة. انظر: فهمى جدعان، فى الخلاص النهائى، عمّان: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٧م ص٣٢٢.

كتاب الزاوية

قصيدة اعتذار لأبى تمام
نزار قبانى

(٤)

أَبَا تَمَّامَ .. أَينَ تَكُونُ .. أَينَ حَدِيثُكَ العَطِرُ ؟
وأين يدٌ مُغامِرةٌ تسافرُ فى مَجَاهِيلٍ ، وَتَبتَكِرُ ..
أَبَا تَمَّامَ ..
أَرمَلَةٌ قَصَائِدُنَا .. وَأرمَلَةٌ كتَابَتُنَا ..
وَأرمَلَةٌ هِىَ الأَلْفَاظُ وَالصُّوَرُ..
فلا ماءٌ يسيلُ على دَفَاتِرِنَا..
ولا ريحٌ تَهُبُّ على مَرَاكِبِنَا
ولا شمسٌ وَلاَ قَمَرُ
أبا تمامَ ، دارَ الشعرُ دورَتَهُ
وَثَارَ اللَّفظُ .. والقَامُوسُ..
ثَارَ البَدوُ وَالْحَضَرُ ..
وملَّ البحرُ زرقَتَهُ ..
وَملَّ جُذُوعَهُ الشَّجَرُ
ونحنُ هُنَا ..
كأهلِ الكهفِ .. لاَ عِلمٌ ولاَ خَبَرُ
فَلاَ ثُوَّارُنَا ثَارُوا ..
ولا شُعَرَاؤُنَا شَعَرُوا ..
أَبَا تَمَّامَ : لاَ تَقرَأْ قَصَائِدَنَا ..
فَكُلُّ قُصُورِنَا وَرَقُ ..
وَكُلُّ دُمُوعِنَا حَجَرُ ..

قـــراءة يابانيـــة..

أمين ميزوتانى عـن أحمـــد أمـين

وليـد محمـود عبـد النـاصـر

إن الثقافة اليابانيـة ترتكـز على مفهوم «العار»، بينما الثقافة الغربية مثلا تستند إلى مفهوم «الخطيئة»

■■ نعرض هنا لدراسة شاملة ومتعمقة لكاتب وباحث يابانى مسلم حول حياة وآراء ونضال المفكر الإسلامى المستنير فى بعض الروايات، والليبرالى فى روايات أخرى، و«الإصلاحى» فى روايات ثالثة، أو كما يسميه المؤلف «أمين ميزوتانى» بـ «المعتدل»، وهو الأستاذ الكبير أحمد أمين (١٨٨٦ - ١٩٥٤) رحمه الله. وقد حاول المؤلف الاستعانة بأكبر قدر من المصادر من كتب ومقالات وغيرها، وفى مقدمتها بالطبع كتب ومقالات المفكر الراحل ذاته، بالإضافة إلى الكثير مما كتب عنه. رحمه الله. من كتب ومقالات لباحثين ونقاد. ويتناول المؤلف آراء الأستاذ أحمد أمين حول الحياة الإنسانية، الإسلام، السياسة، الحضارة، المجتمع، الثقافة، اللغة والأدب. ويدفع المؤلف بأنه بينما يرى البعض أن هذه المجالات تبدو منقطعة الصلة ببعضها البعض، فإن الأستاذ أحمد أمين اعتبرها جميعاً مكونات مترابطة ضمن منظومة فكرية متكاملة تهدف لاستعادة الأيام المجيدة للإسلام بل وتجاوز ما حدث من تقدم فى تلك الأيام الخوالى. فقد كانت المسألة الجوهرية من وجهة نظر الأستاذ أحمد أمين، بحسب أمين ميزوتانى، هى كيفية تطوير إيمان حقيقى بجوهر العقيدة الإسلامية، والانطلاق من هناك لتناول ميادين أخرى من الحياة الإنسانية والحضارة والسياسة والأدب.

وللدراسة التى نتعرض لها فى هذا المقال أهمية بالغة نظراً لأنها تحمل رسالة ذات قيمة خاصة للقارئ اليابانى، خاصة منذ ما بعد الهزيمة العسكرية والسياسية لليابان فى الحرب العالمية الثانية. فالأستاذ أحمد أمين نفسه سبق وأعرب عن الأسف فى بعض كتاباته تجاه ما أسماه بـ «حالة الإلحاد» والنزعة المادية لدى اليابانيين، وكان حديثه منصباً على الفترة ما قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، معتبراً أن اليابان كانت يمكن أن تصل لحال أفضل بكثير مما وصلت إليه لو كان هناك «عقل متدين» يدفع اليابانيين للأمام.

وهنا بالطبع يتعين لنا أن نذكر أن للشعب اليابانى تاريخا طويلا من الإيمان الدينى، خاصة بكل من الديانتين الشينتوية ثم البوذية، يمتد فى حالة الشينتوية إلى آلاف السنين، وفى حالة البوذية إلى ألف وخمسمائة عام تقريباً.

ولكن للكتاب أيضاً أهميته للقارئ العربى، حيث إنه بالرغم من إنجازات المفكر الكبير الراحل أحمد أمين وأعماله، فإن إسهاماته الفكرية لم تحظ من وجهة نظرنا بما تستحقه من اهتمام حتى هذه اللحظة فى العالمين العربى والإسلامى، ربما لأن نبرته كانت هادئة ومنهجه كان معتدلاً، بينما الإقبال هذه الأيام قد يكون أشد على الأكثر ضجيجاً وصخباً وحماساً، وربما أيضاً الأكثر محافظة. ولا شك أن أعمال الأستاذ أحمد أمين. رحمه الله. وشخصيته المتواضعة يستحقان الكثير من الدراسة والتأمل والاستحضار باعتباره واحداً من أهم وأعمق مصادر الحكمة والإثراء الفكرى للثقافة المصرية والعربية فى طورها الحديث. وبالرغم من تأثير الأستاذ أحمد أمين الكبير فى إحياء الهوية العربية والإسلامية على أسس حديثة، فإن إسهاماته لم يتم تقييمها على النحو الذى تستحقه بعد أكثر من نصف قرن على رحيله. بل إنه تم التعتيم على أعماله بدرجات متفاوتة فى العالم العربى، رغم الاهتمام الواسع بأفكاره فى الغرب.

وسنتعرض هنا بإيجاز لأهم مكونات كتاب الأستاذ أمين ميزوتانى عن المفكر الكبير أحمد أمين.

ففى المقدمة، يتعرض المؤلف لحياة الأستاذ أحمد أمين- رحمه الله -، ويتناول الأستاذ «ميزوتانى» البيئة المحيطة التى عاش فيها الراحل الأستاذ أحمد أمين، حيث كانت فترة اضطراب تمثلت فى الاحتلال البريطانى، والنضال الوطنى المصرى من أجل الاستقلال، واضطراب الحكم الملكى لمصر حينذاك، واقتصاد متذبذب، ثم اندلاع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢. ويستعرض المؤلف فى المقدمة الهدف من الدراسة، وهى محاولة إجراء تقييم موضوعى ودقيق وشامل لأفكار الأستاذ أحمد أمين- رحمه الله-، وهو الأمر الذى يشمل قراءة نقدية لكتبه، بداية بـ «فجر الإسلام»، ولأكثر من ٧٠٠ مقال كتبه، بالإضافة إلى ٣٥٠ مقالاً كتبت عنه اطلع عليها المؤلف، الذى يقول أنه استغرق ١٥ عاماً لإعداد الدراسة وإخراجها فى صيغة الكتاب الذى بين أيدينا.

وفى الفصل الأول من الكتاب، يبدأ المؤلف بالإشارة إلى أن الثقافة اليابانية ترتكز على مفهوم «العار»، بينما الثقافة الغربية مثلاً تستند إلى مفهوم «الخطيئة»، مشيراً إلى أن معرفة الإطار الثقافى والمنظومة القيمية التى تحكم كل مجتمع تساهم فى فهم الحياة الإنسانية. ويذكر

ميزوتانى

... لأفكار مصرية

المؤلف أن الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - تناول كثيراً هذه الموضوعات، علماً بأن هذه الموضوعات كانت محل اهتمام بشكل عام فى دوائر الفكر العربى والإسلامى، خاصة فى زمن الراحل الأستاذ أحمد أمين الذى اتصف، كما ذكر الأستاذ أمين ميزوتانى فى مقدمة كتابه، بالاضطراب، مما دفع إلى المزيد من التفكير والبحث فى هذه القضايا.

ويعتبر الأستاذ ميزوتانى أن رؤية الأستاذ أحمد أمين فى هذا المجال نابعة من الفكر الإسلامى ومتأصلة فيه، حيث رأى الأستاذ أحمد أمين أن جوهر الوجود الإنسانى هو الكيفية التى يدير بها الإنسان حياته بدون معرفة حقيقة هذه الحياة فى جوهرها ولماذا توجد على النحو الذى هى عليه. فالإنسان مكون من ثلاثة مكونات أساسية: الروح والجسد والعقل، وسعادة الإنسان وبهجته تتحققان عبر عملية مستمرة تحسن من قدرات الإنسان على تقدير درجات أعلى من الأمور والأشياء. وأكد الأستاذ أحمد أمين عبر مسيرته الفكرية أهمية قيم مثل الصدق والأمانة والشجاعة والعدل والإنصاف وغيرها ضمن منظومة قيمية متكاملة، تستهدف تحقيق هدف نهائى أسمى هو الخضوع لـ «الجمال المطلق» وهو ما يستوى مع التأمل فى هذا الكائن الأكبر المسمى «الكون». ويتناول المؤلف رؤية الأستاذ أحمد أمين بأن تقوية وتنقية الروح والعقل المتدينين الموجودين لدى كل إنسان يؤديان بالإنسان إلى فهم حقيقة معنى الحياة وبالتالى يشعر بالهدوء والسلام النفسيين فى هذه الحياة.

وفى الفصل الثانى من كتابه، يعرض المؤلف لثلاث مسائل متعلقة بالإسلام تناولها الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله -، وهى حسن تربية وتعليم المسلمين، الدفاع عن الدين فى مواجهة من أرادوا حينذاك تقويض دعائم الدين باسم العلم وتحت رايته، وإصلاح الفكر الإسلامى ذاته. وفيما يتعلق بالمسألة الأولى، يرى الأستاذ ميزوتانى أنه بالرغم مما بذله الأستاذ أحمد أمين من جهد فى هذا المجال، فإن هذه المسألة ما زالت مفتوحة ولم يتم حسمها فى العالم الإسلامى حتى اليوم، كما أنه من الثابت أن بعض من يتلقون تعليماً إسلامياً سليماً وهم صغار قد يتجهون بعيداً عن صحيح الدين فى اتجاهات شتى عندما يتقدم بهم العمر، وما زال من غير الواضح ما هى العوامل التى تبنى المسلم الحقيقى.

وهنا نختلف مع المؤلف فى تقييمه، لأننا نرى أنه لا توجد صورة نمطية ثابتة ومطلقة واحدة لـ «المسلم الحقيقى»، بل إن هناك تنوعاً فى هذا المجال، وهذا التنوع هو بلا شك أحد أوجه ثراء الإسلام عبر عصور ازدهاره.

وحول المسألة الثانية، يشير المؤلف إلى تركيز الراحل أحمد أمين على أن «الدين» مجاله «الإلهام»، وبالتالى فهو مستقل عن العلم بالضرورة، فالعلم يستهدف الوصول إلى الحقائق، والفن يستهدف الوصول إلى الجمال، والأخلاق تستهدف تحقيق الخير، أما الدين فيسمو على هذه المجالات الثلاثة وقيمها وغاياتها، فيجب على كل «مؤمن» أن يرفع من طاقاته وقدراته «الإلهامية» عبر التدريب الروحى مع إدماج العواطف فى هذه العملية.

أما فيما يتعلق بالمسألة الثالثة، فيرى الأستاذ «ميزوتانى» أن منظور الأستاذ أحمد أمين عن جوهر الإسلام يقع تحت تأثير الثقافات المتواجدة فى زمنه مما يجعل من فكره محاولة جادة لإصلاح الفكر الإسلامى. وقد تضمن فكر الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - مكونات أخرى للإصلاح والتجديد مثل الموقف من الشيعة وإعادة تقييم دور المعتزلة (أهل العدل والتوحيد) فى الفكر والتاريخ الإسلاميين، وذلك من منظور إصلاحى عقلانى وفى إطار طرح فكرى متكامل. ويقر المؤلف أن البعض انتقد الراحل أحمد أمين لغياب برنامج عمل محدد أو استراتيجية أو خطط تنفيذية لأفكاره.

ويبرز المؤلف فى ختام هذا الفصل أن الأستاذ أحمد أمين لم يكن يعتبر من تلاميذ الإمام محمد عبده فيما يتعلق بفكر الإصلاح الدينى.

وفى الفصل الثالث، يتناول الأستاذ «ميزوتانى» رحلة الأستاذ أحمد أمين إلى أوروبا وهو فى سن متأخرة نسبياً، وهى سن الخامسة والأربعين، ويعتبر أن الراحل أحمد أمين نجح فى استيعاب لب الحضارة الغربية، وذلك عبر قراءاته، وأساتذته وزملائه فى الجامعة، وكان من نتائج هذه الفترة دعوة الأستاذ أحمد أمين إلى «حضارة إنسانية» تتجاوز حالة الاستقطاب بين الشرق والغرب، حيث رأى أن الثقافات لا تتميز من خلال اختلاف الحدود الجغرافية بل عبر خصوصية سماتها وفرادة شخصيتها، كما أن تقدم الحضارات لا يتم على خطوات بل من خلال ملء أى فجوة أو عجز يوجد فى الحضارة القائمة. ودعا الأستاذ أحمد أمين إلى إضافة البعد الروحى إلى الحضارة الحديثة، وهى إضافة اعتبر أن «الشرق» - بمعناه الحضارى - هو الأكثر تأهيلاً للإسهام بها لأنه أكثر ثراءً فيها من «الغرب». ولكن الأستاذ أحمد أمين أكد مجدداً أن هذا ليس تصنيفاً جغرافياً، بل إنه كان يدعو لحضارة إنسانية.

ويعتبر الأستاذ ميزوتانى فى كتابه أن «الشرق» و«الغرب» على السواء تحركا فى نصف القرن الماضى بعيداً عما كان يطمح إليه الأستاذ أحمد أمين، فالشرق تحت قيادة مصر، على حد تعبير المؤلف، تحرك خلال الحقبة الناصرية بعيداً عن أفكار الأستاذ أحمد أمين ودعوته، كما أن الغرب أبدى امتعاضاً من كتاب آخر للأستاذ أحمد أمين بعنوان «يوم الإسلام»، وتضمن ما اعتبره الغرب مشاعر معادية له، لدى تناوله للحروب الصليبية والاستعمار الغربى الحديث للعالم الإسلامى وحرب فلسطين عام ١٩٤٨، وبالتالى لم تتحقق دعوة الأستاذ أحمد أمين لبناء حضارة إنسانية.

ونختلف هنا مع المؤلف فى أمرين، الأول أننا لا نرى أن توجه مصر بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان معادياً لفكرة الحضارة الإنسانية من جهة ولا لفكر الإصلاح الدينى من جهة أخرى. فقد انفتحت حكومة الثورة على ثقافات العالم المختلفة وفترة تولى الدكتور ثروت عكاشة لوزارة الثقافة فى ستينيات القرن العشرين تشهد على ذلك، كما أن فكر الإصلاح الدينى حقق طفرة على أيدى علماء كبار وأجلاء فى المقدمة منهم الشيخ محمود شلتوت الإمام الأكبر الراحل للأزهر الشريف، أيضاً فى ستينيات القرن العشرين. أما الأمر الثانى فهو أنه لا يمكن القفز إلى استنتاج بأن الطرح الفكرى الخاص بالأستاذ أحمد أمين والداعى إلى حضارة عالمية لم ينجح بسبب أنه لم يتحقق حتى الآن، نظراً لأن فى هذا الاستنتاج نرى تسرعاً وانزلاقاً للمصادرة على تطور حركة التاريخ التى ما تزال دائرة، وتوجد قوى وتيارات عديدة فى عالم اليوم، بشرقه وغربه، تدعو إلى حوار الثقافات والحضارات والأديان، ومنها من يدعو إلى بناء المشترك الثقافى بين مختلف ثقافات العالم، وهو طرح له أرضية ويكتسب المزيد منها كل يوم، ويقترب، من وجهة نظرنا، من دعوة الأستاذ أحمد أمين لبناء حضارة إنسانية.

وفى الفصل الرابع من كتابه، يستعرض الأستاذ أمين ميزوتانى الأبعاد السياسية والمجتمعية لفكر الراحل الأستاذ أحمد أمين، حيث يوضح المؤلف أن الأستاذ احمد أمين لم يكن ناشطاً سياسياً، ولكنه دخل عالم السياسة من بوابة مسعاه لتنوير أفكار وآراء المواطنين من خلال تقديم الفكر المنطقى والمستقل. وبالرغم من أنه سعى لدعم وجهات نظره من منطلقات إسلامية، فإن القيمة الحاكمة لديه فى هذا السياق كانت العدل. وكان الأستاذ أحمد أمين مدركاً لكون السياسة ليست مثل الظواهر الطبيعية أو الأقدار الإلهية، بل هى من صنع البشر، ويجب إدارتها من قبل المواطنين. ورأى المفكر الراحل أن الديمقراطية تمثل أداة عملية وجيدة يمكن توظيفها فى المعركة المزدوجة ضد الاستعمار والاستبداد، كما انتقد كون

لا توجد صورة نمطية ثابتة ومطلقة واحدة لـ «المسلم الحقيقى»، بل إن هناك تنوعاً فى هذا المجال، وهذا التنوع هو بلا شك أحد أوجه ثراء الإسلام عبر عصور ازدهاره

البعض يكتفى بالقول بأن أصول الديمقراطية موجودة فى الإسلام بدون بذل جهد للتعرف على مآثر الديمقراطية كما هى موجودة فى بعض دول العالم.

كما اعتبر الأستاذ أحمد أمين أن التاريخ ما هو إلا نتاج لعلاقات سببية يجب فهمها وتجاوز مرحلة مجرد كتابة التاريخ حتى يمكن استفادة دروس من التاريخ. وبدلاً من الحديث التقليدى للمفكرين المسلمين قبله عن واجبات المحكومين، تطرق المفكر الراحل إلى حقوق المحكومين وسعى لتعزيزها بينما دعا لانتقاد الحكام غير الأكفاء. وبينما أعرب الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - عن تأييده لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فإنه عبر عن تفضيله للعودة مرة أخرى إلى الحكم الديمقراطى النيابى الذى اعتبره الحكم الطبيعى. ويؤكد المؤلف أن مواقف الأستاذ أحمد أمين السياسية والمجتمعية ليبرالية، ولكنه يعتبر أن مثله مثل الليبراليين فى زمانه، وربما حتى اليوم، كان ينقص الأستاذ أحمد أمين بلورة برنامج وخطط عمل محددة بدلاً من مجرد الدعوات والكتابة والحديث عن أفكارهم.

ونعتقد أن الأستاذ «ميزوتانى» قد تحامل على الليبراليين العرب والمسلمين تاريخياً واليوم، فهو لا يتناول المعضلات والإشكاليات والتحديات التى واجهتهم والتى يتعين عليهم صياغة استجابات ملائمة لها، سواء تاريخياً مثل كون الغرب «الديمقراطى الليبرالى» هو قوة الاحتلال، أو اليوم مثل كون هذا الغرب ساعيا للهيمنة على مقدرات العرب والمسلمين والسيطرة على ثرواتهم الطبيعية والتدخل فى شئونهم الداخلية.

وفى الفصل الخامس من الكتاب، تطرق المؤلف إلى جانب آخر من فكر الراحل الأستاذ أحمد أمين، وهو المتعلق بإصلاح اللغة والأدب، حيث حاول المفكر الراحل إصلاح الخطاب الأدبى المستخدم ومفرداته وموضوعاته وأساليب التعبير اللغوى والأدبى، ووقف بوضوح ضد أصحاب مذهب «الفن من أجل الفن»، فبالنسبة له كان دور الأدب هو إدخال تحديث مجتمعى ودعم قوى التقدم.

ويشير المؤلف فى هذا الفصل إلى تعرض طرح الأستاذ أحمد أمين فى هذا المجال إلى انتقادات من المفكر الراحل وزميله حينذاك الأستاذ زكى مبارك، وذلك تحديداً عندما دعا الأستاذ أحمد أمين إلى فصل الشعر الجاهلى عن بقية الشعر العربى وتدريسه فى كليات متخصصة فقط، كما أن قاموساً للتعبيرات الكلاسيكية باللغة العربية التى استخدمت فى الشعر الجاهلى يجب أن يعد بشكل منفصل عن التعبيرات المستخدمة فى اللغة العربية الفصحى المستخدمة. وفى هذا المجال، وبالرغم من انحياز الأستاذ أحمد أمين إلى الخيار الإصلاحى، فإن انتقاده للشعر الجاهلى لم يساعد جهوده فى تحدى الدوائر التقليدية.

أما فيما يتعلق بإصلاح اللغة، فقد قدم المفكر الراحل اقتراحاً لمجمع اللغة العربية تضمن الدعوة لتخفيض عدد الكلمات المترادفة وتوحيد طريقة نطق الحروف المماثلة عندما تكون فى وسط الكلمات. ويظهر المؤلف أن كون المجمع قد ناقش هذه الاقتراحات فى مطلع الستينيات من القرن العشرين، أى بعد وفاة المفكر الراحل، كان دليلاً على بقاء التأثير الفكرى للأستاذ أحمد - رحمه الله.

أما فى خاتمة الكتاب، فإن الأستاذ «ميزوتانى» يعتبر أن توقيت تقييم الأستاذ أحمد أمين مناسب لكونه يتوافق مع مرور أكثر من نصف قرن على رحيل المفكر الراحل، مضيفاً أن أفكار الأستاذ أحمد أمين استقبلت بهدوء من جانب عموم القراء، ربما باستثناء كتاب «فجر الإسلام»، وموقفه من الشيعة، وكذلك انتقاداته للشعر الجاهلى. ويبرر المؤلف حرص الأستاذ أحمد أمين فى معظم الأحوال على ألا تثير أفكاره جدلاً واسعاً أو صخباً ما بأنه يرجع إلى رغبته فى تنوير الرأى العام وفى إعطاء دفعة لجهود الإصلاح.

ويتعرض المؤلف إلى أن تركيز المفكر الراحل على أولوية الأخلاق، حتى فى مجالات العلوم والآداب والفنون، قاد بعض منتقديه إلى القول بأن الأخلاق والمثل العليا تحتل مكاناً مركزياً فى فكره، حتى عندما يتعلق الأمر بالدين نفسه، واعتبر المنتقدون ذلك تأثراً من الأستاذ أحمد أمين بالتوجه العام فى الديانة المسيحية فى الأزمنة الحديثة. وينفى المؤلف ذلك عن الأستاذ أحمد أمين، مؤكداً أن العقيدة الدينية كانت تحتل موقع القلب فى فكر المفكر الراحل، وتعلو على الأخلاق ذاتها، نظراً لأنها قادمة من مصدر وحى لا يسمو عليه شىء، وتتخطى القيم الإنسانية الأخرى مثل الحق والخير والجمال.

وفى النهاية، يبرز المؤلف أهمية المفكر الراحل أحمد أمين وإسهامه ودوره من خلال القول بأنه جمع بين الدور الذى لعبه المفكر والقائد الأمريكى الأفريقى الدكتور مارتن لوثر كنج الذى ساهم فى صياغة مستقبل الولايات المتحدة الأمريكية، والدور الذى لعبه المؤرخ البريطانى الشهير أرنولد توينبى فى التأريخ للحضارة الإنسانية، بينما قام الأستاذ أحمد أمين بالدورين معاً.

وإذا انتقلنا من عرض الكتاب فصلاً فصلاً إلى تناول عام لمعالجة الكتاب لأهمية فكر الأستاذ الراحل أحمد أمين ودوره وشخصيته، يمكن إيراد عدد من الملاحظات للمؤلف وتعليقاتنا عليها، وذلك على النحو التالى:

تتعلق الملاحظة الأولى بالدور التنويرى للمفكر الراحل، حيث اتسم المفكر الراحل بموسوعيته المعرفية واتساع مجالات اهتماماته وكتاباته وتنوعها، وتلقى العديد من الإطراء والدعم من جهة والانتقاد والمعارضة من جهة أخرى لبعض آرائه بشأن مسائل محددة، بينما بشأن موضوعات أخرى كان التلقى لأفكار وآراء الأستاذ احمد أمين هادئاً وبلا رد فعل يذكر.

وبالتأكيد كان كتاب «فجر الإسلام»، كما أشار المؤلف «أمين ميزوتانى» فى كتابه، أول الأعمال الكبرى للأستاذ أحمد أمين التى أثارت جدلاً خلافياً واسعاً، حيث استخدم المفكر الراحل الأسلوب الروائى فى تناول أحداث تاريخية، فيما اعتبر اتباعاً لمنهج أوروبى حديث، وذلك لإظهار كيف ولد الإسلام فى ظل مؤثرات عديدة محيطة به. وجاء رد فعل بعض المثقفين عاصفاً، نظراً للنهج الذى سلكه ولأنه جاء من مفكر مسلم وليس من مستشرق أوروبى.

وعندما تناول الأستاذ أحمد أمين المسألة الشيعية أثار غضب الشيعة، فقد اعتبر أن الإيمان بألوهية الإمام على بن أبى طالب لا يتسق مع التصور الإسلامى للإله وبعده عن الماديات، وذلك بالرغم من أنه عاد واستدرك قائلاً أن هذا التصور للإمام على لا يؤمن به غالبية الشيعة وإنما مجموعة صغيرة فى صفوفهم. ولم يتوقع الأستاذ أحمد أمين وقتها هذه الضجة نظراً لأنه اعتبر أنه عالج الموضوع من منظور أكاديمى وموضوعى.

وكانت المسألة الثالثة التى أثارت لغطاً هى هجوم الأستاذ أحمد أمين على الشعر الجاهلى.

وبالرغم من حدة هذا الهجوم، فإن الأستاذ «ميزوتانى» يرى أنه قوبل بقدر من الدفء من الرأى العام حينذاك باعتباره جزءاً من دعوة الأستاذ أحمد أمين لتجديد الأدب العربى. ولكن النقاش احتدم بعدما دخل المفكر الراحل زكى مبارك على الخط وكتب عدة مقالات رداً على الأستاذ أحمد أمين تضمنت بعض ما اعتبر تعبيرات سباب فى حق الأستاذ أحمد أمين، وهو الأمر الذى أثار بدوره انتقادات ضد الأستاذ زكى مبارك ودعاه عدد من المفكرين والأدباء للهدوء من خلال لقاءات ثنائية معه.

وبالمقابل، فإن الأستاذ أحمد أمين، وفى إطار دوره التنويرى، ناقش ما اعتبره مواقف إصلاحية للرسول محمد عليه الصلاة والسلام، عبر منهج عقلانى اختلف كثيراً عن الاتجاه العام لمعاصريه من المفكرين المسلمين الذين كانوا يروون قصة حياة

إن أفكار الأستاذ أحمد أمين استقبلت بهدوء من جانب عموم القراء، ربما باستثناء كتاب «فجر الإسلام»، وموقفه من الشيعة

ميزوتانى وأمين

الرسول الكريم بشكل يغلب عليه المثالية المطلقة.

وكثيراً ما تناول الأستاذ الراحل أحمد أمين مسائل سياسية واجتماعية من منظور عقلانى بدون اللجوء بالضرورة دائماً إلى أو الاستناد على مرجعيات دينية إسلامية. فعلى سبيل المثال لم يسع للبحث فى التراث الإسلامى عن دعم لدعوته للديمقراطية، بينما كان يسعى مفكرون آخرون بإصرار لإثبات أن الديمقراطية نابعة من داخل الإسلام. وعندما أكد الأستاذ أحمد أمين حقوق المواطنين أكثر من واجباتهم وركز على انتقاد صفات الحكام الموجودين فى الأمة الإسلامية بدلاً من مناقشة واجب المواطنين للطاعة، فلم تكن هذه الآراء منتشرة فى صفوف المفكرين المسلمين فى ذلك الوقت. كذلك نجح الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - فى إدخال تحول نوعى على المفهوم التقليدى الإسلامى لـ «العدل»، عبر تفسيره من مدخل العدالة الاجتماعية التى يمكن أن تتحقق عبر سياسات الرفاه الاجتماعى التى يجب أن تتبعها الحكومات. وفى السياق نفسه، رفض المفكر الراحل استخدام «القدر الإلهى» كشماعة لتبرير انتشار الفقر وبروز المجتمع الطبقى، فى وقت كان من المعتاد فيه تكرار إشارات جاهزة مسبقاً لآيات قرآنية لتبرير انتشار الفقر والتفاوت الطبقى الصارخ. كما أكد الأستاذ أحمد أمين على مفهوم أن التاريخ لم يكن أبداً أكثر من سلسلة من الأسباب والنتائج، وفصل بين ذلك وبين الدروس الأخلاقية والمعنوية التى يمكن استخلاصها من قراءة التاريخ. كذلك تناول المفكر الراحل موضوعات وطنية مصرية تتصل بمسائل الاستقلال والحياة الأسرية من منظور عقلانى.

وبالرغم من أن المحاضرات والكتابات التى طرح الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - من خلالها أفكاره قوبلت بهدوء، على الأقل على السطح، فإنه عبرها كان المفكر الراحل يحاول تقديم رؤية جديدة للحياة والحضارة قائمة على العقلانية وليس الحدس.

وقد جمع المفكر الراحل بين كونه إصلاحياً وعقلانياً، وتنويرياً، وأيضاً محافظاً، من حيث تمسكه والتزامه بالإرث العربى والإسلامى. فقد كرس الكثير من وقته وموهبته للتنوير من خلال الكتابة وإلقاء المحاضرات وتنظيم المناسبات الاجتماعية بشكل متواصل وبصبر بالغ فى نقل رسالته. وبخلاف شخصيات أخرى، مثل الدكتور طه حسين مثلاً، لم يراهن المفكر الراحل الأستاذ أحمد أمين على سياسات الحكومة أو إجراءاتها لنشر التنوير أو الإصلاح أو العقلانية، ولا حتى فى المؤسسات التعليمية مثل المدارس والجامعات. وقد أدى هذا الاختلاف إلى أن وجود الراحل أحمد أمين كان أقل ظهوراً، من جهة التغطية الإعلامية له ولأنشطته ولكتاباته، عن الدكتور طه حسين مثلاً.

ويدفع الأستاذ «أمين ميزوتانى» بأن الأستاذ أحمد أمين- رحمه الله- كان يبدو أحياناً متناقضاً أو شبه متناقض فى بعض وجهات نظره، التى كان أحياناً يتعين عليه أن يشرحها أو يوضحها أكثر حتى يحتفظ بالاتساق الذاتى لرؤاه وجعلها أكثر إقناعاً. ويذكر المؤلف على سبيل المثال أن الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - اعتبر أن هناك أربعة مكونات للأدب، وهى العواطف والخيال والأسلوب والمعنى. وفى ذات الوقت روى لنا الأستاذ أحمد أمين أن أساس تقييم الأدب والفن عموماً هو الذوق العام المشترك فى مجتمع ما، وذلك بدون أن يشرح علاقة الذوق العام بالمكونات الأربعة للأدب المذكورة آنفاً. ومن جهة أخرى، قام الأستاذ أحمد أمين بتعريف أهداف الأدب على أنها تفسير الأدب والحكم عليه. وقد كرر المفكر الراحل القول بأن الأدب يجب تجديده وأنه يجب أن يوظف للمساهمة فى تحقيق التقدم الاجتماعى للشعوب. ويتساءل الأستاذ «أمين ميزوتانى» عما إذا كان التجديد والتقدم الاجتماعى كانا يجب أن يكونا ضمن أهداف النقد الأدبى طبقاً لتعريف الأستاذ أحمد أمين؟ ويأخذ الأستاذ «ميزوتانى» على المفكر الراحل أنه لم يقم بتوضيح هذه المسألة. كما أن الأستاذ «ميزوتانى» أخذ على الأستاذ أحمد أمين انتقاده للشعر الجاهلى، بناء على رغبته القوية فى الإصلاح ومحاولته التجاوب مع حالة الذوق العام السائدة فى المجتمع المصرى فى عصره.

وقد تحدث المؤلف عما أسماه إشكالية أخرى فى فكر الأستاذ الراحل أحمد أمين، عند حديثه عن الحضارة. ففى حديثه عن البعد الروحى، الذى اعتبره الأستاذ أحمد أمين جوهر بناء أى حضارة جديدة، سعى المفكر الراحل أولاً إلى نقد من كانوا يقولون بأن البعد الروحى موجود أيضاً لدى الغرب، حيث اعتبر أن هؤلاء وقعوا فى مأزق الخلط بين البعد الروحى وبين كل من المشاعر والأحاسيس والتعاطف. وبينما كان الدكتور طه حسين يذكر فى كتابه «مستقبل الثقافة» أن الغرب لديه بعد روحى متمثل فى الجوانب العاطفية للحب، والإعجاب بالشجاعة، ورفض القبح، والتصدق على الفقراء، والتضحية فى سبيل الوطن، فقد كان الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - يرى أن البعد الروحى يجب أن يصهر الأبعاد الميتافيزيقية كافة فى الإيمان بأن الله تعالى هو خالق الخير والشر فى هذا العالم، كما طالب بفصل البعد الروحى عن المجالات الفكرية والشعورية، أو بعبارة أخرى أنه أراد تقييد حدود البعد الروحى فى الإيمان الدينى فقط دون غيره، دائماً بحسب الأستاذ «ميزوتانى». ولكن على الجانب الآخر، فقد أكد الأستاذ أحمد أمين أن الإيمان الدينى يتحقق ويزداد قوة عبر المشاعر والأحاسيس. ويتساءل الأستاذ «ميزوتانى» عن كيفية التفرقة بين هذه المشاعر والمشاعر التى طالب الأستاذ أحمد أمين بفصلها عن البعد الروحى؟ ثم يتساءل المؤلف عما إذا كان حب المؤمن لله أو حب الله للمؤمن منفصلا تماماً عن «البعد العاطفى للحب» الذى تحدث عنه الدكتور طه حسين؟ ويوضح المؤلف أن الإجابة يجب أن تكون إيجابية حتى يتسم فكر الأستاذ أحمد أمين بالاتساق بين مكوناته، ولكنه يأخذ على المفكر الراحل أنه لم يجمع رؤيته عن البعد الروحى ورؤيته عن الإيمان الدينى فى سياق واحد متناغم مع ذاته.

ويعطى المؤلف مثالاً آخر عندما يعرض لموقف الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - تجاه المعتزلة، «أهل العدل والتوحيد»، فى المرحلة الأخيرة من حياته، حيث انحاز المفكر الراحل لعقلانيتهم وانحيازهم لخيار الابتكار والإبداع الفكرى بصفة عامة، ولكنه لم يعبر عن هذا الموقف صراحة منذ البداية. ولكن بمرور الوقت، ومن خلال مقالاته العديدة، كانت آراء الأستاذ أحمد أمين تقترب أكثر فأكثر من فكر «أهل العدل والتوحيد». واتبع الأستاذ أحمد أمين نفس المنهج عند تناوله المسائل الدينية بشكل عام، حيث كان يتعرض للأديان بشكل عام فى البداية ثم ينتقل إلى تناول الإسلام على سبيل التحديد فى مرحلة لاحقة.

ويلحظ الأستاذ «أمين ميزوتانى» تحولاً فى موقف الأستاذ أحمد أمين من الأدب، من موقف يركز على التعبيرات الجمالية، إلى موقف آخر يركز على وظيفة الأدب فى الاستجابة للاحتياجات المجتمعية، ثم على موقف ثالث يعنى بالمتطلبات الأخلاقية والمعنوية للأدب. وينظر المؤلف إلى هذه التحولات كجزء من اتجاه عام فى المجتمع المصرى فى ذلك الوقت، حيث تحول من مجتمع ليبرالى واقتصاد حر إلى مجتمع أكثر جدية وتحت السيطرة، وهو اتجاه تغلغل فى المجتمع المصرى منذ عام ١٩٣٩ تقريباً عندما كان النازيون قد سيطروا على السلطة فى ألمانيا وتم هز الثقة فى الديمقراطية، وما تلا ذلك من أحداث مأساوية خلال الحرب العالمية الثانية، بما فى ذلك إلقاء القنبلتين النوويتين بواسطة الولايات المتحدة الأمريكية على اليابان وهزيمة مصر فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨. وبالرغم من أن كافة هذه

تناول المفكر الراحل موضوعات وطنية مصرية تتصل بمسائل الاستقلال والحياة الأسرية من منظور عقلانى

الأحداث انعكست على صفوف النخبة المثقفة فى مصر خلال تلك الفترة، فإن المؤلف يرى أن الأستاذ أحمد أمين لم يلجأ لأى تحولات مفاجئة فى تفكيره، بل إن بعض تحولاته الفكرية جاءت أحياناً متأخرة عما كان يحدث فى صفوف الانتلجنتسيا المصرية حينذاك، كما كانت تحولات تتسم بضبط النفس.

أما الملاحظة الثانية فتتعلق بالرؤية العالمية للأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - فالأستاذ «أمين ميزوتانى» يرى أن المفكر الراحل لم يقدم رؤية عالمية شاملة وكاملة بشكل واضح، بل إنه كان يصوغ أفكاره بشأن مجال ما من الموضوعات بشكل أنيق، ويعرض أفكاره لإيجاد كل متكامل، ويحاول الأستاذ «أمين ميزوتانى» تناول هذا الكل للتوصل منه إلى الرؤية العالمية للأستاذ أحمد أمين.

ولقد ذكر الأستاذ أحمد أمين عدة مرات أن القيم الثلاث «الحق» و«الخير» و«الجمال» يجب أن يسعى الإنسان خلال حياته للوصول إليها كأهداف خالدة، معتبراً أن هذه القيم الثلاث ممثلة عبر الأخلاق والمثل، والعلوم والنشاط البحثى على تنوعهما، والفنون، حيث أعطى الأستاذ أحمد أمين الأخلاق منزلة أعلى من العلوم والفنون، نظراً لأن الأخيرين يجب أن يكونا مرتكزين على الأخلاق. فقد رفع المفكر الراحل شعار «الأخلاق أعلى درجة من الأدب» فى أعماله من النقد الأدبى وفى توصياته بخصوص الأعمال الأدبية، التى كان يقدمها لوزارة التعليم المصرية.

أما مقولة أخرى للأستاذ أحمد أمين فكانت أن الأخلاق هى نتاج الدين والعقل معاً. فبالنسبة للأستاذ أحمد أمين، كان الإيمان الدينى نتاج الحواس الخمس للإنسان، بالإضافة إلى ما يمكن اعتباره حاسة سادسة وهى «الحدس»، فى مهمتها للبحث عن مصدر الوحى. وبهذا التعريف للإيمان الدينى، يكون نتاجاً لنشاط كافة طاقات الإنسان، وبالتالى يصبح العقل، والذى يبدو حيوياً وأساسياً، مجرد جزء من القدرات الإنسانية ويكون محدوداً فى عمق واتساع المعرفة الإنسانية. وفى ضوء ما تقدم، يستنتج الأستاذ «أمين ميزوتانى» أن الأخلاق التى تحتل مساحة ضمن المبادئ الإنسانية هى نتاج لمساحة محدودة من العقل مقابل مساحة واسعة من الإيمان الدينى، وبالتالى يعتبر الأستاذ «ميزوتانى» أن الإيمان الدينى يأتى عند الأستاذ أحمد أمين سابقاً على الأخلاق، التى هى بدورها سابقة على العلوم والفنون. ويرى المؤلف أن ما يبرز أهمية وأولوية الإيمان الدينى عند المفكر الراحل هو قناعته بأنه فى رحلة البحث عن الإيمان الدينى والحق والخير والجمال، فإن اللمسة الأخيرة تحتاج إلى إلهام يمنحه الله، مما يتطلب الاعتماد على قدرة حدسية دافعة. ويذكرنا الأستاذ أحمد أمين بأهمية التسامح، وبما يحول دون إعاقة مسيرة أى شخص نحو القيمة التى يسعى لاكتسابها أو تعميقها. ويطرح الأستاذ أحمد أمين نظرية خاصة به للتطور، حيث يعتبر أن من واجب أى إنسان بذل أقصى ما لديه فى أى مكان وزمان للوصول إلى القيمة التى يرتضيها. أما فى مجال الحفاظ على العلاقات الإنسانية، فيرى الأستاذ أحمد أمين أن «الإخلاص» هو المبدأ الأخلاقى الأول والأهم، ومن خلال تنفيذ هذا المبدأ والالتزام به، يمكن للإنسان الاحتفاظ بعلاقة حب مع الله باعتباره السلطة النهائية والمطلقة فى الكون. ويطلق الأستاذ «أمين ميزوتانى» على ما تقدم تسمية الرؤية العالمية للأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - تجاه الحياة والإنسانية، ويعترف أنها رؤية افتراضية واجتهادية من جانبه، ولكنه يدفع بأنها صحيحة.

وهنا نلحظ بوضوح تناقضاً فى تقييم المؤلف لدور كل من العقل والحدس فى فكر الراحل أحمد أمين، فبينما يؤكد فى مواضع أن أهمية فكر الأستاذ أحمد أمين تكمن فى اعتماده الأساسى على العقل، فإنه فى مواضع أخرى يشير إلى أولوية «الحدس» لديه، كما يتحدث عن «الإلهام»، وعن كل من الإيمان الدينى والأخلاق كأمور سابقة فى أهميتها فى فكر الأستاذ الراحل أحمد أمين على العقل.

ويعتبر المؤلف أن الأستاذ أحمد أمين حصل على عدد من التعيينات رفيعة المستوى بالإضافة إلى تقلده عددا من الأوسمة مما كان محلاً لسعادته وإشباعاً لذاته. ولكن المؤلف يذكر أن تأثير أعمال المفكر الراحل بدا أنها وهنت بعض الشىء، وهو الأمر الذى دفع الكاتب «أمير العقاد» لنشر كتابه الذى ذكر القراء بإنجازات أحمد أمين. ويرجع المؤلف هذا الخفوت إلى قاعدة عامة وهى أن الأعمال الأكثر عقلانية والمعبرة عن اتجاهات فكرية يتلقاها الجمهور بهدوء، وربما حتى بالقليل من الاهتمام، إذا ما قورن ذلك بالأعمال التى تتسم بالحماس والطابع العاطفى. ولكن بالمقابل، يراهن الأستاذ «ميزوتانى» على أن تلك الأعمال الحماسية تكون قصيرة العمر فى تأثيرها على البشر، بينما التحليل الموضوعى والشامل المحمل بالقيم يكون أكثر ديمومة.

ويقر المؤلف أن إسهام المفكر الراحل أحمد أمين فى تجديد الفكر العربى والإسلامى فى العصر الحديث يمثل «عملاً جاداً لرجل عظيم». ويرجع ذلك إلى مكونات، حتى ولو لم تكن متكاملة، لرؤية شاملة للعالم، طرحت اتجاهاً للمستقبل للمواطنين لاتباعه بهدف مزدوج هو الوصول إلى مرحلة بناء الأمة من جهة وتحقيق سعادة الإنسان من جهة أخرى. ويرى الأستاذ «ميزوتانى» - كما ذكرنا آنفاً - أن الأستاذ أحمد أمين جمع بين مهمة كل من الزعيم الأمريكى الأفريقى داعية الحقوق المدنية الدكتور مارتن لوثر كينج الذى فتح طريقاً للأجيال القادمة ومهمة المؤرخ البريطانى «أرنولد توينبى» الذى وضع الإطار الأكاديمى والبحثى لدراسة تحول الحضارات فى التاريخ الإنسانى. وهنا تكمن فرادة وأهمية وجدة الرؤية العالمية الشاملة للمفكر الراحل أحمد أمين. ولكن المؤلف بالمقابل يعتبر أن الأستاذ أحمد أمين رحل وهو لم يؤد سوى نصف المهمة المزدوجة، ويرى فى ذلك انعكاساً للطبيعة الانتقالية للمجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن العشرين، الذى عاش وكتب وعمل فى إطاره الراحل أحمد أمين.

أما الملاحظة الثالثة، فتتصل بشخصية المفكر الراحل أحمد أمين واعتبارها نموذجاً من قبل المؤلف. وهنا يوضح المؤلف موقفه، فهو لا يعتبر شخصية الأستاذ أحمد أمين نموذجاً فقط فى العالم العربى والإسلامى، بل على الصعيد العالمى، وخاصة على مستوى اليابان، حيث يرى المؤلف أن الأستاذ أحمد أمين يعطى لليابانيين انطباعاً جيداً عن شخصية شهيرة ومحترمة وممتازة مصرية وعربية ذات أخلاق رفيعة.

ويشير المؤلف إلى خطاب أرسله الأستاذ أحمد أمين عام ١٩٥٠ إلى نجله السفير حسين أحمد أمين الذى كان فى العاصمة البريطانية لندن فى ذلك الوقت، حيث يوضح الخطاب الأهمية التى يوليها المفكر الراحل لقيم الإخلاص والعدالة. ففى هذا الخطاب يدعو نجله إلى اتباع الحق وتطبيق العدل، ويشير إلى أنه شخصياً ربح كثيراً فى حياته بسبب اتباعه لهذه النصائح ذاتها، بالرغم من بعض الأضرار أو الآلام من وقت لآخر. ويؤكد أنه كسب ثقة البشر من حوله فى أقواله وأفعاله، فتقبلوا بدفء أفكاره بالرغم من أنهم لم يفهموا دائماً قضيته.

وفى السياق نفسه، يشير الأستاذ «أمين ميزوتانى» إلى الحس الجمالى لدى المفكر الراحل أحمد أمين، وحفاظه على نمط حياة متواضع للغاية، وكان دائماً داخل منزله يرتدى جلباباً باعتباره الزى التقليدى المصرى، كما كان بسيطاً فى أكله، خاصة فى ضوء إصابته بمرض السكر. كذلك واصل الحياة بنفس الأثاث الذى كان لديه منذ زواجه وحتى وفاته. كذلك كان الأستاذ أحمد أمين يدفع الزكاة والصدقات

إن تلك الأعمال الحماسية تكون قصيرة العمر فى تأثيرها على البشر، بينما التحليل الموضوعى والشامل المحمل بالقيم يكون أكثر ديمومة

بسخاء، كان يثير عليه زوجته ذاتها أحياناً. وكان يحب الاستماع إلى الموسيقى العربية، ويحافظ على عادة المشى يومياً وكذلك السباحة من وقت لآخر. كذلك كان يحافظ على عادة القراءة والكتابة فى الصباح والنوم بعد الظهيرة.

ويلجأ المؤلف «أمين ميزوتانى» إلى سرد جزء مما ذكره الفقيه القانونى الكبير الراحل عبد الرزاق السنهورى حول المفكر الراحل أحمد أمين، حيث وصفه بالجمع بين الفكر والقلب، فالفكر يستوعب أدق الأشياء فى مجملها دون الغرق فى التفاصيل، ويستخلص منها القواعد والأساسيات، وكان مختلفاً فى ذلك عن زملائه من معاصريه بالرغم من تلقيهم جميعاً نفس نوع التعليم، كما يصفه بأنه كان يحمل قلباً رقيقاً مملوءاً بالرحمة وتفيض منه العاطفة، وكان يشعر بآلام رفاقه إلى درجة أنه كان يعتبرها كأنها خاصة به، وكان يجمع بين النبل والاحترام، وقليلون هم من جمعوا بين الفكر والعقل مثله.

ويصف المؤلف «ميزوتانى» الأستاذ الراحل أحمد أمين بأنه كان خجولاً، وجاداً فى دراسته للأمور وبحثه فيها، ولكنه كان يشعر دائماً بالسعادة عندما يحظى بالتكريم. وقد اعتبر أعلى قيمة هى التفكير الموضوعى المنطقى وغير المنحاز. وبينما كان يبتعد عمن يشعر أنه يتسم بالتعالى على الآخرين، فإنه كان رقيقاً للغاية مع كل من يتسم بالتواضع، كما كان يستقبل كبار المسئولين والفلاحين على حد سواء بنفس الطريقة. كذلك اتسم الراحل أحمد أمين بالوفاء الشديد لقناعاته ومعتقداته، إلى درجة أنه كان دائماً على استعداد للمخاطرة بمناصب ومكاسب مقابل تمسكه بقناعاته. فبينما كان الدكتور طه حسين قد رتب عرضاً للتدريس بالجامعة للأستاذ أحمد أمين بعدما سمع بشكواه حول عمله كقاضى محكمة، وذلك بعد التشاور مع رئيس جامعة القاهرة أحمد لطفى السيد، وعين الأستاذ أحمد أمين بالفعل عميداً لكلية الآداب، فإن هذا لم يحل دون دخول الراحل أحمد أمين فى مناوشات مع الدكتور طه حسين حول مسائل تتصل بإدارة الكلية، بل وعبر أحياناً عن انتقادات شخصية للدكتور طه حسين، وانتهى الأمر باستقالته من المنصب بعد عامين فقط من توليه. وينقل المؤلف عن كتاب عن الأستاذ أحمد أمين إعرابه عن أسفه لكون الظروف لم تدفع الدكتور طه حسين لتوجيه طاقاته الجبارة نحو النشاط البحثى بالرغم من رسالته الرائعة عن ابن خلدون، وبالرغم من إصراره فى مرحلة مبكرة على توجيه العامة إلى أصول الثقافة، مشيراً إلى أن شخصية الدكتور طه حسين كانت تعكس الاتجاهات والخصائص المميزة لعصر النهضة فى أوروبا، حيث حمل تطلعاتها واهتماماتها وأولوياتها، وحتى بعض أوجه نفاد الصبر والتشوش، أى أنه كان أفضل ممثل لتلك المرحلة. ويروى الأستاذ «أمين ميزوتانى» واقعة حدثت بين الدكتور طه حسين والأستاذ أحمد أمين خلال اجتماع كان يناقش مسائل خاصة بإدارة جامعة القاهرة، حيث أوقف الدكتور طه حسين الأستاذ أحمد أمين من إبداء تعليق رافضاً مقاطعته له، وسرعان ما رد عليه الأستاذ أحمد أمين بنفس الملاحظة خلال نفس الاجتماع، مما عكس التوتر بينهما فى ذلك الوقت الذى كان فيه الدكتور طه حسين وزيراً سابقاً للتعليم ويحمل رتبة الباشوية. واستمر التوتر بينهما قائماً، ولم يتم الصلح سوى على فراش مرض الأستاذ أحمد أمين بالمستشفى قبيل وفاته بوقت قصير. وبالرغم من أن عينيه كانتا معصوبتين، فقد شعر الأستاذ أحمد أمين بخطوات قدوم الدكتور طه حسين نحوه، ففتح ذراعيه لمصافحته. ويرجع الأستاذ «ميزوتانى» الخلاف بين الأستاذ أحمد أمين والدكتور طه حسين فى الأساس إلى الاختلاف فى الشخصية فيما بينهما.

ويفسر الأستاذ «أمين ميزوتانى» تمسك الأستاذ الراحل أحمد أمين بمعتقداته فى ضوء إعلائه لقيم العقل والمنطق والعدل، بدلاً من تغليب العواطف والانحيازات الشخصية. كما أن التزامه الأخلاقى الرفيع قاده إلى الشعور بأنه ليس من العدل تبنى آراء تناقض قناعات الإنسان، حتى لو كان ذلك مجرد إجراء تكتيكى ومؤقت. وكان لهذا الإحساس بأهمية الموضوعية والإنصاف دور فى التأثير على معالجته الأكاديمية لموضوعات مثل الموقف من الشيعة والمعتزلة كما ذكرنا من قبل. وقد أقر الأستاذ أحمد أمين نفسه بأن هذا «العناد» وغياب القدرة على المجاملة أو المداهنة أو التلوى، كلها صفات تصلح للعلماء والباحثين فقط ولكنها لا تصلح لعالم السياسة أو الأعمال. وكانت مثالية الأستاذ أحمد أمين والتزامه أولاً تجاه نفسه قبل أن تكون تجاه الآخرين.

ويشير الأستاذ «ميزوتانى» إلى أن الشخصية السامية الصادقة والأخلاق الرفيعة للأستاذ أحمد أمين- رحمه الله - ، بجانب نمط حياته المتواضع وطبيعته المنكرة لذاتها، تشكل جميعها مميزات من وجهة نظر المجتمع اليابانى، كما أنه بالرغم من أنه من الطبيعى أنه توجد فى كل شعب وأمة مختلف أنواع الشخصيات، فإنه كان لدى الشعب اليابانى قناعة عامة بأن هذه النوعية من الشخصيات مثل الأستاذ أحمد أمين- رحمه الله - لا توجد بصفة عامة بين صفوف العرب أو المصريين. وبالتالى، يعتقد المؤلف أن تقديم مثل هذا النمط من الشخصيات المصرية والعربية للقارئ اليابانى سيكون ذا تأثير أبعد من المجال الأكاديمى، حيث يمنح مضموناً ملموساً وعملياً لصورة مفضلة لدى اليابانيين.

وتتعلق الملاحظة الرابعة بالعلاقة بين المفكر الراحل ونجله السفير حسين أحمد أمين، حيث يذكر المؤلف أنه بينما كان الأستاذ أحمد أمين مؤرخاً ومفكراً ليبرالياً، خاصة حول موضوعات الإصلاح الثقافى، فإن نجله السفير حسين الذى ولد عام ١٩٣٢، معروف على نطاق واسع برؤيته المناهضة للراديكالية الإسلامية، خاصة من منظور تاريخى وقانونى، وينتمى إلى جيل يسمى بالليبراليين الجدد، دائماً بحسب المؤلف «أمين ميزوتانى»، الذى يعتبر أن إسهامات الجيلين وأدوارهما تحتاج إلى تقييم أخذاً فى الاعتبار طبيعة المجتمع المصرى فى كل مرحلة من المرحلتين، مع إمكانية تقييم دور وإسهام الأستاذ أحمد أمين ونجله السفير حسين أحمد أمين أيضاً عبر رؤية رحلة ومسيرة الليبرالية المصرية. وفى سياق المقارنة بين الأب والابن، يذكر المؤلف أن الأب شرح كثيراً مفهوم الإيمان الدينى ودلالاته وأهميته، بينما الابن انتقد الدور التاريخى للصوفية، ولكنه أعرب عن تقديره لدورها وإسهامها قبل القرن العاشر، وبالتالى تفادى الابن التناقض مع الوالد. ويرى المؤلف أن الأب والابن معاً جنحا لتبنى مواقف توفيقية بشأن العديد من الموضوعات، بما فى ذلك تطبيق الشريعة الإسلامية، وتأكيد الأهمية الحيوية للاجتهاد.

وهنا نختلف مع الأستاذ «أمين ميزوتانى» بشأن أنه يناقض نفسه هنا، حيث ذكر فى موضع سابق من نفس الكتاب أن الأستاذ أحمد أمين كان يرفض الحلول التوفيقية أو الحلول الوسط، ثم عاد يذكر هنا أنه تشابه مع ابنه فى القبول بذلك.

ونعود إلى المؤلف ومقارنته بين الأب والابن، حيث يرى أن الابن عكس إرث الوالد الليبرالى، كما أن كليهما كان تلميذا مجتهدا لعلم التاريخ حيث الاحتفاظ بالموقف الموضوعى تجاه الأحداث التاريخية، ولكن كلاً منهما أيضاً عكس تغيرات زمانه: فمن المنظور العام للأمتين العربية والإسلامية لدى الأب، إلى التركيز على الدولة الواحدة (مصر) لدى الابن، فى ظل تعزز النزعة القطرية فى العالمين العربى والإسلامى.

وينتقل المؤلف فى ملاحظته إلى الساحة الدولية، فيتحدث عن صعود حركة إصلاحية إسلامية بين صفوف المسلمين داخل العالم العربى وخارجه، وداخل العالم الإسلامى وخارجه. ولكن

يرجع الأستاذ «ميزوتانى» الخلاف بين الأستاذ أحمد أمين والدكتور طه حسين فى الأساس إلى الاختلاف فى الشخصية فيما بينهما

هنا يجمع المؤلف بين شخصيات، نرى من الصعب الجمع بينها فى حزمة واحدة أو تحت عنوان واحد، للتباينات الكبيرة أحياناً، فيما بينها، مثل السودانى محمد محمود طه، والسورى محمد شحرور، والجزائرى المقيم فى فرنسا محمد أركون، والمغربى المقيم فى أوروبا عبده فيلالى أنصارى، واللبنانى رضوان السيد، والتونسيين محمد طالبى وراشد الغنوشى. ويدعو المؤلف إلى رؤية الليبرالية فى مصر ومستقبل الفكر الإسلامى بشكل عام من منظور هذه الحركة الإصلاحية الواسعة، من وجهة نظره.

أما خامس الملاحظات وآخرها فتتصل بتناول المؤلف لمستقبل الليبرالية، حيث يصر على تسمية السفير المفكر حسين أحمد أمين وجيله بـ «الليبراليين الجدد» ويعتبرهم فى معركة ضد من يسميهم بـ «الأصوليين الإسلاميين»، تماماً كما كان الليبراليون الأوائل فى زمن الأب الراحل أحمد أمين فى معركة ضد الهيمنة الثقافية للغرب، مشيراً إلى ما استفاده الجيل الأصغر من إثراء على أيدى الجيل الأول.

وهنا أيضاً نعجب من حديث المؤلف عن معركة الليبراليين المصريين الأوائل ضد الثقافة الغربية، فالأستاذ أحمد أمين ليس معياراً لليبرالى زمانه، ولكن التيار العام لليبرالى ذلك الجيل كانوا متأثرين بدرجات متفاوتة بالثقافة الغربية، وكان عداؤهم للغرب ربما سياسياً أو اقتصادياً لتحقيق الاستقلال فى الحالتين، وربما فى بعض الحالات التحفظ على بعض المعطيات الاجتماعية للغرب، ولكن لم يكونوا فى أى مرحلة معادين للثقافة الغربية كما يخلص المؤلف هنا.

ونعود إلى الأستاذ «أمين ميزوتانى» الذى يذكر أن جيل السفير حسين أحمد أمين من الليبراليين يتمتع ببنية تحتية لمجتمع مدنى نابض فى شكل مؤسسات ومنظمات ووسائل إعلام نشيطة وفعالة ومؤسسات أكاديمية وبحثية متنوعة، تمثل كلها ساحة صحية لنمو الليبرالية. وبالرغم من ذلك، فإن المؤلف يرى أن دعوة الليبراليين الجدد فى مصر تتراجع، ويستخدم تعبيراً للسفير حسين أحمد أمين نفسه عن الليبراليين فى مصر الآن، واصفاً إياهم بأنهم «مجرد مجموعة من المنشقين الذين يكتبون على الماء». ويعتبر الأستاذ «ميزوتانى» أن أحد أهم أسباب هذا التراجع هو تعقد وصعوبة لغة خطاب الليبراليين مقابل بساطة خطاب من يسميهم بـ «الأصوليين» الذين يرفعون شعاراً سهل الفهم على بسطاء الثقافة وهو «الإسلام هو الحل». أما السبب الثانى لهذا التراجع من وجهة نظر المؤلف فهو أن الدولة لا تناصر الليبراليين بفاعلية اليوم فى حربهم ضد «الأصوليين»، بينما كانت الدولة قبل ١٩٥٢، خاصة حزب الأغلبية (حزب الوفد)، منحازة لليبراليين. ويذكر المؤلف سبباً ثالثاً، ولكنه لا يذكره باعتباره نابعاً منه، بل باعتباره نقداً ذاتياً قادماً من صفوف الليبراليين المصريين ذاتهم، ألا وهو أن الليبراليين فى مصر الآن لم يدفعوا الثمن الغالى فى نضالهم من أجل القيم الليبرالية كهذا الذى دفعه الليبراليون فى الغرب تاريخياً، أو حتى الليبراليون فى مصر فى فترات تاريخية سابقة. فقد كان الطريق سهلاً وممهداً أمام «الليبراليين الجدد»، كما يطلق عليهم المؤلف، ولم يواجهوا مصاعب حقيقية أو يضطروا لخوض نضال فعلى. ولكن المؤلف هنا يرد على نفسه عندما يشير إلى حالة المفكر والكاتب الليبرالى المصرى الراحل فرج فودة (١٩٤٥ - ١٩٩٢)، والذى دفع حياته ثمناً لقناعاته وآرائه وتعرض للاغتيال على أيدى متطرفين دينيين. ويخلص المؤلف فى هذه الملاحظة إلى القول بأن ما يجرى اختباره حالياً هو درجة صلابة والتزام وعزيمة الليبراليين من جهة، ومدى تقدم الوعى الفكرى والسياسى للشعب المصرى من جهة أخرى.

وهكذا قدمنا وعرضنا وحللنا وقيمنا هذا العمل للكاتب والباحث اليابانى المسلم الأستاذ «أمين ميزوتانى» عن المفكر الراحل الأستاذ أحمد أمين، مع الإشارة بشكل خاص إلى ما تضمنه من إشارات إلى أهمية شخصية وفكر ودور الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - كمفكر ليبرالى تنويرى عربى مسلم بالنسبة للمواطن اليابانى باعتباره مدخلاً لتحسين الصورة العربية والإسلامية لدى اليابانيين ليس من خلال أعمال دعائية بل من خلال سرد سيرة ذاتية واقعية وموضوعية عن هذا المفكر الذى ترك بصمات لا تنكر على الفكر الإسلامى والثقافة العربية فى طورهما الحديث. ■

كتاب الزاوية

قصيدة اعتذار لأبى تمام
نزار قبانى

(٥)

أَبَا تَمَّامَ : إنَّ الشِّعرَ فِى أَعمَاقِه سَفَرُ
وَإبْحَارٌ إلى الآتى .. وَكَشفٌ لَيسَ يَنْتَظِرُ
وَلَكنَّا .. جَعَلنَا مِنهُ شَيئاً يُشبِهُ الزَّفَة
وَإيقَاعَاً نُحَاسِياً، يَدُقُّ كَأَنَّهُ الْقَدَرُ ..

• • •

أَمِيرَ الْحَرفِ .. سَامحْنَا
فقد خُنَّا جَمِيعاً مِهنَةَ الْحَرفِ
وَأرهَقنَاهُ بالتشطِيرِ ، والتربيعِ ، والتَّخمِيسِ ، والوَصفِ
أبا تمامَ .. إنَّ النارَ تأكُلُنَا
وَمَا زِلنَا نُجَادِلُ بعضَنا بَعضًا ..
عَنِ المصرُوفِ .. والممنوعِ مِنْ صَرفِ ..
وَجيشُ الغَاصِبِ المحتَلِّ مَمنوعٌ مِنَ الصَّرفِ !!
وَمَا زِلنَا نُطَقطِقُ عَظمَ أرجلِنَا
وَنَقعُدُ فِى بُيوتِ الله نَنتَظِرُ ..
بَأنْ يَأتِى الإمامُ عَلىَّ .. أَو يَأتِى لَنَا عُمَرُ
وَلَنْ يَأتُوا .. وَلَنْ يَأتُوا
فَلاَ أَحدٌ بِسَيفِ سِوَاهُ يَنتَصِرُ ..

• • •

أَبَا تَمَّامَ : إنَّ الناسَ بالكَلِماتِ قَدْ كَفَرُوا
وَبالشُّعَرَاءِ قَدْ كَفَرُوا ..
فَقُلْ لِى أَيُّهَا الشَّاعِرْ
لِمَاذَا الشعرُ - حِينَ يَشِيخُ -
لاَ يَستَلُّ سِكِّيناً .. وَيَنتَحِرُ ؟

يصـــدر قـريـبـــا

الـــــدّولـــة العثمـــــانية المجهـــُولـة

لم أستطع فى سنى دراستى معرفة المعلومات الصحيحة حول الدولة العثمانية. وفى أثناء دراستى فى الولايات المتحدة الأمريكية فقط أدركت مدى خطأ المعلومات التى تعلمتها ضد الدولة العثمانية، ومدى ضرر ردٍّ تاريخنا بكامله

أحـــمـــد آق كـــونـــدوز

■■ يشكل عام ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩م عام ذكرى مرور سبعمائة سنة على تأسيس الدولة العثمانية التى ظلَّلت ثلاث قارات تحت جناحيها مدة ٦٠٠ سنة. وكان من الطبيعى أن يتم تنظيم فعاليات مختلفة فى هذه الذكرى سواء معها أو ضدها فى أكثر من ٣٠ دولة ظهرت إلى الوجود بعد سقوطها. وعندما كنت فى الولايات المتحدة الأمريكية كأستاذ زائر فى السنة الدراسية ١٩٩٧ - ١٩٩٨ علمتُ أن العديد من المؤسسات العلمية الأمريكية وفى مقدمتها جامعة برنستين (Princeton) تفكر فى الاشتراك فى هذه الفعاليات. وقرأنا فى الصحف أن المخازن المشهورة فى باريس أثثت طوابق خاصة بالأثاث على الطراز العثمانى. كما تناهى إلى سمعنا أن العديد من الأعداء الداخليين والخارجيين وفى مقدمتهم الأرمن يستعدون لتكرار افتراءاتهم وأكاذيبهم بمناسبة مرور هذه الذكرى ضمن فعاليات مختلفة.

ونحن نعتقد أنَّ هذه الذكرى يجب أن تشكل نوعاً من نقطة تلاق بين التاريخ العثمانى وبين الجمهورية التركية، أى لقاء وطنياً، يشترك فيه كل من يحب وطنه وأمته ودولته وتاريخ أمته، وأن يبذل قصارى جهده لتحقيق هذا التلاقى فى هذه الذكرى. ويجب أن تشكل نوعاً من نقطة تلاق بين التاريخ العثمانى والتاريخ الإسلامى.

يجب أن يقبل الجميع من جميع الفئات سواء أكان يَسارياً أم يمينيا أو كان تركيا أم عربيا ً بأنَّ لنا ثلاثة أعداء رئيسيين: الجهل والفرقة والفقر، ونحن نعتقد بأن أكبر عائق أمام التلاقى بين الدولة العثمانية وبين الجمهورية والتاريخ الإسلامى هو الجهل بالتاريخ الصحيح.

وفى كل مجلس أو اجتماع حضرناه كانت الأسئلة توجه إلينا من مختلف الطبقات والفئات، من البقالين العاديين إلى رجال العلم، وبعد الإجابة عليها كانت هناك رغبة ورجاء وسؤال واحدٌ مشترك هو: «ألا تستطيعون وضع كتاب يحتوى على أجوبة للأسئلة التى تتكرر حول الدولة العثمانية والتى يجب على كل مواطن مسلم معرفتها؟». إن مجتمعنا -مع الأسف - قليل القراءة، والكتب الموجودة فى هذا الصدد إمَّا كتب علمية صرفة لا تستطيع الأكثرية فى مجتمعنا فهمها، أو هى كتب بعيدة عن الحقيقة بحيث لا تستطيع إعطاء أجوبة شافية. إذن فهذه كانت وظيفة وطنية ودينية وعلمية أيضاً.

وكان أحد الذين أظهروا هذه الرغبة السيد «عدنان قهوه جى» رحمه الله، فعندما كان وزيراً للمالية استدعانى إلى أنقرة وتقدم لى بالرجاء الآتى...قائلا: «أستاذى المحترم!... لم أستطع فى سنى دراستى معرفة المعلومات الصحيحة حول الدولة العثمانية. وفى أثناء دراستى فى الولايات المتحدة الأمريكية فقط أدركت مدى خطأ المعلومات التى تعلمتها ضد الدولة العثمانية، ومدى ضرر ردٍّ تاريخنا بكامله. وعندما رأيت أن أصول وطريقة «الالتزام» . التى كنا نعيبها على الدولة العثمانية ونراها من أسباب انهيارها - تقدَّم فى دروس الماجستير كنظرية اقتصادية حديثة تريد الولايات المتحدة الأمريكية الأخذ بها فى جمع الضرائب، ذُهلتُ وبدأتُ بالتدقيق فى تاريخ الدولة العثمانية من جديد. وكان أول عمل قمتُ به هو قراءة الجزء الأول من كتابكم «القوانين العثمانية». ولكن لا يستطيع الجميع قراءة مثل هذه الكتب، لذا أتمنى وآملُ منكم القيام بتلخيص ما جاء فى كتبكم للإجابة على أهم الأسئلة المتكررة حول الدولة العثمانية ضمن كتاب بحجم ٥٠٠ صفحة ويكون عنوانه: «العثمانيون المجهولون». ولو قمت بهذا العمل فسأقوم بطبع ٥٠٠ ألف نسخة من هذا الكتاب وتوزيعه على الراغبين والمشتاقين لمعرفة الحقيقة».

كيف تم اختيار وانتقاء الأسئلة ؟

إن الأسئلة التى أصبحت وسيلة لتأليف هذا الكتاب، ظهرت نتيجة البحوث العلمية التى بدأنا بها منذ عام ١٤٠٤هـ /١٩٨٣م، وكذلك فى أثناء مئات المحاضرات التى ألقيناها فى مختلف مدن الأناضول. فقد تجمع فى بنك الأسئلة عندنا ٥٠٠٠ سؤال، وردت إلينا من القراء ومن المستمعين، فقمنا بتصنيف هذه الأسئلة أولاً، فرأيت مثلاً أن على رأس قائمة الأسئلة ترد ٥٠٣ من الأسئلة تتعلق بموضوع الحريم العثمانى ، ثم

الدولة العثمانية المجهولة
أحمد آق كوندوز ـ سعيد أوزتورك
يصدر قريبا عن «دار الشروق» - القاهرة

والخلاصة أنه حاول شرح التاريخ العثمانى لكل مسلم ممن لا يستطيع الاستغناء عن القراءة شرحاً صحيحاً وصادقاً

٢٧٦ من الأسئلة عمًا إن كان سلاطين آل عثمان - ولاسيما «يلدرم بايزيد» - يشربون الخمر أم لا ؟ ثم تأتى الأسئلة الأخرى حول قتل الأشقاء، والحرية والحقوق فى الدولة العثمانية، وعدم حج السلاطين، وعمًا إذا كان السلطان وحيد الدين خائناً أم لا ؟... إلخ. ولا شك أن البحوث التى سبق أن جرت فى هذه المواضيع كانت معيناً لنا.

وعندما كرر العديد ممن قابلتهم من الناس هذا علمتُ أن قيامى بتأليف كتاب «٧٠٠ سؤال حول الدولة العثمانية فى ذكرى مرور ٧٠٠ عام على تأسيسها» وطبعه بالعدد الكافى وإيصاله إلى المحتاجين وظيفة وطنية دينية. لكن الأصدقاء نبهونى بأن حجم مثل هذا الكتاب سيكون ضخماً، وأنه حتى لو نشر مثل هذا الكتاب فإن الحاجة إلى كتاب يحتوى على ٣٠٠ سؤال مختارة بعناية وتحت عنوان «العثمانيون المجهولون» ستبقى موجودة.

وكنت قبل سنوات قد خططت لتنفيذ هذا الأمر وتأليف مثل هذا الكتاب وحدى، ولكن عندما رأيت تشعب مواضيع هذا المشروع رأيت إشراك زميلى العزيز الدكتور «سعيد أوزتورك» المتخصص فى التاريخ الاقتصادى، والاستفادة من معلوماته الغزيرة فى هذا الصدد، ولا سيما عند تناول مواضيع الاقتصاد العثمانى فى القسم الرابع من الكتاب، فكانت مساهمات زميلى فى حقل التاريخ الاقتصادى العثمانى ومراجعته المصادر لكى يكون الكتاب أفضل وأكمل، وتدقيقه لما كتبت سبباً حتى يخرج هذا الكتاب تحت توقيعين وبقلم مؤلفين.

المبادئ العامة التى اتبعت فى تأليف هذا الكتاب

يجب أن أسجل منذ البداية أنَّ هذا الكتاب ليس كتاباً تاريخياً يتناول الحوادث حسب تواريخها بالتسلسل، كما أنه ليس كتاباً فى فلسفة التاريخ بمعناها الدقيق، وهو أيضاً ليس كتاباً فى التاريخ الفكرى، ومع وجود تقييم حقوقى وقانونى فى كل سطر فيه إلا أنه ليس كتاباً فى تاريخ الحقوق والقوانين العثمانية، بل هو كتابٌ جيبٍ يحتوى على أجوبة لكثير من الأسئلة المطروحة - وبعضها أسئلة طُرحت عن قصد من قبل بعض الجهات - حول تاريخ وحقوق وقوانين وثقافة ومدنية واقتصاد الدولة العثمانية.

هذا الكتاب لا يستغنى عنه أى مؤرخ يعمل فى حقل التاريخ العثمانى، لأنه لم يتردد فى تدقيق عميق لكثير من المواضيع، كما أنه دخل فى تفاصيل تطبيقات بعض النواحى القانونية التى يود المختص فى الشريعة والقوانين الإسلامية معرفتها، وهو يجيب عن أسئلة تدور فى خَلَد المواطن العادى. وقد حاولنا كتابته بأسلوب سهل يفهمه الطالب، ويستفيد منه مدرس مادة التاريخ ويستعمله ككتاب جيب يعينه على الإجابة عن الأسئلة التى يهتم طلابه بمعرفة الإجابة عليها فيوجهونها له. والخلاصة أنه حاول شرح التاريخ العثمانى لكل مسلمٍ ممن لا يستطيع الاستغناء عن القراءة شرحاً صحيحاً وصادقاً. وهو يحتوى على مواضيع بكر تثير انتباه كل من يهتم بالتاريخ العثمانى من المواطنين أو من الأجانب. وقد ولجنا فى هذا الكتاب إلى بعض تفاصيل وقصص حياة السلاطين العثمانيين التى قد يرى البعض أنها لم تكن ضرورية، ولكنها فى الحقيقة كانت ضرورية لتوضيح الأسئلة الأخرى من جهة، ومن جهة أخرى تمَّ شرحها بأسلوب مختلفٍ مثير لانتباه حتى العارفين بهذه المواضيع. كانت غايتنا هى تصحيح التاريخ، والأكثرية العظمى لمجتمعنا ترغب فى مثل هذا التصحيح، وما هذا الكتاب إلا ثمرة هذه الغاية والرغبة.

ومؤلف كلِّ كتاب يضع مبادئ معينة لا يحيد عنها فى الكتاب، وهو ينظم أسلوبه ومحتوى كتابه حسب تلك المبادئ. ولا شك أننا التزمنا فى هذا الكتاب ببعض المبادئ التى لم نحد عنها، ومن أجل تهيئة القارئ فنحن نذكر بعض هذه المبادئ:

(١) هناك فى أيامنا الحالية بؤر معينة وقوى سوداء اتخذت موقفاً معادياً من الدولة العثمانية، وهى تهاجم الدولة العثمانية التى كانت أطول الدول الإسلامية عمراً من ثلاث جبهات:

الجبهة الأولى: هم أعداء الدين والتاريخ، وهم يتخذون الهجوم على الدولة العثمانية والعداء لها كستار للهجوم على الإسلام، لأنهم لا يستطيعون الهجوم السافر عليه. وهم بهجومهم على الدولة العثمانية التى كانت - على الرغم من قصورها - تحاول تطبيق الإسلام فى جميع مناحى الحياة والعيش حسب أوامره، وهم بهجومهم عليها ينفسون عن حقدهم للإسلام الذى لا يستطيعون الهجوم عليه علانية وصراحة.

الجبهة الثانية: هم بعض المسلمين السذج الذين لا يعرفون التاريخ حق المعرفة، والذين خُدعوا بالدعايات المغرضة والمتعمدة للإساءة للدولة العثمانية وأخذوا ماسمعوه مأخذ الجد وكأنه حقيقة صادقة.

الجبهة الثالثة: وهم فئة معروفة أخطأت فى إدراك مفهوم الدولة العثمانية حول الأمة والملة العثمانية فوقفت ضد هذا المفهوم وانتقدته. وهذا المفهوم كان يحتضن جميع المسلمين، لكن هؤلاء قد اتهموا الدولة العثمانية بأنها اتخذت موقفاً معادياً للأتراك وللأمة التركية. فهذه الفئة تنتقد بالأخص نظام «قابو قولو» الذى وضعه محمد الفاتح، وهو نظام المؤسسة العسكرية المعتمدة على جنود «الفرسان والمشاة» الذين تعطى لهم الحكومة رواتب شهرية، كما تقوم بنقد بعض الشخصيات التى كانت من أصول غير تركية والتى استخدمتها الدولة العثمانية مثل عائلة «صوقوللو» نقداً عنيفاً.

ومن أهم مواضيع النقد المشتركة بين هذه الجبهات الثلاث هو قيام الدولة العثمانية وكذلك سلاطينها بعدم رعاية حظر شرب الخمر الذى شرعه الإسلام، وأنهم كانوا مدمنين على الخمر.كما تم تقديم مواضيع مشابهة لهذا الموضوع مثل موضوع الحريم - بعد تزيينه والمبالغة فيه. وبشكل مجانب للحقيقة والواقع. وفى هذا الكتاب تمت الإجابة على جميع هذه المزاعم التى قُدمت من قبل هذه الجبهات.

(٢) كانت الدولة العثمانية دولة كبيرة، لذا فإن تناول التاريخ العثمانى ليس عملاً سهلاً بل هو عمل كبير. وأسلوب الذين يهتمون بتقصى النقائص والبحث عن الأخطاء فقط فى الأعمال الكبيرة هو الجربذة التى هى أسلوب غير صحيح، يؤدى إلى الخداع والانخداع. والذى يعمله هؤلاء وأمثالهم، هو التقاط خطأ معين ثم جعله صفة ورمزاً يغلب على جميع أنواع الخير والصواب، فلو أنك قمتَ بتخيل أن الروائح الكريهة التى يفرزها جسم رجل فى خلال سنة كاملة قد انتشرت من جسم الرجل فى لحظة واحدة، فلا شك أن هذا الرجل سيبدو أمامك كريهاً، وهكذا فإن قمت بتجميع السيئات المنفردة التى حدثت فى ستة عصور فى التاريخ العثمانى وعلى مساحة حكم بلغت ٢٠ مليون كم٢ ثم نظرت من خلال هذه الستارة السوداء إلى الدولة العثمانية، فإنك لن ترى طبعاً سوى تاريخ أسودَ. فالجربذة بجميع أنواعها هى أم الغرائب.

والحقيقة أن العاشق الغارق

كانت غايتنا هى تصحيح التاريخ، والأكثرية العظمى لمجتمعنا ترغب فى مثل هذا التصحيح، وما هذا الكتاب إلا ثمرة هذه الغاية والرغبة

الدولة العثمانية المجهولة

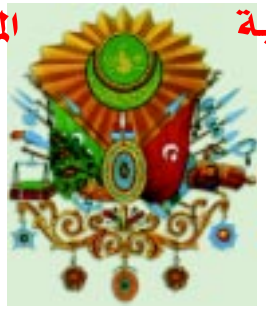

فى عشق محبوبته يرى الكون كله مملوءاً بالحب، أمَّا الأم الثكلى التى فقدت طفلها الحبيب فترى العالم كله باكياً وحزيناً... ولاشك أن كليهما ليس على صواب.

التاريخ عبارة عن حديقة للحوادث وللناس، ولو دخل أحدكم إلى بستان أو إلى حديقة ليتنزه فيها ساعة من الزمن، فإنه قد يلاحظ فى أحد أركان هذه الحديقة الجميلة نقصاً أو شيئا غير جميل، لأن حدائق الجنة وحدها هى المتكاملة الجميلة والخالية من كل نقص، ولأنه يستحيل وجود الكمال الذى لم يخلطه نقص فى هذه الدنيا، فمن كانت طبيعته منحرفة وغير سوية فإنه يركز نظره على ذلك الشىء القبيح «ثمرة متعفنة أو ورقة يابسة»، وكأنه لا يوجد فى تلك الحديقة الجميلة النضرة سواه، فتتحول تلك الحديقة الرائعة الجمال فى نظر وهمه وخياله إلى مزبلة قبيحة ووسخة فيحس بالغثيان ثم يتقيأ. ولكن أيقوم العقل بتصويب مثل هذا التصرف؟ من يرى رؤية جميلة يفكر تفكيراً جميلاً، ومن يفكر تفكيراً جميلاً يرى الجمال، ومن يرى الجمال يلتذ من حياته.

وهكذا نحن، فإن دخلنا إلى حديقة التاريخ العثمانى فلن نركز نظرنا فقط على الأشياء القبيحة والمتعفنة، بل إلى الأزهار الجميلة المفتحة، وإلى الورود العطرة أيضاً، فبجانب الفتوى التى كان يصدرها «طورشوجوزاده» حسب رغبات السلطة نذكر أيضاً موقف العالم «أبو السعود» عندما خاطب السلطان «سليمان القانونى» قائلاً له بكل شجاعة: «لا يمكن لأوامر السلطان أن تقلب الأمور غير الشرعية إلى أمور شرعية». وبجانب «طورلاق كمال» و«مدحت باشا» نذكر «الملا فنارى» و«أحمد جودت باشا». وبجانب الثلاثى للاتحاد والترقى «طلعت - أنور- جمال» الذين خربوا الدولة وهدموها نذكر «بيرى محمد باشا» و«كوبرولو محمد باشا»، وبجانب«قاضى زاده» وأمثاله من الذين وقفوا ضد التقدم العلمى بتعصب أعمى لا مبرر له، نذكر «لاغارى حسن جلبى» و«إسماعيل الكلنبوى»، ولن نوجه لطمتنا إلى «أنور باشا» و«سعيد حليم باشا» عندما نلطم «آنترانيك» و«فانيزالوس»، ونحن ضد من يقوم بهذا. والخلاصة إننا نشبه الأشياء السلبية الموجودة فى تاريخنا بماء ملوث فى إناء، فلو قمت بسكبه فى البحر فلن يستطيع تلويث البحر أبدا، بل ربما تطهر ذلك الماء الملوث.

(٣) إن نظرتنا للتاريخ العثمانى الممتد عبر ٦٠٠ سنة ستكون من خلال منظار يسمح برؤية الأشياء الإيجابية والأشياء السلبية معاً، وإلا فلا يوجد أى عهد تاريخى خلا من السوء، كما لا يوجد أى عهد تاريخى خلا من الخير. والذين ينظرون إلى التاريخ خلاف هذه النظرة يخدعون أنفسهم ويخدعون غيرهم أيضاً، ولو عاش أحد هؤلاء ألف سنة لما تردد فى انتقاد إدارة «عمر بن الخطاب رضى الله عنه» لأنها لا تتوافق مع الصورة المثالية الموجودة فى خياله!! والنتيجة الحتمية لمثل هذه النظرة أنها تكون نظرة هدامة للتاريخ وليست نظرة بناءة. ويجب ألا ننسى أن من كانت حسناته أكثر من سيئاته وخيره أكثر من شره فهو يستحق العفو والمغفرة على الدوام، وهذه هى العدالة الإلهية التى ستتجلى فى الحساب يوم الحشر.

إن أفراد الدولة العثمانية لم يكونوا أشخاصاً معصومين من الخطأ ودون أى إثم، فكما كان من بينهم من وصل إلى مرتبة «ولى الله» مثل «مراد الأول» و«مراد الثانى» و«محمد الفاتح» و«ياوز سليم» و«عبد الحميد الثانى»، كان هناك من يشرب الخمر ويرتكب الآثام الأخرى. ومن الوقائع التاريخية نعرف أن جميع الدساتير الإسلامية كانت مقبولة ومطبقة طوال التاريخ العثمانى على المستوى النظرى، ومن الوقائع التاريخية أيضاً نعرف أنه وجد فى الواقع العملى من خالف هذه القواعد والدساتير، وليس فى الإمكان إنكار أى منهما، فكما هو فى سائر الأشياء فللتاريخ العثمانى حسناته وسيئاته. ولكن لكون حسناته طوال ٦٠٠ سنة أكثر من سيئاته سمح له القدر الإلهى بالعيش طوال هذه المدة، وهى تحمل لواء الدفاع عن الإسلام، وعندما بدأت سيئاته ترجح على حسناته قام القدر بأخذ هذا اللواء وهذا الشرف، ولكن حتى فى أحلك أيام الدولة العثمانية وأكثرها سوءاً بذلوا ما بوسعهم لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، فلم يخالفوا صراحة حكماً شرعياً إسلامياً صريحاً كحرمة الخمر مثلاً، بل اتبعوا الشريعة حتى فى الأمور الاجتهادية، وملايين الوثائق الموجودة حالياً فى الأرشيف العثمانى تبرهن على هذا، حتى إنه قد جاء فى أحد المراسيم السلطانية ما يأتى حول مدى ارتباط السلطان بالشرع: «إننا إن تمسكنا بالشريعة المطهرة فى كافة أفعالنا وتصرفاتنا وسعينا لتطبيقها عند ذلك سيسعد الروح النبوى ويرضى عنا، وتصبح دولتنا العلية مظهراً للنصرة والتوفيق الصمدانى دون أدنى شك».

(٤) لا شك أننا يجب أن ننظر إلى التاريخ بمنظار النقد أيضاً، غير أن ما يسوق الإنسان إلى النقد له أنواع، فهو: إما بدافع الرغبة فى إشباع شعور الكراهية التى يحملها نحو الشىء الذى ينتقده، مثل نقد ما يراه من عيوب العدو. أو بسبب الرغبة فى إشباع شعور الشفقة نحو الشخص الذى ينتقده، وهو مثل رؤية الشخص لعيب صديقه وانتقاده له. لذا فإنه عندما يتم تناول موضوع سلبى -ولا سيما فى ساحة التاريخ - سواء أكان ذلك صحيحاً أم غير صحيح «مثلا ادعاء انتحار يلدرم بايزيد، أو شربه للخمر»، فإن الميل لقبول هذا الادعاء ينبع من الكراهية، أما ردُّه فينبع من الشفقة. أما إن كان الادعاء إيجابياً «مثل رد انتحار بايزيد ورد شربه للخمر» فقبوله ينبع من الشفقة ورده من الكراهية والنفور. ويجب أن نؤكد هنا أن الرغبة فى إيضاح الحقيقة وبيانها يجب أن تكون هى الدافع الوحيد عند القيام بالنقد.

إن أكبر مرض فى عصرنا الحالى - ولا سيما فى موضوع التاريخ العثمانى- هو النقد المستند إلى الغرور وشعور الشطارة، ولو تم اتباع دستور الإنصاف لكان بمقدور النقد إظهار الحقيقة ناصعة وجليّة. ولكن إن تدخل الغرور والشطارة فى هذا الأمر فَسَد التاريخ ومُزِّق. فمثلا إن العديد من الكتب التى ظهرت مؤخراً فى الأسواق حول التاريخ العثمانى قامت بتشويه التاريخ، أما نحن فلا نريد إفساد التاريخ وتشويهه، بل تصحيحه وتعميره، ونحن أصدقاء لأجدادنا لذا فلا ننقدهم بدافع الكره والبغض، بل بدافع الشفقة ومن أجل إظهار الحقيقة وبيانها.

(٥) فى المائة سنة الأخيرة قامت معظم أدوات النشر والإعلام فى مختلف العهود باختراع كلمات مختلفة تقارن جمال الغرب بسيئاتنا، وتقارن الثمار الجميلة للمدنية -التى هى تراكم لنتاج عصور عديدة - مع الأحوال السيئة لبعض شخصيات تاريخنا، وبهذه المحاولات المتسمة بالخداع والشطارة استطاعوا رسم صورة قبيحة لتاريخنا. لقد نسبوا الحضارة إلى الديانة المسيحية مع أنها لم تكن ثمرة المسيحية ولا علاقة لها بها، وربطوا التأخر والتخلف -الذى هو أعدى أعداء الدين الإسلامى- بالإسلام، فقلبوا الأمور رأساً على عقب. لذا فإننا نحاول فى هذا الكتاب وضع الأمور فى نصابها وإصلاح هذا القياس الخاطئ. وعندما نحاول مقارنة التاريخ بأيامنا الحالية نهتم بمعرفة ما إذا كانت الأشياء المقارنة متشابهة أم لا، لأنه لا يجوز المقارنة إلا بين الأشياء المتشابهة، فمثلاً لا يمكن مقارنة السلطنة فى الدولة العثمانية إلا مع النظام الملكى الذى كان سائداً فى أوروبا فى القرون الوسطى، ولا يمكن مقارنة ومقايسة النظام الحقوقى العثمانى إلا مع القوانين الأوروبية التى كانت سائدة آنذاك، والتى كانت تطبق قوانين للبيض غير القوانين التى تطبقها على السود، ولا يمكن مقارنة الحريم العثمانى إلا مع حياة ملوك النمسا الذين كانوا ينصبون تماثيل مئات النساء من محظيات الملك

من الوقائع التاريخية نعرف أن جميع الدساتير الإسلامية كانت مقبولة ومطبقة طوال التاريخ العثمانى على المستوى النظرى

الدولة العثمانية المجهولة

فى جدران قصورهم، عند إجراء مثل هذه المقارنة فقط تستطيع الوصول إلى نتائج صحيحة.

إذا كنت مرتبطاً بقوة مع أوروبا وتحس بنفور عميق من تاريخ أمتك، عند ذلك تتصرف كولد غير شرعى لأوروبا، لأنك تنقلب آنذاك إلى محتال يحاول بشطارته تخريب تاريخه، وإلى شخص يفترى على أجداده، وإلى هجاء وناقد أعلن العصيان على ماضيه، وإلى ولد عاق يريد تمريغ كرامة أمته فى الوحل بتأثير الغرور والأنانية. يمكن ملاحظة أن مثل هذه الأقلام تحمل الرغبة فى إهانة أمتها بدلاً من الشعور بالشفقة نحوها -المكلَّف به عقلاً ودينياً - والكره بدلاً من الحب، والاستهزاء بها بدلاً من تبنى قضاياها، والسخرية منها بدلاً من احترامها، وإظهار ماضيها وكأنه كان غارقاً فى الجهل بدلاً من احترام هذا الماضى، وشعور الاشمئزاز بدلاً من شعور الرحمة نحوها، والكبر والغرور بدلاً من المحبة، وأخيراً الجحود وعدم الأصالة بدلاً من الحمية والأصالة. وهذه الأقلام التى نرى نماذج عديدة منها فى الصحف كل يوم لا تتردد أبداً فى مدح ثوب راقصة شبه عارية فى أماكن اللهو غير البريئة فى باريس، فى الوقت الذى يقوم فيه بالاستهزاء بملابس عالم أو قاض كتب صفحات مجيدة فى التاريخ.

ولنسجل منذ البداية بأن هؤلاء من أذناب الغرب والمتزلفين إليه الذين يتهمون من يقف بجانب دينه وتاريخه بالتعصب فهم متعصبون أكثر من المتدينين والوطنيين مائة مرة فى المواضيع التى يتناولونها ويكتبون فيها، ولو قام من يحب دينه وتاريخه بمدح عبد القادر الكيلانى أو السلطان محمد الفاتح بجزء صغير من المدح المبالغ الذى يكيله هؤلاء لشكسبير مثلاً لقامت قيامة هؤلاء المتعصبين. لذا فعندما شرعنا فى كتابة هذا الكتاب فإننا قد أخذنا بنظر الاعتبار هذا التعصب التاريخى ومحاولين جهدنا ألا نتصرف مثلهم.

أبواب هذا الكتاب

يتألف كتابنا من أربعة أقسام:

نخصص القسم الأول منه لأهم الأسئلة المتعلقة بالتاريخ السياسى للدولة العثمانية والأجوبة عليها، وسنقوم فى هذا القسم بالإجابة عن الأسئلة المترددة كثيراً حول كل سلطان، حتى ولو كانت هذه الأسئلة متعلقة بالجانب القانونى أو الاقتصادى، فمثلاً عندما نجيب عن الأسئلة المتعلقة بالسلطان محمد الفاتح لا ننسى تناول موضوع قتل الأشقاء الوارد فى القوانين التى أصدرها، وعندما نتناول السلطان ياووز سليم لا ننسى الإجابة على ادعاء قيامه بمذبحة للأكراد.

وفى القسم الثانى سنتناول الأسئلة المتعلقة بالحياة الاجتماعية فى الدولة العثمانية وموضوع الحريم.

ونبين فى القسم الثالث النظام القانونى العثمانى والتشكيلات الإدارية.

ونذكر فى القسم الرابع والأخير الأجوبة عن الأسئلة المتعلقة بالناحية الاقتصادية والقوانين المالية فى الدولة العثمانية.

ونحن نأسف لأننا لم نستطع تحقيق رغبتنا فى إفراد مكان لجميع الأسئلة التى وردت إلينا لهذه الأقسام الأربعة، بسبب ضيق المكان، ولكن ما لا يدرك كلُّه لا يترك جلُّه كما يقولون، لذا اكتفينا بهذا القدر، ولو قدَّر الله تعالى لنا فسحة من الأجل فسنقوم إن شاء الله بتأليف كتابٍ فى مجلدين تحت عنوان: «الدولة العثمانية المجهولة فى سبعمائة سؤال» مع الصور والوثائق. وقد أعدنا النظر فى الكتاب فى هذه الطبعة الجديدة وبلغتها الأصلية التى كتبت بها، وصححنا بعض الأخطاء المطبعية التى حدثت فى الطبعة الأولى، وعلى الرغم من كل العناية التى صرفناها فلم نستطع تجنب ظهور بعض هذه الأخطاء. كما أن النقد البنَّاء الذى وردنا من بعض القراء الكرام كان مصدراً من مصادر جهدنا وعزيمتنا.

ونحن نعلن للقراء بأننا على استعداد لتقبل أى نقد والقيام بتصحيح أى خطأ من هذا النوع. إن إجماع الكل سواء أكان يمينياً أم يسارياً، متديناً أم غير متدين، سياسياً كان أم موظفاً، طالباً أم مدرساً وأستاذاً، بأن هذا الكتاب قام بمهمة مد الجسور بين الدولة العثمانية وبين التاريخ الإسلامى لكونهما من آثار الأمة نفسها، ولما كانت الغاية الأولى لهذا الكتاب هى التأكيد على هذا فقد سعدنا جداً من هذا الإجماع. كما كان الإجماع منعقداً على وجوب تناول مواضيع مطروحة على الساحة حالياً مثل: هل أُحرق النَّاس فى عهد الدولة العثمانية؟ وهل كان يُقتل كلُّ صدرٍ أعظم فى الدولة العثمانية؟ وسنتناول إن شاء الله هذه المواضيع فى الطبعات القادمة.

وعلى القارئ الكريم أن يأخذ بنظر الاعتبار الآتى:-

أولاً:- وجدنا أنه من الأفضل أن نضع جميع المراجع والمصادر فى نهاية كل جواب دونَّاه وبهامش واحدٍ، حتى لانثقل على القارئ بكثرة الهوامش، ولكى لايشعر بالتيه فيما بينها وألا تشعره بالملل، وفى حالة رغبته بالاطلاع والتوسع فى موضوع معيَّن يمكنه اختيار ما يرغب فيه منها ومتابعته.

ثانياً:- قمنا بذكر التاريخين الهجرى والميلادى معاً عند ذكرنا ما له صلة بتاريخ معيَّن، وكما هو معلوم فإن الأساس المعتمد فى التاريخ الإسلامى هو التاريخ الهجرى، وإتماماً للفائدة وضعنا إلى جانبه التاريخ الميلادى.

إن النقد البنَّاء الذى وردنا من بعض القراء الكرام كان مصدراً من مصادر جهدنا وعزيمتنا. ونحن نعلن للقراء بأننا على استعداد لتقبل أى نقد والقيام بتصحيح أى خطأ من هذا النوع

ثالثاً:- حاولنا جاهدين بعون من الله تعالى فى ذكرنا للحوادث أن نكون منصفين ناظرين لها من خلال الشرع، وفى كل ماذكرناه لا نقصد الإساءة لأى كان، وكل مانبتغيه هو كشف الحقيقة بما يوثقها علمياً، آملين أن نكون قد وفقنا فى ذلك.

رابعاً:- إن ورود كلمة الشيعة خلال الأحداث التى وردت ضمن الأجوبة، محددٌ بالشيعة الذين اُستغلوا لأغراض سياسية بالعزف على الوتر المذهبى من قبل الدولة الصفوية بحكم الحالة التى كانت بينها وبين الدولة العثمانية.

خامساً:- نقصد بطائفة العلويين فى مؤلفنا هذا، العلويين الذين حاولت الدولة الصفوية أن تجعل منهم رأس حربة موجهة ضد الدولة العثمانية وطابوراً يحاول زعزعة الأمن والنظام، وقد ابتعدوا عن جوهر الإسلام ومبادئه وجاءوا بأعمال وأفعال لا صلة لها به وترك ما فرضه الله.

سادساً: - نود أن ننبه على المراجع المستخدمة فى هذا الكتاب؛ لأننا وضعنا المراجع كلها باللغات المختلفة فى آخر الكتاب، فى ترتيب منهجى موضوعى. قمنا أولاً بوضع المراجع الإسلامية الفقهية، ثم المراجع الأرشيفية، وأيضاً المراجع الأصلية المتعلقة بالتاريخ العثمانى بالحروف العربية. أمّا المقالات والبحوث ومواد الموسوعات والدوريات التى كانت معظمها إما باللغة التركية أو باللغة الإنجليزية، فقمنا بوضع هذه المراجع باللغتين التركية والإنجليزية، واعتنينا بترجمة بعض عناوين المقالات والبحوث إلى اللغة العربية فى الهوامش، ليزيد الانتفاع من المراجع والكتاب.

ونرى من واجبنا ونحن نقدم هذا الكتاب للقراء تقديم جزيل شكرنا لكل من أسهم فى إخراجه بهذا الشكل، وفى مقدمتهم مترجمان يجيدان اللغة العربية والتركية كلغتهما الأم، ألا وهما د. اورخان على وعونى لطفى اوغلى، وإلى الأخ جلال عامر ومحمد فاتح أوزبرك لتصحيح بعض الأخطاء، زوجتى «صائمة بلقيس آق كوندوز» التى بينت وجهات نظر قيمة حوله، وابنى «أمر الله آق كوندوز» وكبيرنا الموقر «وحدت يلماز» وصديقنا العزيز «مصطفى قره مان» وإلى مدير وقف البحوث العثمانية السيد «محمد أمين شاهين» الذى قدم مساعدات قيمة فى الأمور التكنيكية، وإلى كل من لم يتأخر عن مساعدتنا ماديا ومعنوياً، وإلى أعضاء إدارة وقفنا، ونحن نؤمن بأن التوفيق من الله سبحانه وتعالى. ■

ربما تنجح الثقافة فيما أفسدته السياسة

بداية جديدة

سينثيا ب. شنايدر
Cynthia P. Schneider

■■ أشار الرئيس أوباما فى خطاب تنصيبه، وخطابه الأخير الذى ألقاه فى جامعة القاهرة إلى أنه جاء إلى القاهرة سعيًا وراء بداية جديدة بين الولايات المتحدة والمسلمين فى أرجاء العالم... بداية تعتمد على حقيقة أن أمريكا والإسلام يشتركان فى مبادئ واحدة، وهى مبادئ العدالة والتقدم، ومبادئ التسامح والكرامة لكافة البشر. وأن هناك ضرورة لاتخاذ سبيل جديد إلى الأمام، يعتمد على المصالح المشتركة والاحترام المتبادل فى علاقة أمريكا بالمسلمين فى أرجاء العالم. وذلك على أساس أن التفاعل الثقافى يعتبر إستراتيجية إيجابية لتعزيز علاقات أفضل بين الولايات المتحدة والمسلمين فى أرجاء العالم. وقد أكد قادة الفنون والثقافة من العالم الإسلامى والولايات المتحدة فى منتدى العالم الإسلامى والولايات المتحدة فى مدينة الدوحة بقطر فى العام الماضى ٢٠٠٩ على أهمية التفاعل فى مجالات الفنون والثقافة فى الوقت الحاضر.

وقد أكد الرئيس أوباما فى تفصيل رؤيته للعلاقة الجديدة التى ينشدها بين المسلمين والولايات المتحدة الأمريكية على أهمية وجود الأرضية المشتركة بين أمريكا والإسلام، معتمداً على كثير من آيات القرآن الكريم، وتحدث بصراحة عن الديمقراطية، وتمكين المرأة، بالإضافة إلى كيفية معالجة عدد من الصراعات التى تمتد من باكستان إلى فلسطين، والتى يمكن التخلص منها خلالَ العديد من الأفكار والمشروعات التى تهدف إلى تعزيز الروابط الثقافية بين الأمريكيين والمسلمين فى أنحاء العالم، وذلك من خلال برامج التبادل التعليمى، والبعثات الداخلية، والتعليم الإلكترونى، والتشبيك الاجتماعى الإلكترونى؛ حيث يتمكن الشباب الأمريكى من التواصل مباشرة مع الشباب فى القاهرة. وأشار إلى أن الكثير من الأفكار التى يمكن أن تحقق التواصل يمكن تنفيذها من خلال القنوات السياسية، وكذلك تُعْتَبَر الفنون والثقافة والإعلام قنوات قادرة على طرح مداخل هامة من أجل تعزيز التفاعل والتفاهم المتبادلَين، بالإضافة إلى التأكيد على المبادئ المشتركة من عدالة وتقدم، وتسامح وكرامة. وذلك فى إطار مناخ يبعد كثيراً عن التعقيدات والتغيرات المفاجئة، والانعزال المتزايد للسياسة والساسة فى العديد من الدول. خاصة أن كلاً من الفنون والثقافة يقدِّم سُبُلاً فعالة لتفكيك الأنماط المقولبة والحواجز، وزيادة التفاهم، وتعزيز التغير الاجتماعى فى المناطق التى تتصف فيها العلاقات بالتوتر، لأسباب تتعلق بالجهل بالإسلام والمسلمين بين السكان فى الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك بالنسبة للأنماط المقولبة ونظريات المؤامرة بل والمعلومات المغلوطة عن الولايات المتحدة، والتى تتكاثر فى الكثير من الدول ذات الأغلبية المسلمة. خاصة أن العديد من استطلاعات الرأى تكشف عن وجود الكثير من الأنماط السلبية والمقولبة على الجانبين، ولذلك تظهر الأهمية الحيوية للعوامل الثقافية فى تشكيل العلاقة ما بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامى. وهو الأمر الذى يعزز الحاجة الملحة للمزيد من المعلومات الدقيقة عن المسلمين والإسلام فى الولايات المتحدة، وإلى تصوير أكثر دقة لأمريكا والأمريكيين فى العالم الإسلامى.

هذا ومن المعروف أن السكان فى الولايات المتحدة يتمتعون بهويَّات متعددة، كما أن لهم انتماءات سياسية ودينية متعددة، ولذلك نجد أن التعبير الإبداعى بمختلف أشكاله يمكنه أن يتجاوز الاختلافات السياسية، والثقافية، والدينية من أجل إضفاء صبغة إنسانية، وإيجاد أرضية مشتركة؛ خاصة أن بعض الأفلام مثل فيلم The Kite Runner، وفيلم Slumdog Millionaire أوضحت أن الروايات الجيدة قادرة على تخطى الحدود. كما أن أجهزة الإعلام والتشبيك الاجتماعى الجديدة تتيح التوسع فى مدى تأثير الأعمال الإبداعية، والتى تعمل فى نفس الوقت على تعزيز الدبلوماسية، وتحسين الإستراتيجيات الخاصة بالتنمية الاقتصادية والمجتمعية.

ويركز هذا المقال على سبيلَيْن أساسيَّيْن يتيحان للفنون والثقافة التفاعل باعتبارهما مكونَيْن من مكونات العلاقات البناءة بين الولايات المتحدة والمجتمعات الإسلامية فى جميع أنحاء العالم، وذلك من خلال التفاعل الثقافى، الذى يتحقق من خلال التعاون والإنتاج المشترك.

هذا ويتطلب دمج الفنون والثقافة والإعلام فى توطيد العلاقة ما بين الولايات المتحدة والمسلمين فى أنحاء العالم أن تعمل الفنون والثقافة من خلال البحث عن السُّبُل الفعَّالة فى زيادة الوعى عن الثقافات الأخرى، وتقويض الأنماط المقولبة، وإبراز الجانب البشرى المشترك الذى يربط بين جميع السكان المسلمين وغير المسلمين، بالإضافة إلى أن الفنون والثقافة يمكن أن تعمل على بناء الجسور بين المجتمعات وخاصة أن الفنانين يمثلون أدوات شديدة الأهمية للتغيير الاجتماعى داخليًا، كما أن التعبير الإبداعى يمكنه فى كثير من الأحوال تفادى الرقابة والاستحواذ على اهتمام الجمهور. وتعتبر الأفكار التى يتم نقلها عن طريق الفنون والإعلام فى معظم الأحوال قادرة على اختراق المجتمعات والانتشار بشكل سريع. خاصة إذا ما تم إدراك قيمة التعبير الإبداعى فى كافة أشكاله، والعمل على دمجه فى الإستراتيجيات الأوسع للدبلوماسية والتنمية، والتغير الاجتماعى.

كذلك فإن الإعلام والفنون يمكن اعتبارهما أدوات للتغير الاجتماعى، حيث يقوم الفنانون بدور المرآة فى أى مجتمع، ويعكسون من خلال ما يقومون به نقاط القوة والضعف، كما أنهم يتعاملون مع الأوضاع الراهنة فى المجتمع. وقد حدث خلال الحرب الباردة أن قام الموسيقيون والكتاب الأمريكيون بالسفر إلى مناطق كثيرة من العالم بغرض إحياء مفاهيم الحرية وحرية التعبير، وذلك من خلال الحديث صراحة، بل وأحيانًا بطريقة نقدية عن أوجه عدة من المجتمع الأمريكى. كذلك نجد حاليًا أن المعارضة تجد لنفسها صوتًا فى موسيقى الراب والهيب هوب التى تقدم نقطة اتصال ذات فعالية خاصة ما بين الولايات المتحدة، وقطاع الشباب فى كثير من المناطق فى العالم الإسلامى.

ويمكن للإعلام أيضًا، خاصة برامج التليفزيون أن تتناول قضايا مهمة مثل الفساد الحكومى فى عدد من الدول، أو تناقش تحسين الأوضاع الخاصة بحقوق المرأة، والتى تؤثر بشكل مباشر فى التغيير الاجتماعى، كما أنه فى كثير من البلاد تعمل وسائل الإعلام المحلية على نشر الأفكار، والقيَم بشكل ضمنى وفى داخل الإطار المحلى.

ويستحق التعبير الإبداعى، وممارسوه فى العالم الإسلامى التأييد والدعم، حيث يتصدى هذا التعبير إلى الكثير من

Cynthia P. Schneider is an expert in cultural diplomacy. She teaches Diplomacy and Culture at Georgetown University. She served as U.S. Ambassador to the Netherlands (1998-2001)

ترجمة: محسن يوسف

القضايا الهامة، وكذلك صياغة الهويَّات، والكشف عنها، ومن ثَمَّ يعملون على تعزيز الشعور الثقافى المحلِّى والإقليمى والعالمى، خاصة فى مواجهة التطرف، حيث تُعْتَبَر الفنون والثقافة والإعلام من الأدوات الضرورية للحفاظ على تماسك المجتمع، الذى يمكن أن يتحقق من خلال التعبير الإبداعى والذى يساعد على وضع لَبِنَات جديدة فى المجتمع تكون أكثر انفتاحية، وتعتمد على الممارسات الديمقراطية.

إن مناهضة التطرف، وعدم التسامح فى العالم الإسلامى لا يتطلب الرجوع إلى الأفكار والأمثلة الأمريكية، ولكنه يتطلب الرجوع إلى الحضارة المزدهرة فى العالم العربى والإسلامى منذ ألف عام. خاصة أن كلاسيكيات النهضة العربية فى نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين تحتوى على الكثير من القيَم الإيجابية، غير أن هذه الكلاسيكيات، وكذلك الأعمال المعاصرة تظل بعيدة، ولا يسهل الوصول إليها. ولذلك يجب العمل على إعادة نشرها وتوزيعها، حتى يتمكن العرب والمسلمون وغير المسلمين من فهم تاريخهم الثرى الطويل من التسامح وطلب العلم، بالإضافة إلى تعريف الغرب به.

تتصف وسائل الإعلام الجديدة، التى تستخدم الوسائل التكنولوجية الحديثة، ومنها على سبيل المثال: التشبيك الاجتماعى، بقدرته الكامنة على التأثير فى المجتمع، أو إحداث التغيير الاجتماعى، وبصفة خاصة إنه يمكن الدخول على شبكة الإنترنت فى البلاد الإسلامية. وهو الأمر الذى يتطلب التعاون بين مصممى المحتوى وخبراء الإعلام، أو أشكال التكنولوجيا الجديدة للعمل على تأسيس مجموعات للتشبيك الاجتماعى وغيره من أشكال التواصل على شبكة الإنترنت؛ حيث لم يتم الاستفادة منها كليًا، ولم يتم إدماجها بشكل منتظم فى الإستراتيجيات السياسية أو التنموية. ولذلك، فمن المهم استغلال القدرة الإيجابية الكامنة للأشكال التكنولوجية الحديثة فى العمل على إشراك الشباب المسلم من خلال طرق بديلة لم يتم تحقيقها، خاصة أن بعض الجماعات المتطرفة تنجح حاليًا فى اجتذاب الشباب الذى يعانى من الفراغ.

هناك اتفاق على ضرورة استغلال أفضل الممارسات فى التفاعل الثقافى، خاصة من خلال العديد من أشكال التعاون والإنتاج المشترك حيث إن الإنتاج المشترك يمثل آلية شديدة الفعالية فى عملية التفاعل الثقافى، والإنتاج التعاونى، مثل عرض Our Town الذى أقيم فى القاهرة عام ٢٠٠٣، أو أكاديميات الموسيقى والرقص التى أقامتها الفرقة الاستعراضية American Voices فى عامى ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ فى العراق، فإنه من الملاحظ حاليًا أن عدد المبادرات الأمريكية يتضاءل مقارنة بالمبادرات الثقافية الأوروبية. ولذلك فمن المهم التركيز على أشكال التعاون والإنتاج المشترك التجارى وغير الهادف للربح بين المؤسسات والأفراد فى الولايات المتحدة، ومناطق الأغلبية المسلمة.

وكما هو معروف فإن الأزمة الاقتصادية قد أثرت سلبيًا على صناعة السينما، وغيرها من القطاعات، وقد يكون لذلك جانب مشرق من حيث التفاعل الثقافى بين «هوليوود» مثلاً والأصوات الإبداعية فى العالم الإسلامى. خاصة أن الركود الاقتصادى أدى إلى اندثار النماذج التقليدية لتمويل الأفلام وإنتاجها فى الولايات المتحدة بالإضافة إلى انهيار أسواق الفيديو.

وفى الوقت نفسه، أخذت المنتجات الرقمية الجديدة فى توليد أشكال مبتكرة من الإبداع والتوزيع. فصار التقارب بين الأفلام والتليفزيون والإنترنت يعمل على طمس الحدود الجغرافية بما يتيح لأفلام «هوليوود» أو برامج التليفزيون أن تخرج إلى النور من أى مكان. ويوضح نجاح شباك التذاكر الذى حققه فيلم Slumdog Millionaire أن الجمهور الأمريكى قد صار الآن أكثر انفتاحًا للأفلام الأجنبية المترجمة. ويمثل هذا الخليط من العوامل مساحة إيجابية لمنتجى الأفلام من العالم الإسلامى، حيث تتاح الفرصة حاليًا وبشكل أكبر للعديد من أشكال التعاون الدولى التى تربط بين المبدعين من ناحية، والمستثمرين والمنتجين من ناحية أخرى، وبين المنتجات الإبداعية من ناحية، والجماهير الجديدة من ناحية أخرى.

إن وسائل الإعلام الجديدة وتكنولوجيا الهواتف المحمولة أصبحت تتجاوز الأساليب التقليدية فى عمليتى الإنتاج والتوزيع، وبذلك فقد تم توفير وسائل جديدة لإشراك العالم الإسلامى فى الأنواع الجديدة من الإنتاج المشترك والتعاون بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامى، ومن الأمثلة الجيدة على ذلك؛ ما قام به مركز كينيدى، بالتعاون مع وزارة الخارجية الأمريكية، تحت مسمى برنامج للدبلوماسية الثقافية استهدف العالم العربى، واشتمل على ورش عمل للإدارة الفنية عُقِدَت فى كُلٍّ من واشنطن والقاهرة وفلسطين، واختتم بمعرض ثقافى دام ثلاثة أسابيع تحت عنوان: Arabesque: Arts of the Arab World. كما أقامت جمعية آسيا، بالاشتراك مع أكاديمية بروكلين للموسيقى وجامعة نيويورك، برعاية مهرجان للفنون الإسلامية تحت عنوان Muslim Voices. حيث قدمت هذه المهرجانات إنتاجات مشتركة تركز على نقاط الالتقاء بين الشرق والغرب، بالإضافة إلى أشكال متميزة من الفنون الخاصة بالعالم الإسلامى.

إن الاحتفالات الكبرى بفنون العرب والعالم الإسلامى وثقافتهم لا تساعد فقط على توعية الجماهير الأمريكية، بل تقدِّم قدرًا ملموسًا من الاحترام الذى ينعكس فى التغطية الصحفية الواضحة للمهرجانات فى مختلف المناطق خارج أمريكا. وهو الأمر الذى يتطلب وضع سياسة قوية مستدامة للمشاركة الثقافية بالإضافة إلى ضرورة توفير التمويل اللازم لتحقيق هذه الأنشطة، ومواصلتها.

هذا ويتطلب تحقيق الاستفادة من الثقافة والفنون ضرورة عرض لبعض الإستراتيجيات والإجراءات التى تساعد على فهم إدراك قدرة الفنانين، وأعمالهم الإبداعية فى بناء الجسور، والتأثير فى المجتمعات، والتشجيع على الفكر النقدى، وتعزيز التنمية والتقدم الاقتصادى. الذى يمكن أن يتحقق من خلال إدماج الفنون والثقافة فى الإستراتيجيات الدبلوماسية والتنموية التى تتعلق بالعالم الإسلامى. خاصة إذا ما أمكن توفير التمويل للمبادرات الفنية والثقافية وللفنانين، على أن يتم التركيز فى التمويل على الكيانات، والمشروعات التى لها سجلات مسارية أثبتت جدارتها، والتى تعتمد على نقاط التواصل القائمة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامى.

ويعتبر تشجيع الإنتاج المشترك ونماذج الشراكة العامة- الخاصة فى مجالات السينما والتليفزيون والموسيقى والإعلام من أفضل الممارسات لتحقيق التفاعل بين الشعوب والفهم الصحيح بينها، وخاصة إذا ما تم التبرع والتبادل بالمواد التى تم إنتاجها فى كُلٍّ من الدول العربية، والولايات المتحدة الأمريكية، والدول الإسلامية.

كذلك يتطلب الوصول إلى الشباب، وكما سبقت الإشارة ضرورة زيادة فعالية الإعلام الجديد والتشبيك الاجتماعى بين شباب من السكان فى العالم الإسلامى من خلال تشكيل مجموعات عمل متعددة التخصصات من صانعى السياسات، والفنانين، وخبراء التكنولوجيا، ومن خلال توفير وزيادة التمويل للمشروعات والمبادرات والإعلام التعاونى الجديد مع ضرورة إشراك الخبراء القانونيين، ورجال الأعمال للوصول إلى سبل جديدة لتمويل المحتوى الإبداعى النابع من العالم الإسلامى. وهو الذى يتطلب دعم الأشخاص والمشروعات فى العالم الإسلامى التى تستخدم الإعلام لرعاية التغيير الاجتماعى الإيجابى، وتعزيز قيَم التنوع والتعايش والاحترام المتبادل والديمقراطية. والتى يمكن أن تساعد على إزالة الحواجز التى تعرقل حرية التعبير فى كل من الإعلام والفنون.

ولتحقيق ذلك فإن هناك ضرورة للبحث عن المشروعات التى يمكن أن تحقق الإستراتيجيات المطلوبة عن طريق استخدام أدوات التشبيك الاجتماعى لبناء مجتمع ثقافى مستدام له اهتمام واضح، ويركز على حدث ثقافى، مثل حفل موسيقى أو مهرجان سينمائى أو معرض فنى على أن يتم تسجيل الحدث من خلال أفلام فيديو قصيرة يقوم بتصويرها أعضاء من الجمهور، والتى يمكن أن يتم بعد ذلك تحميلها على مواقع التشبيك الاجتماعى وذلك باستخدام أدوات التشبيك الاجتماعى لتأسيس روابط طويلة الأجل بين المشاركين، والتركيز على تأسيس الروابط بين الشباب فى الولايات المتحدة والمسلمين فى العالم. واختبار هذا المفهوم للعمل على تطوير نموذج يمكن تكراره فى فعاليات أخرى.

كما يمكن إنشاء بوابة ثنائية الاتجاه على شبكة الإنترنت، وذلك لتشجيع الإنتاج السينمائى المشترك، وتيسير الإنتاج فى الموقع بالنسبة للشركات الأمريكية فى العالم الإسلامى. كما يمكن أن تتيح هذه البوابة المقترحة لصانعى السينما الأمريكيين والشركات شراء السيناريوهات والمواقع من خلال تقديم معلومات شاملة ومتوفرة عن صناعة السينما فى العديد من الدول الإسلامية، مع عرض أفكار القصص التى يقدمها كتاب من العالم الإسلامى، والتعرف على التفاصيل الخاصة بالقدرات الفنية المحلية. كما يمكن من خلال هذه البوابة أن يتاح للمبدعين فى العالم الإسلامى الوصول إلى صناع السينما الأمريكية، كما يتاح للمستخدمين فى الولايات المتحدة الحصول على المعلومات الخاصة بصناعة السينما فى العالم الإسلامى، بالإضافة إلى إمكانية الوصول إلى المواهب المتوافرة به. ويمكن أن يدعم ذلك إنشاء تحالف من شركات الإنتاج وخبراء الإعلام الجديد للعمل على تطوير منبر للمنتجين المستقلين للبرامج الخاصة بالشبكة الدولية فى كل من الولايات المتحدة الأمريكية والعالم الإسلامى.

والخلاصة، فإن استخدام الفنون والثقافة للتفاعل يُعْتَبَر مجالاً مفتوحًا للتعاون المشترك، والتفاهم، وقبول الآخر، خاصة إذا ما تَمَّ التوسع فى تأسيس نقاط أخرى للتواصل من خلال الأنواع المختلفة من الفنون مثل الموسيقى والشعر بين كلٍّ من أبناء البلاد الإسلامية، وغيرها من البلاد الأخرى فى العالم المتقدم. ■

Alexandria
Historical and Archaeological Guide

الإسكندرية
دليل التاريخ والآثار
يسرية عبد العزيز حسنى
مقدمة زاهى حواس
الجامعة الأمريكية بالقاهرة فبراير ٢٠١٠
١٨٠ صفحة ـ ٧٥ جنيها

يعطى هذا الكتاب، الملون بالكامل، صورة عامة عن جميع المواقع التاريخية فى الإسكندرية وما حولها، بدءا من آثار العصر البطلمى القديم التى لا تزال مغمورة تحت مياه البحر، مرورا بسراديب الموتى الخاصة بالعصر اليونانى الرومانى، وحتى أهم المعالم اليهودية والمسيحية والإسلامية للمدينة. كما يضم أيضا جميع متاحف المدينة.

■

APhotographer on the Hajj
The Travels of Muhammad' Ali Effendi Sa'udi (1904/1908)

صور الحج
أسفار محمد «على أفندى سعودى (١٩٠٤/ ١٩٠٨)»
فريد قيومجيوروبرت جراهام
الجامعة الأمريكية بالقاهرة ديسمبر ٢٠٠٩
ـ ١٤٤ صفحة ـ ١٨٠ جنيها

واحد من أقدم السجلات البصرية للحج وللمدينتين المقدستين مكة والمدينة تقدم مذكرات محمد «على أفندى سعودى»، وهو موظف حكومى ومصور بارع، لمحة نادرة للحج من خلال عيون مصرية فى بداية القرن العشرين عندما كانت الإمبراطورية العثمانية فى طريقها إلى الزوال، وعندما هدد خط الحجاز الحديدى بزعزعة المصالح الراسخة للنمط القديم للحج. رافق سعودى أمير الحج، إبراهيم رفعت باشا، مرتين بصحبة البعثة المصرية الرسمية. تجمع روايته لهذه الرحلات بين أفكار مسلم متدين وتفاصيل دقيقة للمصاعب والمخاطر الصحية التى تواجه الحجاج، إضافة إلى دسائس رفيعة المستوى، وكم من المخاطر تواجه التقاط الصور يفوق أى وقت مضى إلى الوقت الحاضر. ضغط الكاتب اليوميات فى سرد جد مقروء مع اقتباسات مختارة، موضحة بسخاء من خلال صور سعودى اللافتة للنظر.

فريد قيومجى هو متخصص فى الأدب، وأسفار الشرق الأوسط، بما فى ذلك الوثائق التاريخية، والطباعة الحجرية، والصور الفوتوغرافية للقرن التاسع عشر. أما روبرت جراهام فهو يعمل حاليا ككاتب مستقل ويعيش فى باريس وجنوب إسبانيا. وحصل فى عام ٢٠٠٤ على وسام الإمبراطورية البريطانية لخدمات الصحافة.

■

Amarna Sunset
Nefertiti, Tutankhamun, Ay, Horemheb, and the Egyptian Counter-Reformation

غروب تل العمارنة
نفرتيتى، توت عنخ آمون، آى، حور محب، والمكافحة المصرية للإصلاح
أيدان دودسون
الجامعة الأمريكية بالقاهرة ديسمبر ٢٠٠٩
١٩٢ صفحة ـ ١٢٠ جنيها

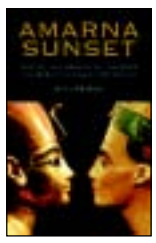

قراءة جديدة فى العودة إلى الأرثوذكسية بعد ثورة إخناتون تحكى هذه الدراسة الجديدة، المعتمدة على أحدث البحوث، قصة تدهور وسقوط الثورة الدينية للفرعون اخناتون فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. بادئة بأعلى نقطة لنظامه، فى سنته الـ١٢، ومتتبعة الانهيار المتلاحق المتزامن مع وفاة العديد من أحباء الملك، ومحاولاته لحماية الثورة عن طريق إشراك آخرين فى الحكم، والاعتداء المحموم الأخير على الإله آمون. ثم يسلط الكتاب الضوء على الأحداث التى جرت فى العقود الخمسة اللاحقة والتى شهدت انقراض الخط الملكى، ومحاولة وضع أجنبى على عرش مصر، وارتقاء ثلاثة من ضباط الجيش للعرش بدورهم. ومن تبين استنتاجاته أن والدة توت عنخ آمون لم تكن سوى نفرتيتى، التى كانت مشاركة للحكم مع كل من زوجها وابنها اخناتون. ووفقا لهذا التصور، قامت بنفسها فى البداية بدور فعال للعودة إلى الأرثوذكسية، والتراجع عن مشروع زوجها السابق قبل اختفائها الغامض.

أيدان دودسون هو زميل باحث فى قسم الآثار والأنثروبولوجيا فى جامعة بريستول، بالمملكة المتحدة، حيث يعلم علم المصريات. وقد ألف أحد عشر كتابا وأكثر من ٢٠٠ من العروض والمقالات.

■

Alexandria National Museum
متحف الإسكندرية القومى
مقدمة زاهى حواس
الجامعة الأمريكية بالقاهرة يناير ٢٠١٠
١٦٨ صفحة ٧٥ جنيها

يضم متحف الإسكندرية الوطنى مجموعة من أهم القطع الأثرية التى وجدت فى المنطقة، من جميع فترات التاريخ المصرى من أقدم العصور الفرعونية وحتى العصر الحديث، عاكسا تاريخ المدينة الغنى بتنوعه الثقافى. يعد الكتاب الجديد دليلا لمقتنيات المتحف ولتاريخها على حد سواء.

■

Ancient Egyptian Art
Visual Encyclopedia A

الفن المصرى القديم
موسوعة بصرية
أليس كارتوتشى
الجامعة الأمريكية بالقاهرة ديسمبر ٢٠٠٩
٣٥٢ صفحة ـ ٢٠٠ جنيه

أربعة آلاف سنة من الفن بالألوان الطبيعية. تمتد المنجزات الفنية فى مصر على مدى أربعة آلاف سنة؛ من أقدم الوجوه الطينية وأمشاط عاج فى عصور ما قبل التاريخ، مرورا بالتماثيل المتقنة فى عصر الدولة القديمة، ولوحات المقابر الرائعة فى المملكة الحديثة، والصور المثيرة للدهشة المرسومة فى العصر الرومانى. فى هذا المرجع البصرى الجديد والفريد، نجد أروع أمثلة الفن المصرى من مقتنيات المتاحف فى جميع أنحاء العالم، موضحة فى أكثر من ٣٦٠ صورة فوتوغرافية جميلة كاملة الألوان. لا يعد هذا الكتاب فقط وليمة للعيون، فهو أيضا غنى بالمعلومات، مع مقدمات لكل فترة تاريخية، وملخصات بيانية للتاريخ المصرى والاكتشافات الأثرية العظيمة، والتسلسل الزمنى، إضافة إلى مسرد. يستحق هذا الاحتفاء بالتعبير الإبداعى المصرى القديم مكانا على رفوف علماء المصريات ومحبى الفن على حد سواء.

ولدت أليس كارتوتشى، فى اريتسو فى عام ١٩٧٧، وهى كاتبة وباحثة مستقلة فى الرياضيات والفن المصرى القديم.

■

Bulletin of the Egyptian Museum
Volume 4

نشرة المتحف المصرى
المجلد ٤
الجامعة الأمريكية بالقاهرة فبراير ٢٠١٠
١٢٤ صفحة ٩٠ جنيها

نشرة المتحف المصرى تعتبر منتدى دوريا لعلم المصريات يتناقش من خلالها العلماء فى الجوانب المختلفة لهذا العلم. توثق مجموعة المقالات العلمية فى هذه المجلة لأبحاث إنكليزية، وفرنسية، وألمانية، وإيطالية، وعربية فى الفن المصرى القديم، والقطع المتحفية والمجموعات، والتحنيط، وعلم المتاحف. يضم هذا الجزء مقالات عن عبادة حتحور، وعن الحفريات فى منطقة سقارة، والاكتشافات فى مقابر بناة الأهرام.

■

Gilf Kebir National Park
Egypt Pocket Guide

المحمية الطبيعية للجلف الكبير
دليل الجيب لمصر
ألبرتو سيليوتى
الجامعة الأمريكية بالقاهرة فبراير ٢٠١٠
٤٨ صفحة ـ ٤٠جنيها

الدليل الأول والوحيد عن العوينات والجلف.

تكمن فى أقصى الزاوية الجنوبية الغربية لمصر واحدة من أروع المناطق الأقل شهرة من الصحراء الكبرى. أعلنت كمحمية طبيعية من قبل الحكومة المصرية فى عام ٢٠٠٧ لأهميتها الأثرية العظيمة وتراثها الطبيعى التاريخى. والجلف الكبير، هو كتلة صخرية واسعة تبلغ مساحتها ضعف مساحة كورسيكا، أما جبل العوينات، فيتكون من ألفى متر من التلال المنعزلة، لم يتم اكتشافها إلا فى عشرينيات القرن الماضى، وتم استكشافها فى العقود التالية، لكن اليوم أصبح عدد متزايد من الزوار قادرين على الوصول إلى هذه المنطقة الصحراوية الفريدة من نوعها فى بعثات طويلة ليخبروا بأنفسهم الجيولوجيا والبيئة الخاصة للمكان، واللوحات الصخرية الفريدة التى تعود للعصر الحجرى الحديث. والآن، يدل ألبرتو سيليوتى، من خلال نص واضح وصور ملونة ورسومات وخرائط وصور الأقمار الصناعية، الزائر الجرىء إلى معالم المحمية الطبيعية، مع ملاحظات بشأن ما ينبغى أخذه فى مثل هذه الرحلات الصحراوية الطويلة وما ينبغى تركه وراءه.

ألبرتو سيليوتى هو صحفى علمى متخصص فى علم المصريات، كتب العديد من الكتب بما فى ذلك «اكتشاف مصر القديمة» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٨)، و«الدليل المصور لأهرامات مصر» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٣)، والسلسلة الشعبية لدليل الجيب المصرى.

■

In Search of Cosmic Order
Selected Essays on Egyptian Archaeoastronomy

بحثا عن نظام كونى

مقالات مختارة عن علم الفلك الأثرى المصرى
حرره خوان انطونيو بلمونتى
ومسلم شلتوت
مقدمة زاهى حواس
الجامعة الأمريكية بالقاهرة فبراير ٢٠١٠
٣٦٠ صفحة ١٥٠ جنيها

هذه المجموعة من الدراسات، التى قام بها متخصصون فى علم المصريات وعلم الفلك، هى محاولة لفك بعض أسرار الحضارة المصرية القديمة. من بين المواضيع التى تم بحثها: الأبراج المصرية القديمة، والتقويم المصرى، وفن التصوير الطبيعى والرمزى، خاصة فى كيفية ارتباطها باتجاهات المعابد والمقابر الملكية.

خوان انطونيو بلمونتى هو منسق مشاريع فى معهد الفيزياء الفلكية بجزر الكنارى، تينيريفى، إسبانيا. أما مسلم شلتوت فهو أستاذ الفيزياء الشمسية فى المعهد القومى لبحوث الفلك والجيوفيزياء، جامعة حلوان، مصر.

■

Luxor Illustrated
With Aswan, Abu Simbel, and the Nile

رسوم الأقصر

مع أسوان وأبو سمبل، ونهر النيل
مايكل هاج
الجامعة الأمريكية بالقاهرة ديسمبر ٢٠٠٩
٩٦ صفحة ٩٠ جنيها

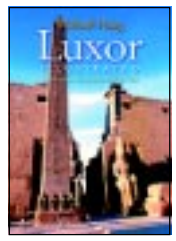

احتفالا بالألوان الطبيعية للمعالم الأثرية والمناظر الطبيعية فى صعيد مصر تتخذ الأقصر موقع طيبة القديمة، العاصمة الفخمة للدولة الحديثة فى مصر القديمة. وهى تضم معابد الأقصر والكرنك المذهلة على الضفة الشرقية لنهر النيل، وعلى الضفة الغربية مدينة الموتى، التى تضم تماثيل ممنون العملاقة والرامسيوم الشهير، والمعبد الجنائزى الرائع للملكة حتشبسوت، ووادى الملوك، الملىء بمقابر ملكية، من بينها المكان الأسطورى الذى دفن فيه توت عنخ آمون. تبرز عظمة ووفرة الآثار الفرعونية فى الأقصر سمعتها بوصفها أكبر متحف فى الهواء الطلق فى العالم. ممتدا إلى ما بعد مدينة الأقصر، يغطى هذا الكتاب أيضا جميع المواقع الرئيسية فى صعيد مصر، بما فى ذلك أبيدوس، ودندرة، وإسنا وإدفو وكوم امبو. ويولى اهتماما خاصا بأسوان، واحد من أجمل الأماكن فى مصر، مع جزيرتها القريبة من معبد إيزيس فى فيلة. وتتويجا لهذا الكتاب الغنى بالمعلومات والصور يأتى معبد أبو سمبل الاستثنائى، بما يحتويه من تماثيل ضخمة لرمسيس الثانى وزوجته الجميلة نفرتارى التى نحتت مباشرة فى صخور الجبل.

مايكل هاج هو كاتب ومصور مقره لندن، كتب «رسوم الإسكندرية» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٤) و«رسوم القاهرة» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٦)، وهو أيضا مؤلف «الإسكندرية: مدينة الذكريات العتيقة» و«الإسكندرية: صور فوتوغرافية للمدينة»، ١٨٦٠-١٩٦٠ (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٨).

■

Beyond the Horizon
Studies in Egyptian Art, Archaeology and History in Honour of Barry J. Kemp

ما وراء الأفق

دراسات فى الفن المصرى وعلم الآثار والتاريخ تكريما لبارى جى. كيمب
حرره سليمة إكرام وأيدان دودسون
مقدمة زاهى حواس
الجامعة الأمريكية بالقاهرة فبراير ٢٠١٠
٦٤٠ صفحة ١٨٠ جنيها

يتدارس رواد علم الآثار المصرى، فى أكثر من ٣٠ مقالا موزعة على مجلدين، موضوعات تتراوح بين الحجارة والحشرات، بين الأحذية وإنتاج الطحين، فى مواقع من جميع أنحاء مصر، فى مجموعة هامة مكرسة لتكريم أحد أكثر علماء الآثار احترامها.

سليمة إكرام وأيدان دودسون هما مؤلفا كتاب «المومياء فى مصر القديمة» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٨)، و«القبور فى مصر القديمة» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٨).

■

Munira's Bottle

القـــارورة

يوسف المحيميد
ترجمة أنتونى كالدربنك
الجامعة الأمريكية بالقاهرة فبراير ٢٠١٠
٢٢٤ صفحة - ٧٠ جنيها

رواية جديدة للكاتب السعودى صاحب الروايات الأكثر مبيعا من بينها «فخاخ الرائحة» فى الرياض، وبالمقابلة مع حرب الخليج الثانية وغزو صدام للكويت، نتعرف على قصة منيرة، صاحبة العيون فائقة الجمال، وما تعانى منه من مأساة لا توصف من فعل رجلها الذى يجره الانتقام بسبب إهانة شخصيته ورجولته.

وهى أيضا حكاية نساء أخريات كثيرات من المملكة العربية السعودية، يمررن عبر مركز الحبس الاحتياطى حيث تعمل منيرة، ضحايا ومرتكبى جرائم، شخصيات متألمة ومعذبة، محاصرين فى شرانق من الصمت والخوف.

تسجل منيرة قصصهم على قطعة من الورق وتطويها لتضعها فى قارورة غامضة قدمتها لها جدتها منذ فترة طويلة، لتصبح مستودعا لقصص قتلى، قد يعودون للحياة مرة أخرى.

تبحث هذه الرواية المثيرة للجدل فى كثير من القضايا التى تتسم بها حياة المرأة فى المجتمع السعودى المعاصر، بما فى ذلك السحر والحسد، والشرف والانتقام، وقانون معنوى صارم يملى أسلوب التفاعل بين الذكور والإناث. يوسف المحيميد هو النجم الصاعد فى الأدب العالمى.

و«القارورة» قصة غنية صيغت بمهارة عن تفكك الأسرة العربية السعودية. تكمن أحد عناصر قوتها فى كلماتها القاطعة: منيرة، المرأة الشهوانية، المتمحورة حول ذاتها، المقهورة جنسيا؛ وابن الدّحال، الدجال الوقح الذى يخدعها ويخونها؛ ومحمد، شقيقها الورع الغاضب على الدوام، يقومون بدور المحفز لدفع الأحداث. رحب القراء الغربيون بفتح الباب إلى داخل الأرواح والعقول العربية: آنى برولكس المحيميد يكتب بأسلوب غنى يستحضر أسلوب جابرييل جارسيا ماركيز، الذى ذكر الكاتب السعودى أنه تأثر به. (هو) لديه مأخذ على بعض المواضيع المثيرة للانقسام فى العالم العربى واشنطن بوست.

ولد يوسف المحيميد فى الرياض عام ١٩٦٤، نشرت له عدة روايات ومجموعات قصصية، ودرس اللغة الإنجليزية والتصوير الفوتوغرافى فى جامعة نوريتش سيتى فى انكلترا. وهو مؤلف «فخاخ الرائحة» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٧). أما أنتونى كالدربنك فقد ترجم العديد من الأعمال الروائية العربية الحديثة، بما فى ذلك رواية حجاج حسن أدول «ليالى المسك العتيقة» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٥). وهويعيش ويعمل فى المملكة العربية السعودية.

■

1- Green Tea Living: A Japan-Inspired Guide to Eco-Friendly Habits, Health, and Happiness.

الحياة بالشاى الأخضر: الدليل اليابانى الملهم لتحقيق السعادة باتباع عادات صحية وجيدة وصديقة للبيئة

Toshimi A, Kayaki
Stone Bridge Press 2010, 160pp, $10.76

«تحكى إحدى الأساطير الصينية القديمة قصة رجل كان من الحكماء ورغب هذا الرجل وهو على فراش الموت أن يعلم ابنه مائة ألف من الاسرار عن فوائد الأعشاب ومرت به الأيام إلى أن جاء يوم وفاته ولم يكن قد قص على ابنه سوى ثمانين ألفا من تلك الأسرارفما كان منه إلا أن أوصى ابنه بزيارة قبره فى غضون خمس سنوات من وفاته لكى يعرف العشرين ألفا الباقية. وعندما ذهب الابن وجد شجيرة الشاى الاخضر مزروعة بجانب القبر تلك الشجرة التى يلقبونها بهدية السماء» , تتجسد روح هذا الكتاب فى إبرام تعاقد للصداقة بين الإنسان والطبيعة من أجل حالة صحية وذهنية على ما يرام. تعرض المؤلفة توشيمى ألف كاياكى Toshimi A,Kayaki عشرات الطرق اليابانية العريقة والتى تتميز بالحكمة والبراعة فى تحسين نظرة الناس إلى الطبيعة ومدى السعادة التى يكتسبونها عند تعاملهم مع هذه الطبيعة بالاحترام الواجب. يتسم الشاى الأخضر فضلا عن مذاقه الطيب بسمات مفيدة جدا فهو يقلل من خطر الاصابة بالسرطان وأمراض القلب والأوعية الدموية ويؤدى الى تحسن صحة الأسنان وكثافة العظام ويقاوم الأمراض الفيروسية مثل الانفلونزا ويخفض الكوليسترول فى الدم كما أنه مدر طبيعى للبول ويؤدى الى زيادة التركيز وتحفيز التفكير فضلا عن تأثيره المنعش وآثاره الجمالية الرائعة على الجلد الذى يحافظ على نضارته بإمداد الجسم بالمواد المضادة للأكسدة ولا تنسى المؤلفة تقديم نصيحة غالية للجميلات اللاتى يستهدفن نظاما غذائيا للحفاظ على الوزن حيث يكفى لتحقيق هذا الهدف تناول أربعة أكواب من الشاى الأخضر يوميا لحرق الدهون الزائدة فى الجسم وهذا بالطبع يكون مترافقا مع أداء نشاط رياضى مثل رياضة المشى. المؤلفة Kayaki ولدت ونشأت فى اليابان والآن هى مقيمة فى سان فرانسيسكو وقامت بنشر مجموعة من الكتب تبلغ اثنين وعشرين كتاباً تدور مؤلفاتها حول المقارنة بين الثقافات المختلفة ووضع المرأة عبر هذه الثقافات والصداقة مع البيئة وتطوير الذات وعملت ككاتبة فى الصحف والمجلات الأمريكية و كمراسلة للإذاعة والتليفزيون الأمريكى.

■

2- Dewey: There,s a Cat in the Library

ديوى: قط فى المكتبة

Vicki Myron, Bret Witter
Little, Brown Books for Young Readers2009, 40pp $11.55

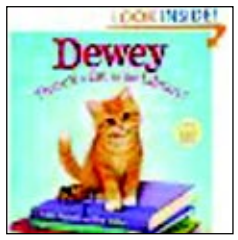

كانت تلملم أشياءها وتجهز المكان للمغادرة بعد انتهاء يوم من أيام العمل حين سمعت صوت أنينٍ خافتٍ يأتى من مكان ما، تلفتت حولها باحثة عن مصدر الصوت فإذا به آت من صندوق الاستعارة وكان ذلك فى مكتبة Spencer Public Library فى Iowa , لم تستطع مقاومة ضعفه ومرضه واحتياجه وبمشاعر حنونة قررت تبنى قضية هذا المخلوق الصغير الضعيف ذى الفراء الناعم والوجه البرىء ومنذ ذلك الحين صدر قرار Vicki Myron أمينة المكتبة بأن يكون «ديوى القارئ الأفضل» هو قط المكتبة. تنازلت مؤقتا عن وضعها كأمينة للمكتبة وعملت كممرضة للقط المريض ووفرت له الدفء والغذاء والمكان اللازم لرعايته, سرعان ما تعافى وأصبح له وجه ينيره نور الشفاء وكبر ديوى واشتد عوده وأصبح قطا نشيطا وصديقا معروفا لكل رواد المكتبة. أصبحت المكتبة بيتا جميلا لديوى الذى لم يكن ينغص عليه حياته سوى ذلك التطفل البرىء من جانب بعض صغار رواد المكتبة الذين كانوا يمسكونه بأيديهم الصغيرة ويلاعبونه بطريقة خاطئة ويقلبونه رأسا على عقب. لقد كانوا يطاردونه ويشدون ذيله مسببين له آلاما فى جسده مما جعله يشك فى إمكانية استمراره فى وظيفته الجديدة كقط للمكتبة، لقد أصبح يخاف من هذه المواجهات المؤلمة مع الأطفال، الذين امتزجت مشاعره نحوهم بحبهم والخوف منهم فى نفس الوقت، إن هذا الكتاب ملىء بالرسوم الواقعية الملونة بالألوان المائية مما يعطى للقصة إحساسا نابضا بالحياة ويجسد تعبيرات ديوى القط البرتقالى الجميل الذى أدرك فى النهاية أن حب الناس صغارا وكبارا هو مقصده الاساسى وتعلم كيف يتعامل مع الناس وكيف يكون كائنا متعاونا مع الجميع وبذلك فقد أصبح جديرا بالفوز بلقب أفضل قط مكتبة على الإطلاق. تلك القصة هى من أجمل ما كتب للأطفال وهى تجسد الطريقة المثلى للتعامل مع الحيوانات برحمة وتقدم للأطفال قيمة من أرقى القيم وهى الرأفة بالحيوانات.

■

3-Tears of Pearl (Lady Emily Sreies # 4)

دموع اللؤلؤة

Tasha Alexander
St. Marten,s Press 2009,pp $24.99

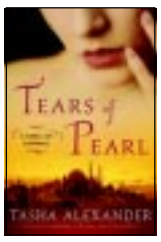

توقا إلى الاستمتاع بمباهج الحياة ورغبة فى أن ينهلا معا من نعيمها قصد العروسان Lady Emily و Colin Hargreaves تركيا من أجل شهر عسل فريد من نوعه. ولكن يبدو أن القدر أبى إلا أن يمنحهما شهرا هو فريد من نوعه بالفعل ولكن على بعد مائة وثمانين درجة من هدفهما ففى ليلتهما الأولى بالمدينة كان العثور على فتاة من حريم قصر السلطان Topkapi مقتولة خنقا حيث وجدت فى ساحة القصر الفخم وظلال من الغموض تخيم على مقتلها، وفى حالة من الحزن والأسى تسلم السير Richard St. Clare – وهو دبلوماسى انجليزى كان يعمل فى السفارة بالقسطنطينية – ابنته التى أقر بأنها كانت مختطفة منذ عشرين سنة ماضية، لم يستطع كولين التملص من عمله كعميل للمخابرات الانجليزية ووجد نفسه وعروسه إيميلى مكلفين من قبل التاج البريطانى بالتحقيق فى الحادث. وعد كولين وزوجته إيميلى الأب ذا القلب المكلوم بالعثور على القاتل لينال قصاصه. حاولت ايميلى الاعتماد على كينونتها كامرأة للدخول إلى عالم حريم قصر السلطان من أجل الوصول إلى أطراف الخيوط التى قد تمكنها من اكتشاف الجانى ولكنها وجدت هذا العالم شديد الغموض كما أن الجدران المغلقة لم تكن توفر أى حماية من براثن هذا القاتل شديد البشاعة الذى لم تفلت من بطشه حتى Valide أم السلطان نفسها التى وجدت مخنوقة بشالها الحريرى. تعرضت ايميلى للتهديد من جانب القاتل الذى زادت بشاعة هجماته على حريم القصر ولم تجد ايميلى مفرا من مقابلته على غير علم من كولين زوجها حيث لم تجد وسيلة لإعلامه هو والسلطان بهذه المقابلة حتى يوفروا لها الحماية اللازمة، ولم يكن أمامها حل غير الاعتماد على ذكائها الحاد فى التعامل مع هذا القاتل البشع الذى لم يعط حسابا لأى شكل من أشكال الرحمة لهذه الأرواح التى يزهقها بكل هذه القسوة. أحداث هذه الرواية تدور فى أواخر القرن التاسع عشر والمؤلفة Tasha Alexander هى خريجة جامعة Notre Dame ولها العديد من الروايات البوليسية التى حققت نجاحا كبيرا.

■

4- Barak Obama: A year in speeches Highlights of 44th President,s first year in Speeches.

باراك أوباما، عام من الخطب، مقتطفات من خطب الرئيس الرابع والأربعين فى عامه الأول .

LLC JMR Holding
Create Space 2009, 106pp $18.99

فى الفترة الأولى من تولى سيناتور ولاية إيلينوى الأمريكية أعلن عن نيته فى أن يصبح الرئيس الرابع والأربعين للولايات المتحدة الأمريكية، بدءا بخطبته الافتتاحية يستعرض الكتاب العام الأول لأوباما فى كلمات. حيث يحمل القارئ فى رحلة عبر أهم عشر خطب قدمها أوباما فى سنته الرئاسية الاولى. يعد الكتاب مرجعا هاما للطلاب والدارسين والمهتمين بالمجال السياسى وهو يعد أداة مساهِمة فى تقييم سياسة الرئيس الأمريكى بعد مضى سنة كاملة على اعتلائه العرش الامريكى.

■

7- Hegel, Haiti, and Universal History (Illuminations: Cultural formation of Americas)

هيجل، هاييتى، والتاريخ العالمى (ومضات على التكوين الثقافى لأمريكا)

Susan Buck-Morss
University of Pittsburgh Press,2009,160pp $11.06

المؤلفة سوزان باك مورس هى أستاذ الفلسفة السياسية والنظرية الاجتماعية بجامعة كورنيل قدمت لنا بعد جهد مضن هذا الكتاب الفريد الذى رسمت فيه أبعادا جديدة تربط بين التاريخ وعدم المساواة والظلم والصراع الاجتماعى وتحرير الانسان من العبودية. كتاب «هيجل، هاييتى، والتاريخ العالمى» يعيد تفسير أساسيات الخلفية التاريخية لجدليات هيجل حول الاستعباد ويشير إلى طريقة أفضل من أجل تحرير الممارسة النظرية من الأفكار القديمة التى تشكل سجنا لها.

يعرض الكتاب أفكار جورج فيلهالم فريدريك هيجل والأحداث التى وقعت فى الثورة الهايتية. تحلل باك مورس الارتباطات المذهلة بين البلدين وتتحدى القارئ لكى يوسع من حدود خياله التاريخى، إنها ترى أن عدم الاستمرارية فى التدفق التاريخى للتجارب الانسانية والعلاقات والصلات غير المتوقعة بين الثقافات المختلفة يكشف عن محدودية تجاوز حدود النقل التاريخى فى بعض الأحيان.

ومع ذلك فهناك ومضات من الوضوح تفتح إمكانات التفاهم على الرغم من الاختلافات الثقافية. إن ما تقترحه سوزان باك يرقى إلى نزعة إنسانية جديدة تذهب إلى ما وراء الأيديولوجيات المعتادة لهذه المرحلة. إنها تدعونا لتبنى مذهب الحياد المتطرف الذى يؤيد محو مسافات الخلاف بين الاطراف المتعارضة والوصول إلى معنى إنسانى مشترك. هاييتى هى إحدى دول البحر الكاريبى تقع فى جزر الهند الغربية فى الثلث الغربى من جزيرة الهيسبانيولا واسمها اشتق من كلمة هندية تعنى الأرض المرتفعة. كانت مستعمرة فرنسية سابقة كل سكانها من العبيد الأفارقة الذين جلبتهم فرنسا للعمل بالزراعة واستقلت هاييتى عن فرنسا إثر ثورة العبيد ١٨٠٤ وقد تعرضت لزلزال عنيف فى مقتبل هذا العام. وهى من أفقر دول العالم.

■

6- Physical Punishment in Childhood: The Rights of the Child

العقاب البدنى فى الطفولة: حقوق الطفل

Bernardette J.Saunders,Chris Goddard
WileyBlackwell 2010,284pp $28.49

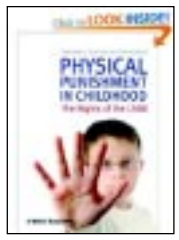

من خلال عرض نطاق واسع من وجهات النظر يقدم مؤلفو هذا الكتاب الخيط الرفيع الفاصل بين العقاب البدنى المقبول للأطفال وبين التعذيب أو إساءة المعاملة الجسدية أو النفسية والعاطفية للأطفال والذى يرفضه ويجرمه القانون. يقوم الكتاب على مجموعة من البحوث الميدانية التى أتاحت الفرصة للأطفال للحديث والتعبير عن أنفسهم ووجهات نظرهم وتجاربهم. يقدم الكتاب ملاحظات الأطفال والمربين وأجيال عديدة من بعض الاسر كحالات للدراسة.

يناقش الكتاب تأثير قوة اللغة المستخدمة فى التعامل مع الأطفال ويوضح أنه إذا اقتضت الضرورة توقيع نوع من العقاب على الطفل من أجل التوجيه أو التربية فهناك طرق عديدة قد تكون الحرمان من المصروف أو الخروج فى نزهة أو فعل أى نشاط من الأنشطة المحببة الى الطفل بغرض توجيهه الى شىء معين أو نهيه عن تصرف خاطئ، يوجه المؤلفون نقدا حادا لاستخدام العقاب الجسدى كوسيلة تربوية ويحذرون من نتائجه الوخيمة على إفراز أجيال من الشخصيات المريضة نفسيا باعتباره وسيلة مذلة ومهينة فى التربية.

ويعرض الكتاب نماذج للمجتمعات التى تجيز العقاب البدنى ودوافع هذه المجتمعات فى ذلك وأيضا مدى فعالية هذا الأسلوب ونتاجه على الأطفال، أيضا يعرض رؤية جديدة لتناول هذا الموضوع بشكل حضارى يراعى حقوق الطفل التى هى محور أساسى لاتفاقيات حقوق الانسان ويناقش الكتاب حقوق الطفل فى أن ينال المعاملة الانسانية التى ترتضيها آدميته وعدم المبالغة فى العقاب تحت مبرر التربية حيث إن هذا من المسلمات التى يجب أن تتوافر له فضلا عن حقوقه فى التعليم والرعاية الصحية والمتابعة الأسرية ورعاية الطفل ذى الظروف الاجتماعية الخاصة كانفصال والديه أو وفاتهما أو وفاة أحدهما أو الفقر. يعد هذا الكتاب قيمة عالية لمن لهم تعاملات مباشرة مع الأطفال أو العاملين فى مجال حماية حقوق الطفل.

■

5- When China Rules the World The End of the Western World and the Birth of a new Global Order

متى تحكم الصين العالم؟ نهاية العالم الغربى وميلاد نظام عالمى جديد

Martin Jacques
Penguin Press HC 2009,567pp $19.77

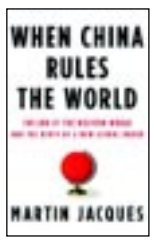

فى عرض تظلله العقلانية يقدم Jacques تحليلا للجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية التى تسببت فى انحسار الهيمنة الغربية وصعود الصين كنموذج جديد من الحداثة. يسلط جاك الأضواء على السياسات التاتشرية «نسبة إلى مارجريت تاتشر» ويعتبرها المسئولة عن إطلاق الشرارة الأولى للطفرة الصينية التى ساعد حجمها والنمو المذهل لها وكونها أكبر سوق فى العالم على إحداث هذا التطور الفريد.

يشير جاك إلى تراجع الهيمنة الأمريكية ويحدد عناصر معينة تسببت فى صعود الصين كقوة عالمية وكيف يمكن أن يؤثر ذلك فى العلاقات الدولية فى المستقبل. يتخيل جاك النهضة الصينية الحديثة وقد كست العالم بردائها الصينى الجديد بما فيه من جذور عميقة لها ارتباط وثيق بالثقافة والعادات الصينية العريقة التى بالتأكيد سوف يكون لها تأثيرها على الاتجاهات نحو العمل والأسرة وحتى السياسات حيث إن من شأن هذا التغيير أن يعكس التوازنات العالمية ويجعلها لصالح الصين بعد أن كانت الثقافة والهيمنة الغربيتان هما صاحبتا النفوذ فى فترة ما قبل النهضة الصينية. يشير جاك فى دراسته إلى أن الازدهار الصينى لا يشترط بالضرورة أن يترجم إلى الديمقراطية ولكن تزايد ثقة الصين بنفسها من شأنه أن يجعلها تفرض هويتها الثقافية والسياسية على نطاق أوسع من أى وقت مضى. ويرى جاك أننا نعيش منذ أكثر من مائتى سنة فى عالم من صنع الغرب، عالم ترتبط فيه العصرية والحداثة بالكينونة الغربية ولكن القرن الواحد والعشرين بالتأكيد سوف يكون مختلفا.

إن صعود الصين والهند والنمور الآسيوية يعنى أنه وللمرة الأولى لن يكون مفهوم الحداثة والعصرية غربيا بعد الآن.

سوف يواجه الغرب بحقيقة أن أنظمته ومؤسساته وقيمه لم تعد هى الوحيدة المطروحة على الساحة إن جوهر فكر هذا الكتاب الجديد هو أن الغرب يتجه إلى حقبة تتسم بحداثة مطعون فى صحتها وأن لاعب خط الوسط فى العالم الجديد هو الصين. قارية فى حجمها وعقليتها تلك هى الصين دولة الحضارة التى فرضت وجودها كدولة قومية من خلال خصائصها واتجاهاتها وقيمها، وبرغم تأثرها الواضح بالغرب فإن حجمها وتاريخها غير العاديين يؤكدان أنها سوف تظل متميزة إلى حد كبير ومثلما تمارس قوتها المتنامية المتسارعة فإنها سوف تحدث تغييرا أكبر مما يحدث فى العالم من تغيرات جيوسياسية. لن تستمر سيادة مفهوم الدولة القومية الذى نعرفه وسوف يتم تغيير نظام الدولة المرتبط بالنموذج الغربى وستتم إعادة رسم أفكار وخطوط اللعبة.

يتميز هذا الكتاب بالشمول والعرض المنطقى للأحداث والتحليلات إنه يعرض بالفعل صورة واضحة لموقفنا الحالى وإلى أين نحن ذاهبون، إنه كتاب يتميز ببعد النظر والتأمل العميق لمعنى ما يحدث فى الصين من صعود. مارتن جاكوز باحث زائر فى مركز الابحاث الآسيوية بكلية لندن وكان مؤخرا أستاذا زائرا فى جامعة Remnin ببكين والمركز الدولى للدراسات الصينية ومعهد الدراسات الآسيوية بجامعة سنغافورة الوطنية، وكان رئيسا لتحرير مجلة Marxism Today وهى من أفضل المجلات المحافظة وكتب للتايمز والساندى تايمز وهو حاليا كاتب لعمود يومى فى الجارديان.

■

يوميـــــات

أحمـــــد بهـــاء الـدين

مـصـــــر والجـــــزائـــر.. والمبـــــاراة

■■ غدًا تقام فى القاهرة مباراة لكرة القدم بين مصر والجزائر، وهى من المباريات التى يسميها نقاد وجمهور الكرة: «تاريخية» و«حاسمة»، وسائر العبارات التى تزيد من التوتر والتشنج بين الناس؛ لأن الفريق الفائز فيها سيدخل نهائى بطولة كأس العالم!

وقد تذكرت أننى فى أواخر السبعينيات كنت فى الكويت وقال لى الشيخ صباح الأحمد وزير الخارجية، وأنا أهنئه بفوز الكويت الصغيرة ببطولة آسيا، أنه سيطلب من مجلس الوزراء إلغاء هذه الدورة فى السنوات المقبلة! لماذا؟.. لأن ما تبنيه السياسة والدبلوماسية فى خلال سنوات فى مجال العلاقات الحسنة مع الإخوة والجيران والدول الصديقة، يفسده جمهور الكرة فى ليلة واحدة!.. وكان هذا صحيحًا إلى حد كبير. إذ غضبت شعوب فى آسيا لأن الكويت الصغيرة فازت بالكأس! وأن شعب الكويت عبر عن فرحته الطبيعية «أكثر من اللازم».

والحكومات بالطبع أعقل من جمهور الكرة فى كل البلاد.. أو أعقل من «متهوسى الكرة». التى جعلت حكومة كإنجلترا تمنع سفر المشجعين لنواديهم وبلادهم إلى أوروبا وتمنع فريقها القومى من مباريات كأس أوروبا، ولا نريد أن نرى شيئًا من هذا فى مباراة الغد بين منتخب الكرة الجزائرى والمنتخب المصرى!

ووسائل الإعلام. صحافة وإذاعة وتليفزيون. لها دور كبير فى هذا المجال!..

فالكلام بلغة السياسة ولهجة الوطنية والتفاخر القومى، غير جائز على الإطلاق. وبعض النقاد إذا انهزمنا يعظوننا بحكاية أن «الكرة مستديرة».. يوم لك ويوم عليك والروح الرياضية.. أما إذا انتصرنا، فقد غزونا وفتحنا فتحًا مبينًا.. إلى آخره..

وما ينشر ويذاع قبل المباراة وأثناءها وبعدها، مهم جدًا فى تهذيب الجمهور، ورفع الروح الرياضية. إلى حيث مكانها الصحيح. ولا يمكن أن تكون عزة بلد وكرامته وسمعته رهنًا بمجهود أحد عشر لاعبًا قد يحسنون أو يسيئون.

والرياضة أساسًا خلقت ووجدت كوسيلة للارتقاء بعدد من غرائز الإنسان. والمباريات امتحان للاعبين والمعلقين وللجمهور على السواء..

وهذا ما نرجو أن نراه غدًا.. ونهتم به أكثر مما نهتم بالنتيجة قبل الرياضة، فى الأسلوب والاجتهاد واحترام قواعد اللعبة قبل عدد الأهداف.. ■

الأهرام ١٩٨٩/١١/١٦م

«وجهات نظر» تشكر الأستاذ السنوسى محمد السنوسى الذى أرسل لها بهذا المقال